



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم: اللغة العربية وآدابها



أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في البلاغة و الأسلوبية

مباحث علم المعاني في تفسير الألويسي (روح المعاني) - دراسة بلاغية وأسلوبية -

إشراف: د. قدوسي نورالدين

إعداد الطالب : شيحا نصرالدين

أعضاء لجنة المناقشة:

رئيسا	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د محمد موسوني
مشرفا	جامعة تلمسان	أستاذ محاضر "أ"	د. قدوسي نورالدين
عضوا	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د طرشي سيدي محمد
عضوا	جامعة سيدي بلعباس	أستاذ محاضر "أ"	د.يوسف سعداني
عضوا	المركز الجامعي عين تموشنت	أستاذ التعليم العالي	أ.د بلي عبد القادر
عضوا	المركز الجامعي مغنية	أستاذ محاضر "أ"	د. بوشيبة عبدالقادر

السنة الجامعية: ٢٠٢٠/٢٠٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

[القمر: ٢٢]

ولله تعالى در التنزيل ماذا جمعت آياته :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه ...

يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

تفسير الألوسي روح المعاني (٦ / ٢٦٥)

شكر و تقدير

مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ﴾

[إبراهيم: ٧]

فإني أشكر الله على نعمه التي لا تحصى ولا تعد، شكرا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وتبعاً لما جاء في حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام «مَنْ لَأَ يَشْكُرُ النَّاسَ لَأَ يَشْكُرُ اللَّهَ»^١، استوجب علي تقديم جزيل الشكر والعرفان إلى كل من كان سببا في إعداد هذه الأطروحة في مقدمتهم أستاذي شريفي عبد اللطيف - رحمه الله - وأستاذي قدوسي نورالدين، وعائلي الصغيرة والكبيرة.

وأوجه بخالص الشكر والتقدير للأساتذة الأفاضل على تقويمهم هذا العمل، وأستسمحهم فيما أخذ من وقتهم الثمين، جعل الله أعمالهم كلها حسنة، إنه لا يضيع أجر المحسنين.

^١ سنن الترمذي (٤ / ٣٣٩).

المقدمة:

الحمد لله المنعم على عباده بما هداهم إليه من الإيمان والتمتع إحسانه بما أقام لهم من جلّي البرهان فله الشكر على جزيل إحسانه وعظيم مننه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى وعلى آله وأصحابه تسليماً كثيراً.

ازدهرت علوم العربية في رحاب القرآن، فتعددت فنونها، وتشعبت أقسامها، وأصبح كل قسم منها علماً مستقلاً بذاته له مؤلفات وعلماء مختصون، فكان علم الأصوات وعلم النحو والصرف والبلاغة وفقه اللغة وغيرها دون أن ننسى الفنون الأدبية، ولا زال القرآن الكريم النبع الغزير الذي تستمد العلوم والفنون مادتها في سبيل تيسير فهم القرآن الكريم وبيان علومه وايضاح إعجازه، فتسابق العلماء في استنباط وجوه الإعجاز القرآني وأسرار البيان الرباني، وتعاقت الأجيال في هذا، ولم يكتف المتأخر بما كتب المتقدم إيماناً منه بأن عيونه لا تنضب، وبلوغ الكمال في البحث غاية لا تدرك.

وكان موضوعي لنيل درجة الماجستير، حافزاً لي فيما أقدمه اليوم في هذه الدراسة، فشدني هذا الأمر للبقاء تحت مظلة القرآن الكريم والوقوف على الظواهر اللغوية في آياته والاطلاع على ما كتبه المفسرون والبلاغيون في هذا المجال، فإن هناك الكثير ممن صنفوا الكتب النافعة في معاني وتراكيب القرآن وتكلموا في فوائده ليبسطوا القول في الإبانة عن وجوه الإعجاز والكمال في كتاب الله العزيز، وقد برعوا في لطيف ما كتبوا وأبدعوا، فوقف مع الكثير من الموضوعات البلاغية التي تشد القارئ إلى الاهتمام بها والبحث فيها، فكان في البداية موضوع (علم المعاني في القرآن الكريم) الذي استحوذ على تفكيري وأصبح غايتي المنشودة ولكن لتشعب وتوسع هذا الموضوع، قلصت مجال بحثي واخترت تفسير الألوسي "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" كمعين لي في دراستي، الذي كانت له قراءة متميزة للنص القرآني إذ جمع في قراءته كل ما تلقاه عن العلماء من مختلف التوجهات الفكرية فكان يجمع بين التفسير باللغة والبلاغة والرواية وغيرها كما كان يفسره في كثير من الأحيان وفق الخلفية الصوفية بتفسيرها الإشاري. فجاءت رسالتي هذه الموسومة: مباحث علم المعاني في تفسير الألوسي (روح المعاني). دراسة بلاغية وأسلوبية.

ويحاول الباحث في هذا الموضوع الإجابة على مجموعة من التساؤلات من بينها:

- ماهي أهم مباحث علم المعاني التي وردت في تفسيره؟
- كيف وظفت هذه المباحث في تفسيره؟ وكيف طبق الألووسي نظرية النظم في تفسيره؟
- ما هي طرق العدول التي وردت في تفسيره وماهي دلالاتها؟

وتكمن أهمية هذا البحث وأهدافه في ما يلي:

- ١- الاعتناء بكتب التفسير وجعلها موضوعا للدراسة العلمية، مع إمكانية الاستفادة من الآليات المعرفية والمنهجية التي توظفها.
 - ٢- تسليط مزيد من الضوء على دور وأهمية علم المعاني في "روح المعاني"، ومدى قدرته على تحليل الخطاب القرآني، وإظهار روعة وإعجاز البيان القرآني.
 - ٣- الخروج عن النمطية والقوالب الجاهزة التي عرفتتها بعض الدراسات البلاغية بعد الجرجاني، وتقديم دراسة تطبيقية للبلاغة العربية بالرجوع إلى التذوق البلاغي والتحليل الأدبي لشواهد مباحث علم المعاني الغزيرة التي تطرق إليها الألووسي.
 - ٤- الكشف عن بعض الملامح الأسلوبية، التي وردت في تفسيره وخاصة العدول و الاختيار، فلقد كان للألووسي حس مرهف ودقة متناهية في إدراك أسرار التعبير القرآني، و استنباط الفوائد من تغير أسلوب الكلام وتحوله من جهة إلى أخرى.
- واعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، حيث نقوم بالبحث واستقراء مواضع علم المعاني ومباحثه. قدر الإمكان. في تفسيره، ثم تحليلها لتبيين موقف الألووسي وآرائه حولها، و لا نقف عند هذا بل نناقش ونوازن بين تحليلاته وأفكاره مع غيره من العلماء. وهذا للتعرف على منهجه في طرحه لقضايا علم المعاني.
- وعند البحث عن الدراسات السابقة والقريبة من الموضوع، وجدت بعضها تناول علوما أخرى غير البلاغة مثل: النحو والصرف، والقراءات القرآنية عند الألووسي، نحو:

- منهج الإمام الألوسي في القراءات وأثرها في تفسير روح المعاني، للباحث: بلال علي العسلي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٩م.
- منهج الألوسي النحوي في كتابه "روح المعاني"، علي جمعة مسلم، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٤م.
- أبنية الصرف في تفسير روح المعاني (دراسة صرفية دلالية)، للباحثة: شيماء متعب الشمري، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ٢٠٠٥م.

أما الدراسات التي تخص الجانب البلاغي فنجد:

- جهود الألوسي البلاغية من خلال كتابه "روح المعاني"، صالح إبراهيم ماضي، رسالة دكتوراه، جامعة أم درمان، السودان، ٢٠٠٩م.
- وهي دراسة تناولت الأقسام الثلاثة للبلاغة، (علم المعاني، علم البيان، علم البديع) وخص كل علم بفصل واحد، ولهذا جاءت هذه الدراسة موجزة لأنها لم تستوعب جميع مباحث علم المعاني، نظرا لتقسيم بحثه وجهده على العلوم البلاغية الأخرى.
- الاتجاه البياني (علم المعاني) في تفسير الألوسي من خلال سورة البقرة، للباحث: جهاد محمد فيصل، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، الأردن، ٢٠٠٥م.
- وهي رسالة كما يتبين من العنوان درست علم المعاني في سورة واحدة من القرآن، بخلاف دراستي في هذا البحث التي تحاول استقراء مباحث علم المعاني في جميع سور القرآن حسب الحاجة، فضلا عن تناولي لبعض مبادئ الأسلوبية كالعدول والاختيار.
- وبناء على هذا - أعتقد - أن دراستي هذه جاءت مختلفة عن الدراسات السابقة لكونها دراسة شاملة لجميع السور القرآنية، حيث نحدد رأي الألوسي في كل مسألة من مسائل علم المعاني، مع تتبع دلالات ووظائف كل فن من فنونه، ومن جهة أخرى لكون الدراسة تجمع بين البلاغة والأسلوبية.

ومن بين الصعوبات التي واجهتني في هذه الدراسة:

سعة الموضوع الذي ينهل من التراث العربي ويستضيئ بالأسلوبية الحديثة وحجم التفسير الذي يصل إلى تسعة وعشرون جزءاً في أحد طبعاته ، وكثرة المادة في علوم المعاني ذاكراً آراءه وآراء غيره من العلماء.

ومن تلك المصاعب أيضاً ارتباط البحث بالقران الكريم الذي يحتاج إلى فهم نصوصه فهماً دقيقاً خوفاً من معبّة الوقوع في خطأ التأويل أو التفسير.

واقترضت طبيعة الموضوع تقسيمه إلى أربعة فصول، تسبقها مقدمة و تمهيد:

أما التمهيد فخصصته للتعريف بالإمام الألويسي، وتفسيره روح المعاني.

الفصل الأول: علم المعاني بين النظم والعدول: وهو فصل يحاول فيه الباحث توضيح العلاقة

بين علم المعاني بالنظم والعدول فقامت بتحديد مفهوم علم المعاني ونشأته، ومفهوم نظرية النظم، ولعلاقة هذه النظرية بالإعجاز ووجوه الإعجاز القرآني عند الألويسي.

وتناولت فيه أيضاً أحد أهم مبادئ الأسلوبية وهو العدول أو الانزياح، وحددت مفهومه وبينت جذور هذا المصطلح في التراث العربي، وأنواعه ووظيفته والمعيار الذي يقوم عليه ، وملامح العدول في القرآن الكريم وعند الألويسي .

وبعد ذلك انتقلت إلى القسم التطبيقي للدراسة والتي احتوت على ثلاثة فصول وهي كالتالي:

الفصل الثاني: المفردة القرآنية: بدأ الباحث هذا الفصل بتوطئة وضح فيها الجانب البياني

للمفردة القرآنية ودقة موضعها، وآراء العلماء حول ذلك، ثم شرعت في مباحث هذا الفصل، فذكرت أهم الخصائص والدلالات في اختيار المفردة القرآنية عند الألويسي. من بينها الظلال والإيحاء والتصوير والانسجام الصوتي، ثم مبحث العدول العددي، ومبحث ثالث حول الأفعال والأبنية، والمباحث الأخيرة حول التعريف والتنكير وأغراضهما .

الفصل الثالث: بناء الجملة القرآنية: قام فيه الباحث بدراسة بعض مباحث علم المعاني التي

تخص الجملة القرآنية، وتحديد مفهومها في الدراسات القديمة والحديثة، وأبرز شواهدة في تفسير الألووسي وهي كالتالي:

- أسلوب الاستفهام ، أسلوب الأمر، أسلوب النهي، فقامت بتحديد مفهوم هذه المصطلحات عند البلاغيين والأسلوبيين، وأهم أغراضها في القرآن الكريم.
- أسلوب التقديم والتأخير ويندرج تحت هذا المبحث عدة مطالب مثل: تقديم المسند والمسند إليه ، وتقديم بعض المعمولات على بعض .
- أسلوب الحذف وفيه ثلاث مطالب حذف المفردات وحذف الجملة وحذف المفعول به .
- أسلوب التوكيد مفهومه وأهم أغراضه.

الفصل الرابع: بناء الجمل القرآنية: وهو فصل يبحث وينظر في الجمل المتتابعة،

لمعرفة خفي المعاني الكامنة وراء ترابطها وتناسبها، وهذا الترابط يتجلى في المباحث التالية:

- أسلوب الفصل و الوصل ، ذكرت أهم مواضعهما، وتتبع السياقات القرآنية التي تتطلب الفصل أو الوصل
- أسلوب الالتفات ، حددت مفهومه واستخرجت صوره الستة وأهم أغراضه من خلال تفسير الألووسي
- أسلوب التكرار، وتناولت التكرار في الفاصلة القرآنية، وفي القصص القرآني
- ترتيب الجمل وترابطها.

وانتهت الدراسة بخاتمة جمعت فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها.

ووفق هذه الخطة كانت مصادر البحث متنوعة ومتعددة، فكانت تستقي من الدراسات القديمة والحديثة وبالاستعانة بمصادر متنوعة منها كتب التفاسير مثل : الكشاف . للزمخشري ، والتفسير الكبير . للرازي ، والتحرير والتنوير لابن عاشور وكتب البلاغة العربية القديمة والحديثة مثل دلائل الإعجاز. للجرجاني ، ومفتاح العلوم للسكاكي، وخصائص التراكيب لمحمد أبو موسى، وكتب

الأسلوبية والدراسات المعاصرة مثل: البلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب ، والأسلوب والأسلوبية للمسدي، و الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية، لأحمد ويس.

وفي الأخير أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للسادة الأساتذة المناقشين على تحملهم عناء قراءة هذه الرسالة وتصويبها، كما أشكر أستاذي الدكتور قدوسي نورالدين الذي أفاض عليّ بوسع معرفته وكريم فضله وثمانين وقته مما حفزني على إنجاز هذا البحث، وأدعو الله العلي القدير أن يجازي الجميع عني خير الجزاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباحث: شيحا نصرالدين

يوم: ٠٦ أكتوبر ٢٠٢٠

بتلمسان

التمهيد

التعريف بالإمام الألووسي وتفسيره روح المعاني

✓ التعريف بالإمام الألووسي

✓ تعريف تفسير روح المعاني

أولاً_ التعريف بالإمام الألوسي:

١- اسمه ونسبه:

هو فريد عصره، ونسيج وحده السيد محمود بن عبد الله بن محمود بن درويش البغدادي مولداً ونشأةً ووفاءً^(١). ينتهي نسب الإمام الألوسي وأسرته إلى الإمام الحسين رضي الله عنه، فهو حسيني الأسرة، وأسرته مشهورة معروفة بالعراق.

وينسب الإمام إلى أوس فيقال الألوسي، بالمد والقصر، وأهلها ينطقونها بالمد فيقولون أوس، ونسبة الأسرة الألوسية إلى جزيرة (أوس) في وسط نهر الفرات، على خمس مراحل من بغداد^(٢)، ويكنى أبو الثناء، أو أبو عبد الله الألوسي، ويلقب شهاب الدين^(٣).

أسرته شافعية المذهب، وبدأ هو كذلك حتى نبغ في المذهب الحنفي حتى صار مفتياً به. وكان سلفي الاعتقاد، صوفي نقشبندی الطريقة^(٤).

ولد الإمام الألوسي في يوم الجمعة الرابع عشر من شعبان سنة ألف ومئتين وسبع عشرة، وذلك بجانب الكرخ ببغداد^(٥)، وفي هذه الأسرة الكريمة نشأ الإمام الألوسي، ونسب إليها وترعرع فيها حتى صار ذلك العلم الفريد، والعالم ذائع الصيت.

٢- نشأته ورحلاته:

نشأ الشهاب الألوسي في بيت علم وأدب، وكان والده مدرس العلوم ببغداد وفقهه الحنفية وإمام الشافعية، فربى ولده على حفظ القرآن، فحفظه وأخذ منه الأدب والبلاغة والحديث.

كانت الأسرة الألوسية خاصة، وبغداد عامة هي منبع العلم ومستقر الأدب، وكانت أسرته من أكبر الأسر في بغداد، ووالده مفتيها وإمامها، وفي هذا الجو نشأ طود الأدب وعلم البلاغة، وأمير البيان الإمام الألوسي، فعندما وصل عمره ثلاث عشرة سنة كان قد أجزى في تدريس العلم، وبدأ في الدعوة إلى

(١) الأعلام، خير الدين الزركلي دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر، ٢٠٠٢ م (٧/ ١٧٦)/ التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، د. ط (١/ ٢٥٠).

(٢) الأعلام، الزركلي (٧/ ١٧٦)

(٣) الأعلام، الزركلي، ٥٣/٨

(٤) التفسير والمفسرون، حسين الذهبي ٢٥٢/١.

(٥) أعيان القرن الثالث عشر، خليل مردم، لجنة التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧١ م ص: ٤٨

الله، ولما وصل العشرين كان والده قد توفي في سنة (١٢٤٢هـ) بالطاعون الذي ضرب بغداد^(١).

وبعد ذلك رحل الألوسي وهجر داره وسكن جوار مسجد الشيخ عبد الله العاقولي بالرصافة. وفي عام (١٢٣٨هـ) تولى الوعظ في جامع الشيخ عبد الله العاقولي، فسمع وعظه مرة الوزير علي رضا، فدعاه لزيارته، وولاه أوقاف المدرسة المرجانية، وقد كانت مشروطة لأهل بغداد. ثم انتشر اسمه وذاع صيته، حتى أمه الناس وصار علماً في الفقه الحنفي فعينه علي رضا مفتياً للحنفية^(٢).

وتعلم له وأخذ عنه خلق كثير من قاصي البلاد ودانيها، وتخرج عليه جماعات من الفضلاء من بلاد مختلفة كثيرة، وكان - رحمه الله - يُواسى طلبته من ملبسه ومأكله، ويُسكنهم البيوت الرفيعة من منزله، حتى صار في العراق العَلمُ المفرد، وانتهت إليه الرياسة لمزيد فضله الذي لا يُجحد، وكان نسيجٌ وحده في النثر وقوة التحرير، وغزارة الإملاء وجزالة التعبير، وقد أملى كثيراً من الخطب والرسائل، والفتاوى والمسائل، ولكن أكثر ذلك - على قرب العهد - دَرَسَ وَعَفَت آثاره، ولم تظفر الأيدي إلا بالقليل منه^(٣).

وفي هذه الفترة بدأ في تفسير روح المعاني، وألف كتباً كثيرة، وراسله الأدباء وشرح في تدريس العلوم بداره، حتى ذاعت شهرته وطبقت الآفاق وملاأت العراق وراحت في أركان الدنيا.

وفي هذه الأثناء عُزل رضا باشا عام (١٢٥٨هـ) وخلفه محمد نجيب باشا فعزل الألوسي بعد أن استمر في الفتوى والتدريس خمس عشرة سنة وذلك في سنة (١٢٦٣هـ) فاشتغل الألوسي بالتفسير، حتى أتمه عام (١٢٦٧هـ)^(٤).

سافر الألوسي إلى القسطنطينية ليعرض على السلطان كتابه روح المعاني في التفسير، وليعرض أسانيده، وعلمه على علماء السلطنة ويلتقي من لم يسمع منه من علمائها، ثم رجع إلى بغداد ونزل بدار الضيافة السلطانية، ورفع مذكر للصدر الأعظم (رئيس الوزراء) مصطفى باشا راشد، وقابل السلطان

(١) أعيان القرن الثالث عشر، خليل مردم، ص: ٤٨

(٢) معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٢ / ١٧٥).

(٣) التفسير والمفسرون (١ / ٢٥١)

(٤) معجم المؤلفين، (١٢ / ١٧٥) التفسير والمفسرون (١ / ٢٥١).

محمود خان العدلي ابن السلطان عبد الحميد وهو الذي اختار اسم هذا التفسير^(١).

وجلس في رحلته هذه إلى الشيخ أحمد عارف حكمت الحنفي، مفتي البلاد وشيخ الإسلام، فأجاز الألوسي على ما عنده من أسانيد، وألف فيه كتابه (شهي النعم في ترجمة شيخ الإسلام وولي النعم أحمد عارف حكمت) وبعد ذلك عاد الإمام إلى بغداد وألف كتابه (نشوة الشمول في السفر إلى استانبول) وصف فيه رحلته منذ خروجه من بغداد حتى وصوله إلى الأستانة. ودون رحلته هذه ذهاباً وإياباً في سفرين سماهما نشوة الشمول، ونشوة المدام. وألف كتاب (غرائب الاغتراب) ضمنه تراجم الذين لقيهم^(٢).

٣- شيوخه:

تلقى العلامة الألوسي العلم يافعاً، وحرص على الازدياد منه، فجالس العلماء وأجازهم الفضلاء وتلقى من أهل الأدب واللغة والحديث والتفسير حتى اجتمع له شيوخ أهل زمانه، وأخذ عنه طلاب عصره وأوانه.

وقد أخذ العلم من عدد من أهل ذلك الزمان أشهرهم:

- والده السيد عبد الله بن محمود الألوسي، وتلقى منه القرآن وأتقنه على يديه، وقد كان والده إمام زمانه حتى توفي سنة (١٢٤٢هـ) وتلقى عنه بداية المذهب الشافعي، ومدخل العلوم^(٣).

- علي بن محمد بن سعيد بن عبد الله بن الحسين السويدي، المعروف بعلي أفندي المتوفي (١٢٣٧هـ) مؤرخ أديب، ولد في بغداد وتوفي في دمشق، وصنف عدداً من المؤلفات أشهرها العقد الثمين في بيان مسائل الدين^(٤).

- الشيخ أبو البهاء خالد بن الحسين، ضياء الدين النقشبندی ت (١٢٤٢هـ)، جاء من جهات شهرزور، وهاجر إلى بغداد وكان عالماً عاملاً، زاهداً، تلقى على يده العلوم العقلية والنقلية وألف فيه

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: على عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥ هـ. ٥/١.

(٢) ينظر: أعيان القرن الثالث عشر، ص: ٥١. الأعلام للزركلي (١٧٦/٧)

(٣) معجم المطبوعات، يوسف إيليان سركيس، مكتبة مرعشي، القاهرة ١٩٢٨م. ٣/١، أعيان القرن الثالث عشر، مصدر

سابق، ص: ٤٨.

(٤) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٠، ص ١٢٢.

الألوسي (الفيض الوارد في مرثية مولانا خالد)، وقد نشر الطريقة النقشبندية في بغداد، وشرح مقامات الحريري في مؤلف مشهور، وقد أخذ عنه الألوسي الطريقة النقشبندية^(١).

- أحمد عارف حكمت بن إبراهيم الحنفي، مفتي الإسلام، التقاه الشيخ الألوسي في اسطنبول، وأجازه بما عنده من أسانيد، ولد سنة (١٢٠٢هـ) وتوفي (١٢٧٥هـ) وقد صنف كثيراً من الكتب^(٢).

وتلقى الإمام العلم والأدب واللغة، عن أفاضل العراق ونجبائها وعلمائها، حتى صار علماً ومرجعاً لأهل زمانه ومن بعدهم.

٤- مذهبه^(٣):

كان الإمام الألوسي سلفي العقيدة، في غير تعصب، ولا ميول منحرفة، وكان أسلافه على مذهب الإمام الشافعي في الفقه، ودرس هو الفقه عندهم، وأخذ منهم وقد نزع هو مع شافعيته إلى مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة، حتى صار من فقهاءه، وأكبر علمائه ونبغ فيه إلى أن صار إماماً للمذهب، مفتياً للحنفية سنة (١٢٤٨هـ).

فالألوسي على عقيدة أهل السنة والجماعة، ومذهبه الفقهي الشافعي، مع نبوغه في مذهب الإمام أبي حنيفة الذي تولى الإفتاء باسمه، وقد أخذ الطريقة الصوفية النقشبندية على الشيخ أبي البهاء خالد النقشبندي. فالألوسي سني من أهل السنة والجماعة، شافعي المذهب حنفي الفتوى والإفتاء، نقشبندي الطريق والسلوك.

٥- آثاره العلمية:

ترك الإمام الألوسي ثروة علمية ضخمة صنفها في حياته، ويغلب على مؤلفاته الطابع الأدبي واللغوي والصناعة البيانية وسنورد بعض مؤلفاته اختصاراً.^(٤)

(١) المرجع نفسه، ص ١٣٧

(٢) التفسير ورجاله، ابن عاشور ص ١٣٨.

(٣) التفسير والمفسرون، الذهبي ٢٥١/١، التفسير ورجاله، ابن عاشور، ص: ١٢٣.

(٤) ينظر هذه المؤلفات في: أعلام العراق، محمد بھجة الأثري، المطبعة السلفية، بغداد، ١٣٤٥هـ، ص (٢٨ - ٣٥) /

والألوسي مفسراً، محسن عبد الحميد، مطبعة المعارف، بغداد، ط ١٩٦٩م، ص (٨٦ - ١٤٣)

(أ) في الأدب واللغة ((١)):

* **حاشية شرح القطر:** وهذه الحاشية أو الحواشي هي ما وعته أذنه من التقارير التي كانت تدور في مجالس شيوخه، كتبها منذ صغره ولم يتمها وإنما أتمها ابنه نعمان خير الدين وسماها (الطارف والتالد في إكمال حاشية الوالد) في كتاب مستقل عن حاشية والده. وهذه الحاشية تشمل الموضوعات التي طرقها ابن هشام حسب ترتيب كتابه، فأحيانا يشرح ما قاله ابن هشام أو يعلله أو يبين اسم من نقل عنه، وينقل آراء النحويين في بعض المسال، ويحيل أحيانا على الكتب المطولة (٢)

* **كشف الطرة عن الغرة:** وهو مختصر وشرح ل (درة الغواص في أوام الخواص) للقاسم بن علي الحريري (٥١٦هـ) حيث يشرح الألوسي أقوال الحريري ويناقشها ويرد عليها، وهو من كتب التصحيح في اللغة والنقد اللغوي. والألوسي يسند الأقوال التي جاء بها الحريري غير مسندة لأصحابها، ويعطي الأقوال المضادة لها، ويذكر أمثلة للقواعد التي لا يمثل لها الحريري، ويؤيده أحيانا ويظهر في هذا الشرح عمق الألوسي وفقهه في اللغة والتفريق بين المعاني (٣)، طبع في المطبعة الحنفية بدمشق سنة ١٣٠١هـ

* **بلوغ المرام من حل كلام ابن عصام في علم الاستعارة:** أشار الأستاذ الأثري إلى أنه قد ألفه في صباه حين ذهابه إلى ألس (٤)، وذكره د. محسن عبد الحميد باسم (حاشية عبد الملك بن عصام في علم الاستعارة) وأصل هذه الحاشية تعليقات كتبها الألوسي على كتاب بلوغ الأرب من تحقيق استعارات العرب لعبد الملك بن عصام، وهو يشرح المتن ثم يشرح الموضوع من جوانب عدة وينقل الآراء الأخرى في الموضوع (٥)

* **شرح العينية المسمى (الخريدة في تفسير القصيدة العينة)،** وهي القصيدة التي نظمها عبد الباقي الموصلبي العمري في مدح أمير المؤمنين على أبي طالب كرم الله وجهه، وقد طبع في مصر.

(١) ينظر: الأعلام الزركلي ١٧٦/٧، معجم المطبوعات، مصدر سابق ٤/١.

(٢) ينظر: الألوسي مفسرا، محسن عبد الحميد، ص (٨٦ - ٨٩)

(٣) الألوسي مفسرا، ص (٨٩ - ٩٠)

(٤) أعلام العراق، ص ٣٥

(٥) ينظر: الألوسي مفسرا، ص (١٠٧ - ١٠٩)

* **القبض الوارد على روض مرثية مولانا خالد:** وهي قصيدة للسيد محمد الجواد السياد بوشي الشاعر البغدادي (ت ١٢٤٦هـ) في رثاء الشيخ خالد النقشبندي شيخ الألوسي، ومنهجه في الشرح: "يشرح البيت شرحاً أدبياً بلاغياً ويتوسع في تبيان معاني بعض الكلمات، وهو يهتم بالتصوف ومقامات الصوفية ومصطلحاتهم والدفاع عن رموزهم، ويهتم بعلم الكلام وعلوم الفلسفة والفلك" (١) وهي مطبوعة في القاهرة سنة ١٢٧٦هـ

* **الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب:** وهذه القصيدة للشاعر العراقي عبد الباقي العمري في مدح الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١هـ) وقد ظهر في هذا الشرح اهتمام الألوسي بشرح المفردات شرحاً لغوياً واسعاً والإعراب، واهتمامه بالنواحي البلاغية والمحسنات البديعية، ويدخل في أبحاث علمية أخرى مستفيضة، وأسلوب الكتاب علمي، ويسمح فيه أحياناً وتتجلى فيه قدرات الإمام الألوسي اللغوية (٢)، طبع بمطبعة الفلاح بمصر سنة ١٣١٣هـ

(ب) في البحث والمناظرة والأجوبة (٣):

* **الأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهوتية:** وقد أجاب في هذا الكتاب عن سؤال ورد من لاهور (في الهند) حول جماعة ظهوروا هناك يزعمون أنهم من أهل السنة ويسبون الصحابة الذين خاضوا لجة الفتنة مثل معاوية ومن وافقه، فحوله الوزير علي باشا إلى الألوسي، والكتاب كما أشار د. محسن عبد الحميد: في مقدمة وخاتمة وثلاثة فصول، وقد بدأ الكتاب بتعريف الصحابي وآراء العلماء فيه، وفي الفصل الأول بين عدالة الصحابة وذكر رأي الشيعة في الحكم على الصحابة بالردة وما إلى ذلك، وفي الفصل الثاني للحديث عن الفتنة وما يتعلق بذلك، والفصل الثالث بين حكم العلماء في سب الصحابة وشمهم ورد على الشيعة وفي الخاتمة ذكر مراتب الصحابة وأقوال العلماء في ذلك^(٤)، طبع في المطبعة الحميدية ببغداد سنة ١٣٠١هـ

(١) المرجع نفسه، ص (١٠٠-١٠٣)

(٢) ينظر: الألوسي مفسراً، ص (١٠٠-١٠٣)

(٣) الأعلام الزركلي، ١٧٦/٧، معجم المطبوعات ٤/١.

(٤) ينظر: الألوسي مفسراً، ١١٤-١١٧

* الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية. وهي أجوبة لأسئلة وردت إليه من الشيعة في إيران. يحتوي هذا المؤلف على ثلاثين مسألة مهمة في التفسير واللغة والعقائد والمنطق والكلام والهيئة وغير ذلك، وقد وردت هذه الأسئلة من إيران ولم يجب عليها أحد سواه، وقد طبع الكتاب سنة ١٣١٧ هـ.

* **سفرة الزاد لسفرة الجهاد:** وقد ألف هذا الكتاب أيام السلطان عبد المجيد خان، حيث

حشدت الدولة (المسكوفيه) الروسية قواتها للهجوم على الدولة العثمانية، فثار الحمية بين الناس فهبوا يلبون نداء السلطان للجهاد. تحدث فيها عن معنى الجهاد ومسائل مختلفة فيه، وحكمه أهو فرض كفاية أم فرض عين؟ والكتاب في مقدمة ومقصد و متممة، عرض في (المقصد) الكثير من الأحاديث الصحيحة في فضل الجهاد والرباط وفي (التممة) ذكر بعض السنن والأمور المتعلقة بالجهاد وذكر فوائد كثيرة في هذه المتممة (١)، والكتاب مطبوع ببغداد سنة ١٣٣٣ هـ

* **النفحات القدسية في الرد على الإمامية:** وقد وقف على هذا الكتاب أيضا د. محسن عبد الحميد وقال عنه: "هذا الكتاب رد على الشيعة في عقائدهم المخالفة لعقاد أهل السنة والجماعة" والظروف لم تسمح له بإكماله. والكتاب بابان: الأول فيه فصول: بحث في الفصل الأول قضية الإمامة، وفصلا آخر في إنكار عصمة الإمام، وفصلا آخر عن عدم الرجعة بعد الموت وفصلا حول قول الشيعة: (إنه لا يدخل الجنة إلا محبوبه ولا يدخل النار إلا مبغضوه) والباب الثاني: في رد مطاعن أهل الأهواء للصحابة الكرام خاصة التي وجهت للصدیق ولم يستمر بحد هذا في تنمية الكتاب" (٢).

* **شرح البرهان في إطاعة السلطان:** وأصل الكتاب ومتمنه (البرهان) من تأليف الشيخ عبد

الوهاب افندي ياسين جي زاده، وقد كلفه الوزير علي رضا باشا بشرحه "ويبدأ الألوسي فيه بمدائح طويلة في السلطان محمود الثاني على جميع المسلمين، ويسوق الأدلة الشرعية على ذلك ويحاجج الشيعة في مواضيع كثيرة كالإمامة وغيرها (٣)

(ج) في التراجم:

(١) ينظر: الألوسي مفسرا، ص (١١٧ - ١١٩)

(٢) ينظر المرجع نفسه: ص ١٢٢ - ١٢٥

(٣) ينظر المرجع نفسه: ص ١٠٩ - ١١٤

* شهى النعم في ترجمته شيخ الاسلام وولى النعم اعني عارف حكمت. (١).

(د) في الرحلات (٢):

* غرائب الاغتراب ونزهة الألباب: وهو جمع لما جاء في كتابيه (نشوة الشمول في السفر إلى اسلامبول) و (نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام) وهذه الكتب الثلاثة تمثل كتب (الرحلات) لهذا الإمام وتمتاز هذه الكتب بأنها كتب أدبية قصصية، تصف ما جرى معه في رحلاته المختلفة وهي كتب نفيسة، تصور جوانب متعددة في حياة المجتمع في ذلك العصر، وتعد وثائق تاريخية قيمة لتصوير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والجغرافية في تلك الأوقات، فهذه الكتب مفيدة جدا في أكثر من جانب.

لكن الكتاب الأول (الغرائب): احتوى على ترجمة ذاتية لحياة هذا الإمام ومصادره العلمية، مشايخه وأحداث حياته حتى الشهور الأخيرة قبل وفاته، فهو كتاب (تراجم) من ناحية ما وكتاب (تاريخ) و(جغرافيا) وأوضاع (سياسية) في تلك الفترات من حياته، والكتاب موسوعة علمية لا بأس بها، ففيه أجوبة مستفيضة على الأسئلة التي كان يسأل عنها في حله وترحاله، وهو كتاب أدبي مليء بالأشعار المنتقاة له ولغيره، وكتاب توثيقي يسجل إجازاته لعلماء في استنبول وعرض لبعض نصوصها، ويتحدث عن قضايا علمية مختلفة كالاستخارة وأحكامها وما يتعلق بها ويظهر من هذا الكتاب قدرات الإمام الألوسي الفائقة في الحوار والبحث والجدل، وفي تنوع الاطلاع ومصادر المعرفة، وهو من أجمل الكتب التي كتبها الإمام - رحمه الله -

أما الكتاب الثاني (نشوة الشمول) ، وقد طبع في مطبعة الولاية في بغداد سنة ١٢٦٨ هـ الموافق ١٨٧٤ م. وهو كتاب أدبي ممتع يتحدث فيه الألوسي عن رحلته إلى اسلامبول، وقد افتتحه تحت عنوان: (سافروا تغنموا)، قال فيه بعد البسملة والحمدلة: "وبعد فقد اسرى بي القضاء بعد فصلي من منصب الإفتاء من مدينة السلام إلى دار السلطنة العظمى، وعرج بي القدر اثر ما عرج علي الكدر من البلد

(١) هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي، وكالة المعارف الجلييلة استانبول، ١٩٥١ م (٢/ ٤١٩)

(٢) الأعلام الزركلي ١٧٦/٧ ، معجم المطبوعات ٣/١ .

الأقصى إلى عرش الخلافة الكبرى، فرأيت من الآيات ما تزهق روح المعاني دون تفسيره... وقد تحدث فيه عن جل ما جرى معه وقابله في سفره ولقاءاته مع العلماء، وختمه بتقديم وصية ونصائح لأبنائه في بغداد (١)

(هـ) في المقامات (٢):

- **إنباء الأبناء بأطيب الأنباء:** وهي وصية لأبنائه يدعوهم فيها للاشتغال بالفقه والحديث والتفسير وسار علوم الدين إلى آخر ذلك من الوصايا العلمية والأخلاقية (٣)
- **الأهوال من الأخوال:** يتحدث عن جانب من سيرته الذاتية خاصة المتعلقة بكيد حاسديه له وما وجدته منهم (٤)
- **قطف الزهر من روض الصبر:** تصور طرفاً من حياته العلمية، وبعض الحوادث التاريخية التي مرت عليه وما واجهه من ظروف وصعوبات (٥)
- **زجر المغرور عن رجز الغرور:** يحذر في هذه المقامة الناس من الدنيا وإثما غدارة وذكر بعض تجارب حياته معها (٦)

(و) مؤلفات أخرى ((٧):

وللإمام الألوسي مؤلفات أخرى منها حواش قيمة، ومختصرات نافعة ومؤلفات مطولة، لم يقف الباحث على تفاصيلها وأهمها:-

* دقائق التفسير.

* الفوائد السننية في علم أدب البحث. وهي حواش على أمير الحنفية.

(١) - المرجع نفسه، (٥٢ - ٥٤)

(٢) معجم المطبوعات ٤/١ وما بعدها، الأعلام الزركلي ١٧٦/٧.

(٣) - الألوسي مفسراً، ص ١٣٩

(٤) - المرجع نفسه، ص ١٣٩ - ١٤٠

(٥) - المرجع نفسه، ص (١٤٠)

(٦) - المرجع نفسه، ص ١٤٠ - ١٤١

(٧) معجم المطبوعات ٣/١ وما بعدها.

* حواش على أبي الفتح في الآداب.

* الشجرة الفاطمية.

وقد تكون هذه المؤلفات حواشي أو أجزاء، أو كتباً فقدت لم يقف عليها الباحث.

٦- وفاته:

رجع الإمام الألوسي من القسطنطينية في سنة (١٢٦٩هـ)، بعد أن ملأ الدنيا علماً والمدارس درساً، والمساجد وعظماً والمكتبات كتباً، وبعد أن أطبقت شهرته بلاد الدنيا، فصار مرجعاً في العلوم كلها.

مرض الألوسي بالحمى والتي عاودته بعد أن شفي منها، حتى تمكنت منه مرة أخرى، وأبليت جسده، فانتقلت روحه الطاهرة إلى بارئها في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة سنة سبعين ومئتين وألف (١٢٧٠هـ) بعد أن صلى الظهر إيماءً، وغسله طلابه، وشيعه أهل بغداد، ودفن في جنازة مهيبية لم تعرفها بغداد من قبل، وورى جثمانه الثرى في مقبرة الشيخ معروف الكرخي^(١). بالكرخ في بغداد، ولم يتجاوز عمره الخمسين إلا قليلاً، وقبره الآن مشهور يزار^(٢).

ثانياً- التعريف بتفسير روح المعاني:

والإمام الألوسي بعد أن ألف في جميع ضروب العلم، تاقته همته ودعته نيته للخوض في مجال التفسير فألف سفره المسمى (روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني) شارحاً لكتاب الله، مفسراً له.

وقد شرع فيه سنة (١٢٥٢هـ) وفرغ منه سنة (١٢٥٧هـ)، وقد كان رأى رؤيا قال: (أن الله أمرني بطي السموات والأرض، ورتق فتقها على الطول والعرض، فرأيت في ذلك وجعلت أفتش لها تأويلاً فرأيت في بعض الكتب أنها إشارة للتفسير)^(٣).

١- طباعته: طبع الكتاب عدة طبعات هي:

- طبعة دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان (١٤١٥هـ) - (١٩٩٤م) ضبط علي عبد الباري

(١) معروف الكرخي، أحد الأعلام الزهاد المتصوفة، ولد في كرخ بغداد وتوفي سنة ٢٠٠هـ، ينظر: الأعلام الزركلي ١٨٥/٨.

(٢) أعيان القرن الثالث عشر، ص: ٥١، معجم المطبوعات ٣/١.

(٣) روح المعاني ٥/١.

- عطية وهي في خمسة عشر مجلداً كل جزأين في مجلد. وهي الطبعة التي اعتمد عليها الباحث.
- طبعة الدار القومية العربية للطباعة - القاهرة (١٣٨٣هـ) - (١٩٦٤م) مع مقدمة ترجمة أريج الند والعود وهي ترجمة للمؤلف. الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر.
- طبعه الدار المنيرة - بيروت. لبنان لصاحبها محمد منير عبده أغا، بالتعاون مع مطبعة مصر شارع الكحكين رقم ١.
- طبعة المطبعة المنيرة الكبرى. بولاق المحمية سنة (١٣١هـ). وهي تسعة أجزاء.
- طبعة دار الفكر للطباعة والنشر (١٤٨هـ) - (١٩٨٧م).
- طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت. وهي ثلاثون جزءاً في خمسة عشر مجلداً،

٢- موارد الكتاب:

من يطالع كتاب روح المعاني، يجد أمامه بحراً زاخراً من العلوم وثقافة واسعة لدى الإمام الألوسي الذي تميز عن السابقين في تفسيره وسلك لنفسه منهجاً جديداً في التفسير، وبرع في علوم مختلفة وضعها في تفسيره وقد يسر له هذا تأخره الزمني، وسعة اطلاعه على أقوال من سبقوه، ومؤلفاته الكثيرة، حتى إنه ليذكر في بعض الموضوعات، والمسائل، ما يمكن جعله في رسالة صغيرة، فنجد اللغة والأدب والبلاغة والفصاحة، والعلوم الكونية كعلم الفلك وغيره، ونجد مع ذلك الحديث الصحيح، والإشارة إلى الضعيف، مع الأثر وقول الصحابي ورأى التابعي منسوب لصاحبه، وهذا ما لم يؤلف من قبل لتفرد بهذا النهج، والمتتبع لكتاب روح المعاني يجد أنه جمع عدداً من الموارد في كتابه أهمها:

(أ) القرآن الكريم:

استمد الألوسي تفسيره من القرآن الكريم، وذلك أن بعض آيات القرآن فيها إشارة لتفسير آيات أخرى ويتمثل مثلاً ذلك عند تفسير قوله تعالى: (تَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) ^(١). قال: والمروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن هذه الكلمات. هو قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ^(٢).

(١) سورة البقرة الآية: ٣٧.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٢٣.

ومثله عند تفسيره لقوله تعالى: { إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَجْبَيْنَا مِنْهُمْ } استثناء منقطع أي ولكن قليلاً منهم أجبيناهم لكونهم كانوا ينهاون و { مِنْ } الأولى بيانية لا تبعيضية لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم بدليل قوله سبحانه: { أَجْبَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا } [الأعراف: ١٦٥]^(١)

(ب) الحديث الشريف:

أهم مورد لكتاب الألوسي هو الحديث الشريف، وروايات الصحابة والتابعين فيذكر الآية ويشير إلى الحديث الذي شرحها أو قول النبي صلى الله عليه وسلم فيها. ويعزو الحديث بذكر الكتاب الذي ورد فيه الحديث من البخاري أو مسلم، أو كتب السنة الأخرى، وذلك كثير في تفسيره^(٢).

مثال لذلك: عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٣)

يقول الألوسي: "هم أهل الكتاب أنزل عليهم الكتاب فحكموا بغير الحق وحرفوا الكلام عن مواضعه وفرحوا بذلك وأحبوا أن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا من الصلاة والصيام ، وفي رواية البخاري وغيره عنه «أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سأهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سأهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سأهم عنه»"^(٤)

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾^(٥)

يقول الألوسي: "وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من شهر رمضان»."^(٦)

وروايات الإمام الألوسي عن كتب الحديث في تفسيره كثيرة مثل صحيح البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة، وغيرها من كتب السنة.

^(١) روح المعاني (٦/ ٣٥٤).

^(٢) منهج الشيخ لألوسي في تفسيره، عبدالله جنيد، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية غزة، ٢٠١١م ص ٣٩

^(٣) آل عمران: ١٨٨.

^(٤) روح المعاني (٢/ ٣٦١)

^(٥) القدر: ١.

^(٦) روح المعاني (١٥/ ٤١٣)

(ج) أقوال الصحابة والتابعين:

يظهر اهتمام الألوسي بأقوال الصحابة، فيروي التفسير منسوباً للصحابي فيقول: قال: ابن عباس أو ابن مسعود أو غيرهما، وأقوال التابعين مثل عكرمة ومجاهد وغيرهم. وأمثلة لذلك: في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّوتٌ لَّا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِينَ وَإِنَّهُمْ إِلَّا بَيِّنُونَ ﴾^(١)

والمروي عن ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهم أن - الأمايني - هنا - الأكاذيب - أي إلا أكاذيب أخذوها تقليداً من شياطينهم المخرفين^(٢)

في قوله تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾^(٣)

وروى ابن جرير عن ابن جريح أن رفع الصوت بالدعاء من الاعتداء المشار إليه بقوله سبحانه : إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن زيد بن أسلم^(٤).

(د) اللغة وأدبها:

وقد جمع الألوسي كل الفنون في كتابه، ولكن ظهور اهتمامه باللغة وعلوم العربية واضح، فنجده يذكر رأي النحوي وعالم البلاغة والبيان ويشير إلى المصدر والمرجع من كتب التراث^(٥).

ومثال ذلك: في معنى (قد) في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَعَلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ﴾^(٦) ، وكلمة قد للتكثير وهو - كما قال الحلبي رادا به اعتراض أبي حيان - راجع إلى متعلقات العلم لا العلم نفسه إذ صفة القديم لا تقبل الزيادة والتكثير وإلا لزم حدوثها المستلزم لحدوث من قامت به سبحانه وتعال ، وقال السفاسي : قد تصح الكثرة باعتبار المعلومات وما في حيز العلم هنا كثير بناء على أن الفعل المذكور دال على الاستمرار التجديدي، وأنشدوا على إفادتها ذلك بقول الهذلي :

(١) البقرة: ٧٨.

(٢) روح المعاني (١/ ٣٠٢)

(٣) الأعراف: ٥٥.

(٤) روح المعاني. الألوسي (٤/ ٣٧٩)

(٥) ينظر: منهج الشيخ الألوسي في تفسيره، عبدالله جنيد، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية غزة، ٢٠١١م، ص ٣٩.

(٦) الأنعام: ٣٣.

قد أترك القرن مُصْفَرًا أنامله

كأن أثوابه مُجَّتْ بِفِرْصَادٍ^١

وادعى أبو حيان أن إفادتها للتكثير قول غير مشهور للنحاة وإن قال به بعضهم. وكلام سيوييه حيث قال : وتكون قد بمنزلة ربما ليس نصا في ذلك وما استشهدوا به على دعواهم إنما فهم التكثير فيه من سياق الكلام ومنه البيت فإن التكثير إنما فهم فيه لأن الفخر إنما يحصل بكثرة وقوع المفتخر به. وذكر بعض المحققين أن الحق ما قاله ابن مالك ..^(٢).

كما كانت المعاجم له مصدرا في تقصي معني المفردات، وخاصة معجم العين لابن فارس ومفردات غريب القرآن للأصفهاني، والصحاح للجوهري، وتهذيب اللغة للأزهري ومن الأمثلة على ذلك: عند تفسيره لكلمة (القهر) في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرَ ﴾^(٣)

قال: "حمل القهر على الغلبة والتذليل معابان يراد التسلط بما يؤدي أو باستعمال المشترك في معنييه على القول بجوازه وفي مفردات الراغب القهر الغلبة والتذليل معا ويستعمل في كل واحد منهما... وفي تهذيب الأزهري الكهر القهر والكهر عبوس الوجه والكهر الشتم"^(٤).

- وعند تفسيره لكلمة العشيرة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(٥)

قال: "والعشيرة على ما قال الجوهري : رهط الرجل الأدنون. وقال الراغب هم أهل الرجل الذين يتكثر بهم أي يصيرون له بمنزلة العدد الكامل وهو العشرة."^(٦)

وعلى هذا يمكن القول: إن الجانب اللغوي في تفسيره كان بارزا لدرجة تجعله ملائما للتناول درسا وبحثا، فالقدرات الذاتية والحس اللغوي والأدبي لهذا المفسر جعلت من تفسيره مصدرا غنيا لكل باحث مهما كان اتجاهه.

(هـ) كتب التراث الإسلامي :

جمع الألوسي تفسيره من كتب التراث كافة، فنجد أقوال الصحابة و التابعين، وآراء أئمة المذاهب

^١ البيت لعبيدة بن الأبرص، ينظر: المعجم المفصل في شواهد العربية، إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

^(٢) روح المعاني (٤/ ١٢٧)

^(٣) الضحى: ٩.

^(٤) روح المعاني (١٥/ ٣٨٣)

^(٥) الشعراء: ٢١٤.

^(٦) روح المعاني (١٠/ ١٣١)

الفقهية مع مناقشات علماء الكلام والتفسير بالرأي، مع الإشارة لكتب المفسرين التي نهل منها أو أشار إليها، أو ناقش رأياً فيها. وآراء أهل العقيدة والتصوف، وكتب اللغة، والشعر والتاريخ والسير.

وأمثلة لذلك:

— يقول الألوسي: ذهب إلى أن أسماء الله تعالى توقيفية يراعى فيها الكتاب والسنة والإجماع فكل اسم ورد في هذه الأصول جاز إطلاقه عليه جل شأنه وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه وإن صح معناه، وبهذا صرح أبو القاسم القشيري في مفاتيح الحجاج ومصايح النهج، وفي أبكار الأفكار للآمدي ليس مأخذ جواز تسميات الأسماء الحسنى دليلاً عقلياً ولا قياساً لفظياً^(١)

— أما كتب التفسير فقد كان أكثرها في نقله عنهم، فهو جامع لخلاصة كل ما سبقه من التفاسير، فتراه ينقل لك عن تفسير ابن عطية، وتفسير أبي حيان، وتفسير الكشاف، وتفسير أبي السعود، وتفسير البيضاوي، وتفسير الفخر الرازي، وغيرها من كتب التفسير المعتمدة، وهو إذا نقل عن تفسير أبي السعود يقول - غالباً - : قال شيخ الإسلام. وإذا نقل عن تفسير البيضاوي يقول - غالباً - : قال القاضي، وإذا نقل عن تفسير الفخر الرازي يقول - غالباً - : قال الإمام. وهو إذ ينقل عن هذه التفاسير ينصب نفسه حكماً عدلاً بينها، ويجعل من نفسه نقاداً مُدققاً، ثم يبدى رأيه حراً فيما ينقل^(٢) مثال ذلك: وفي الكشاف محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه^(٣)، وفي إرشاد العقل السليم، وهذه الهداية عين الهداية إلى سبل السلام^(٤)، وقال الخفاجي في وصف الريح بالرمي بالحصباء: إنه عبارة عن شدتها^(٥)

٣- منهج المؤلف في تصنيف الكتاب:

للألوسي منهج خاص اتبعه عند كتابة تفسيره، تجاوز فيه ما كان معروفاً عند علماء التفسير السابقين، ويتوافق مع العصر الذي هو فيه، مع إيراد الشواهد الشعرية، والأحاديث النبوية، واختلاف المفسرين وترجيح ما يراه دون تعصب أو ميل عقيدي أو مذهبي.

(١) روح المعاني. (٥/ ١١٣)

(٢) ينظر: التفسير والمفسرون (١/ ٢٥٣)

(٣) روح المعاني. الألوسي (٣/ ٣٢٩)

(٤) روح المعاني. الألوسي (٣/ ٢٧٠)

(٥) روح المعاني. الألوسي (٨/ ١١١)

ومن خلال الاستقراء والتتبع نجد أن منهجه اشتمل على:

(أ) تناول أحكام القرآن والقراءات:

يتناول الألوسي هذه الأحكام عند تفسير آية من الآيات، فنجده يوفيها حقها من جميع النواحي فيذكر أوجه القراءات والاختلاف فيها فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١)

قال: وقرأ عمرو بن فائدة عن أبي إياك بكسر الهمزة وتخفيف الياء وعلي وأبو الفضل الرقاشي إياك بفتح الهمزة والتشديد وأبو السوار الغنوي هياك بابدال الهمزة مكسورة ومفتوحة هاء والجمهور إياك بالكسر والتشديد (٢)

ويتناول أسباب النزول والاختلاف فيها، ومكان نزول السورة وهل هي من المدني أو المكي، فمثلاً عند تفسيره لسورة الليل قال: "لا خلاف في أنها إحدى وعشرون آية، واختلف في مكيتها ومدنيتها فالجمهور على أنها مكية، وقال علي ابن أبي طلحة مدنية، وقيل بعضها مكى وبعضها مدني. وكذا اختلف في سبب نزولها فالجمهور على أنها نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وروي ذلك بأسانيد صحيحة عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما وقال السدي إنها نزلت في أبي الدرداء الأنصاري". (٣)

(ب) إيراد الأحاديث الصحيحة:

المتتبع لمنهج الإمام في تفسيره، يجد التزام الإمام بالأحاديث الصحيحة والحسنة، وتوجد عنده أحاديث ضعيفة، فهو يروي الحديث مع الإشارة إلى راوي الحديث الأعلى ويبين إذا كان مرفوعاً أو موقوفاً، ويعزو الحديث إلى مصدره إذا كان من كتب السنة الأصول، أو الأجزاء الحديثية أو كتب التفسير.

ومثال ذلك: عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَآءِ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوَرُّوْا وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُوْرٌ حَلِيْمٌ﴾ (٤)

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) روح المعاني. الألوسي (١/ ٨٩)

(٣) روح المعاني. الألوسي (١٥/ ٣٦٥)

(٤) المائة: ١٠١.

يقول: " ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : «خطبنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم فقال أيها الناس قد فرض الله تعالى عليكم الحج فحجوا»

فقال رجل - وهو كما قال ابن الهمام الأقرع بن حابس ، وصرح به أحمد والدارقطني والحاكم في حديث صحيح رواه علي شرط الشيخين «أكل عام يا رسول الله فسكت عليه الصلاة والسلام حتى قالها ثلاثا فقال صَلَّى الله عليه وسلّم : لو قلت : نعم لو جبت ولما استطعتم ثم قال صَلَّى الله عليه وسلّم : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» (١)

وفي تفسير لقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٢)

يقول: " وفي حديث ضعيف عن أبي أمامة يرفعه ، « وفيّ بأربع ركعات كان يصلين في كل يوم » وفي رواية « يصلين أول النهار » وأخرج أحمد من حديث معاذ بن أنس مرفوعا أيضا «ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفي لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الآية» (٣)

(ج) خلوه من الإسرائيليات:

خلا تفسير الألوسي غالباً من الإسرائيليات، والقصاص المطولة التي توجد في تفسير من سبقه، وهذه ميزة توارثتها العديد من كتب التفسير، ونحن لاندعى عدم وجودها فيه أصلاً، ولكن من خلال التتبع والتقصي لا توجد إلا قليلاً. ولهذا يقر أحد الباحثين المحدثين أنه لم يجد أحداً من المفسرين، بعد العلامة الحافظ ابن كثير في تفسيره، حارب الإسرائيليات، والموضوعات، مثل ما فعل الإمام الألوسي في تفسيره^٤، فقد أفاض في رد هذه الإسرائيليات والمختلفات

و خير مثال على ذلك: عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَرَفَقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ (٥)

(١) روح المعاني. (٤ / ٣٩)

(٢) النجم: ٣٧.

(٣) روح المعاني. (١٤ / ٦٥)

^٤ ينظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط٤. (د.ت). ص ١٤٦

(٥) ص: ٣٣.

قال الألوسي " فقليل ضمير { رُدُّوْهَا } للشمس والخطاب للملائكة عليهم السلام الموكلين بها ، قالوا : طلب ردها لما فاتته صلاة العصر لشغله بالخيل فردت له حتى صلى العصر..... وبالجمللة القول برد الشمس لسليمان عليه السلام غير مسلم ، وعدم قولي بذلك ليس لامتناع الرد في نفسه كما يزعمه الفلاسفة بل لعدم ثبوته عندي ، والذوق السليم يأبى حمل الآية على ذلك" ^(١)

وهكذا هي طريقة المفسر في أغلب تفسيره عند ذكره للإسرائيليات والموضوعات وهو يذكرها لينبه إلى اختلافها، وبطلانها وتحذير المسلمين ولا سيما طلبة العلم وأهله من التصديق بها أو أن لها أصلا في الإسلام.

^(١) روح المعاني (١٢ / ١٨٦)

الفصل الأول

علم المعاني بين النظم والعدول

✓ علم المعاني المفهوم والنشأة

✓ النظم والإعجاز القرآني

✓ العدول بين البلاغة والأسلوبية

✓ صور العدول عند الألووسي

أولاً - علم المعاني مفهومه ونشأته:

١ . مفهومه:

جاء في لسان العرب: "روى الأزهري عن أحمد بن يحيى قال المعنى والتفسير والتأويل واحد وعنيت بالقول كذا أردت ومعنى كل كلام ومعناته ومعنيته مقصده"^(١)

وجاء في معجم مقاييس اللغة " المعنى هو القصد الذي يبرز ويظهر في الشيء إذا بحث عنه يقال هذا معنى الكلام ومعنى الشعر أي الذي يبرز من مكنون ما تضمنه اللفظ"^(٢)

أطلق مصطلح (المعاني) على الكتب التي تبحث عن معاني ما يشكل من القرآن، وهي كثيرة من بينها: (معاني القرآن) للفراء (٢٠٧هـ)، (معاني القرآن) للنحاس (٣٣٨هـ)، و (معاني القرآن) للأخفش (٢١٥هـ)، كما نجد هذا المصطلح في الكتب التي حاولت جمع الآيات الشعرية التي يشوبها نوع من الغموض والإبهام، كما فعل ابن قتيبة (٢٧٦هـ) في كتابه (المعاني الكبير في أبيات المعاني)، وأبي الهلال العسكري (٣٩٥هـ) في (ديوان المعاني).

أما اصطلاحاً:

عرفه السكاكي بقوله: "هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"^(٣).

وهذا التعريف وحده نموذج لتأليف السكاكي الذي أفرغه في أسلوب علمي منطقي بعيد كل البعد عن جلاء العبارة ووضوح التأليف عند من تقدموه من البلاغيين.

فهو مثلاً في هذا التعريف لا يقصد «بتراكيب الكلام» مطلق تراكيب، وإنما يقصد تراكيب

(١) لسان العرب لابن منظور، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت (٤ / ٣١٤٧)

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، الناشر دار الجليل، بيروت - لبنان ١٩٩٩م (٤ / ١٤٨)

(٣) مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: الثانية، ١٤٠٧ هـ (ص: ١٦١)

البلغاء لا التراكيب الصادرة عمن لا حظ لهم من البلاغة. وهو كذلك يقصد «بخواص التراكيب» ما يسبق إلى الفهم منها عند سماعها لكونها صادرة عن البليغ، كما يقصد أيضا «بالإفادة» «الفهم» من قبل ذي الفطرة السليمة.^(١)

ونقد القزويني التعريف السابق لعلم المعاني "إذا التبع ليس بعلم ولا صادق عليه، فلا يصح تعريف شيء من العلوم به. ثم قال: وأعني بالتراكيب تراكيب البلغاء، ولا شك أن معرفة البليغ من حيث هو بليغ متوقفه على معرفة البلاغة"^(٢) وصاغ تعريفا جديدا إذ يقول: هو علم يعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال"^(٣).

وقد انتصر لهذا التعريف سعد الدين التفتازاني، مؤيدا ذلك بالشرح والتعليل، فقال: " هو علم يستنبط إدراكات جزئية وهي معرفة كل فرد من جزئيات الأحوال المذكورة، بمعنى أن أي فرد يوجد منها امكنا أن نعرفه بذلك العلم. وقوله (التي بها يطابق) اللفظ (مقتضى الحال) احترازا عن الأحوال التي ليست بهذه الصفة، مثل الإعلال والإدغام والرفع والنصب وما أشبه ذلك مما لا بد منه في تأدية أصل المعنى، وكذا المحسنات البديعية.... والمراد أنه علم يعرف به هذه الأحوال من حيث أنها يطابق بها اللفظ مقتضى الحال، لظهور أن ليس علم المعاني عبارة عن تصور معاني التعريف والتكبير والتقديم والتأخير والإثبات والحذف وغير ذلك"^(٤).

ولم يختلف تعريف السكاكي لعلم المعاني كثيرا عن تعريف المحدثين، فعرفه المراغي (١٣٧١هـ): " هو قواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام مقتضى الحال حتى يكون وفق الغرض الذي سيق له، فبه نختز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، فنعرف السبب الذي يدعو إلى التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والإيجاز حيناً والإطناب آخر، والفصل والوصل، إلى غير ذلك"^(٥)

(١) ينظر: علم المعاني، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت. لبنان، ١٩٧٠ ص ٢٨

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، الإمام الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩٨ (١/ ٥٤)

(٣) نفسه (١/ ٥٢)

(٤) مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، دار الفكر، ط ١، ١٤١١هـ، (ص: ٢٧)

(٥) علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٩٩٣ م (ص: ٤١)

وعرفه آخر "هو علم يعرف به أحوال الكلام العربي التي تهدي العالم بها إلى اختيار ما يطابق منها مقتضى أحوال المخاطبين، رجاء أن يكون ما ينشئ من كلام أدبي بليغاً"^(١).

من خلال التعريفات السابقة يمكن القول أن هذا العلم يدور حول طريقة التركيب والنظر فيه من جهة أسلوب وصفه وطرق التعبير به، وما فيه من إيجاز وإطناب ومساواة، وما فيه من فصل ووصل وقصر وتقديم وتأخير... الخ وتحليل عناصر الجملة، والبحث في أحوال كل عنصر منها في اللسان العربي، وكان الدافع لنشأة هذا العلم هو الكشف عن أسرار الجمال في القرآن الكريم ومعرفة إعجازه، وما خصّه الله به من جودة السبك، وحسن الوصف وبراعة التركيب ولطف الإيجاز، وما اشتمل عليه من سهولة التركيب، وجزالة كلماته، وعدوبة ألفاظه وسلامتها، ومن خلال ما سبق يمكن تلخيص فائدة هذا العلم في أمرين:

— إدراك إعجاز القرآن الكريم البياني واللغوي، وما اشتمل عليه من جودة السبك، وحُسن الوصف والإيجاز، ودلالة ألفاظه ودقتها، إلى غير ذلك من محاسنه التي اقعدت العرب عن مناهضته، وحاترت عقولهم أمام فصاحته وبلاغته.

— الوقوف على أسرار البلاغة والفصاحة في مَثور كلام العرب ومنظومه كي تحتدئ حذوه، وتَسُج على منواله، وتَفَرِّق بين جيّد الكلام وردية.

وإذا تأملنا في تعريف علم المعاني السابق، فإننا نلاحظ الشبه القوي بينه وبين تعريف البلاغة التي تعرف بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، ومع ذلك انفرد علم واحد من علومها، وهو المعاني بالبحث في هذه المطابقة، والأرجح في ذلك أن علوم البلاغة الثلاثة تقوم بصفة أساسية على تحقيق مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وليس علم المعاني وحده، فالمطابقة مطلوبة في كل قسم من أقسام البلاغة بين اللفظ والمعنى، والتركيب والغرض الذي يصاغ له، ومطابقة ذلك كله لعقول السامعين ونفسياتهم، وبدون هذه المطابقة يفقد الكلام بلاغته وتأثيره في نفوس السامعين.

ومثل هذه التراكيب ذات الخصائص المستحسنة لا تصدر إلا عن متكلم بليغ يخاطب إنساناً ذا فهم سليم وذوق رفيع؛ فلا يكفي أن يكون المتكلم بليغاً متكلماً بأساليب الكلام العربي ووجوه

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حبنكة، دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ (ص: ١٠٧)

اعتباراته، بل يجب كذلك أن يكون المخاطب بهذا الكلام البليغ عارفاً بجهات الحسن وأسرار الجمال في التعبير، وإلا فلا معنى لاستحسانه، ولا عبرة بشأنه؛ لأنه ليس من أهل الذوق والمعرفة بخصائص التراكيب.

٢. نشأته:

وما يخص فنون ومصطلحات علم المعاني فقد كانت متناثرة في المؤلفات النحوية والنقدية من القرن الثاني الهجري، فنجدها عند:

سيبويه (١٨٠) الذي تحدث عن التقديم والتأخير في مواضع مختلفة من كتابه منها ما جاء في باب (أم إذا كان الكلام بما بمنزلة أيهما وأيهم) جاء فيه: " وإنما كان تقديم الاسم ههنا أحسن ولم يجز للآخر إلا أن يكون مؤخرًا، لأنه قصد قصد أحد الاسمين، فبدأ بأحدهما، لأن حاجته أحدهما، فبدأ به مع القصة التي لا يسأل عنها، لأنه إنما يسأل عن أحدهما من أجلها، وإنما يفرغ مما يقصد قصده بقصته ثم يعدله بالثاني"^١.

فسيبويه من خلال كلامه هنا لا يهتم بمسألة التقديم والتأخير نحويًا فقط، بل يعللها بلاغيا عند إشارته إلى القصد أو الاهتمام في الكلام، وهو أحد أهم أغراض التقديم كما بينه البلاغيون من بعده. ونجد أيضا مباحث الخبر والانشاء منتشرة في الكتاب، مثل الاستفهام والطلب والنداء والتمني والأمر والنهي.

ونظرا لكثرة المباحث في كتاب سيبويه، ذهب عبد القادر حسين إلى القول بأن سيبويه أحد العلماء الذين مهدوا الطريق لعبد القاهر الجرجاني في وضع نظرية النظم، " فإذا كان عبد القاهر هو الذي ينسب إليه ابتكار نظرية النظم، لأنه بسطها وفصلها وطبقها على أبواب جملة من البلاغة. فإن سيبويه هو الذي أمسك المصباح بكلتا يديه وأنار الطريق أمام عبد القاهر، وهداه إلى الغاية المنشودة أو بعبارة أخرى إذا كان النظم قد أصبح على يد عبد القاهر بمثابة شجرة عظيمة شاهقة، متعددة الأغصان، مثقلة بالثمار، فإن سيبويه هو الذي ألقى البذرة قبل أن تبرز الشجرة أمام العيون

(^١) الكتاب، سيبويه، عثمان أبو بشر، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١ (٣/ ١٧٠)

بمئات السنين"^١

وهذا لا يعني أن سيويوه كان معنيا بالدراسات البلاغية بل كان يرصد المباحث النحوية والخصائص اللغوية، وهذا دليل على وجهة النظر القائلة بأن مباحث علم المعاني ذات أصل نحوي.

ونجد مباحث علم المعاني مطروحة عند ابن قتيبة (٢٧٦هـ) في كتابه (تأويل مشكل القرآن) بأسمائها الاصطلاحية الدقيقة التي تعارف عليها المتأخرون من عصره، واطلاقهم لمصطلح المجاز بمفهومه العام للدلالة على علمي المعاني والبيان بصورة عامة يقول ابن قتيبة: " وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها: طرق القول وماآخذه. ففيها الاستعارة: والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، ولفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة"^٢

وفي القرن الرابع الهجري كانت مباحث علم المعاني ومصطلحاته أكثر تحديدا واتساعا، وهذا ما نجده عند أبي الهلال العسكري (٣٩٥هـ) في الصناعتين، أين وضع بابا ذكر فيه الإيجاز والاطناب والمساواة، وتحدث عن أفضلية الإيجاز فقال: "وفي تفضيل الإيجاز يقول جعفر بن يحيى لكتّابه: إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا.

وقال بعضهم: الزيادة في الحدّ نقصان. وقال محمد الأمين: عليكم بالإيجاز فإنّ له إفهاما، وللإطالة استبهاما. وقال شبيب بن شبة: القليل الكافي خير من كثير غير شاف"^٣. وقسم الإيجاز إلى نوعين: إيجاز قصر وإيجاز حذف، وعرفهما وأعطى شواهد مختلفة لهما.^٤ ونجد له كلاما عن أثر وأهمية معرفة مواضع التقديم والتأخير في الشعر وحسن الرصف، والمتصفح لكتابه يجد أمورا أخرى حول علم المعاني.

(١) أثر النحاة في الدرس البلاغي، عبد القادر حسين

(٢) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان (ص: ٢٢)

(٣) الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية -

بيروت ١٤١٩ هـ (ص: ١٧٣)

(٤) نفسه: ص ١٧٥

ولابن فارس (٣٩٥هـ) في كتابه الصحاحي باب سماه (معاني الكلام) "وهي عند بعض أهل العلم عشرة: خبرٌ. واستخبار. وأمر. ونهي. ودُعاء. وطَلَب. وعَرَض. وتَحْضِيض. وتَمَنّ وتَعَجَّب".^(١) والملاحظ أن جميع هذه المباحث تدور حول الإنشاء والخبر اللذين سيكونان من أهم مباحث علم المعاني فيما بعد، فساهم بذلك ابن فارس كغيره من البلاغيين واللغويين وحتى النحويين في استلهاهم وجمع فنون البلاغة وعلم المعاني .

وإذا وقفنا عند عبد القاهر الجرجاني وجدناه بحق مؤسس هذا العلم، ومشيد أركانه فنجده أكثر تدقيقاً في مباحثه وتجديداً لمعالمه، وهذا ما تجلّى بدقّة في كتابه دلائل الإعجاز فحل فصوله وصفحاته تدور حول علم المعاني بأسلوب أدبي وجمالي تميز به عن غيره.

فقد سبر عبد القاهر أغوار الفنون البلاغية شرحاً وإيضاحاً وتطبيقاً، واعتنى في دلائل الإعجاز بالجوهر الذي يخص علم المعاني، وأخرج الجانب الحي النابض لها، ولم يعتن بالحدود والرسوم والتعريفات كما كان شأن من جاء من بعده من البلاغيين، فكان النحو وعلم المعاني أهم أركان بناء نظرية النظم التي ترتبط بالمسند والمسند إليه وقضايهاهما، وتستوعب مبحث الفصل والوصل وما يفيد المعنى من كل حرف من حروف العطف، وتشتمل على الحذف والذكر وترصد الاضمار والاظهار وبطرق التعريف المختلفة والتنكير وما يخص أغراض التوكيد والتكرار، وهذه أهم مباحث علم المعاني.

ولكن هذا المصطلح لم تتحدد معالمه عند عبد القاهر، إذ كان يسمي مباحثه في المعاني باسم علم البيان تارة وعلم الفصاحة تارة ثانية. ولا نكاد نتقدم في هذا الكتاب حتى نجد يشير إلى أن الاستعارة من البديع، وكأنه كان يحس أن كل ما سمي بعده باسم البديع والمعاني والبيان إنما كان يعرض لعلم واحد هو علم البلاغة وخصائص التعبير الجمالية^(٢).

وأهم ما ميز مرحلة ما بعد الجرجاني أن أغلب البلاغيين قد فتنوا بعمله، فراحوا يرددون كلامه ويقفون عنده لا يتجاوزونه إلى عمق أو ابتكار، كأنما البحث في البلاغة قد انتهى بعبد القاهر

(١) الصحاحي في فقه اللغة، أحمد ابن فارس، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٧م، ص ١٣٣.

(٢) ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ص ١٩٠.

الجرجاني .

لأن جهود البلاغيين من بعده انحصرت في جمع قواعد علوم البلاغة التي وضعها، وفي ترتيب أبوابها، واختصارها. وكان هذا الاختصار يصل أحيانا من الغموض والصعوبة إلى حيث يحتاج إلى شرح يوضح غامضه، ويدلل صعابه، فيقبل عليه الشراح، ومنهم من يتوسع في الشرح إلى الحد الذي يجعل الإمام بحقائق العلم أمرا عسيرا. وهكذا وصلت البلاغة نتيجة لذلك إلى أقصى ما يمكن من اختصارات وأقصى ما يمكن من شروح.

ثم يأتي الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في تفسيره، فيذكر (علم المعاني) مع (علم البيان) مقترنين مع بعضهما البعض، وأكد على دورهما في التدبر وتبين إعجاز القرآن، ورد في كشافه: "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقيح عنها أزمنة وبعثته على تتبع مظاهرها همة في معرفة لطائف حجة الله" (١)

ويعد تفسير الكشاف للزمخشري من أوضح الأمثلة على شدة التلاحم بين الدراسات البلاغية والدراسات القرآنية؛ فقد عمد الزمخشري في تفسيره إلى نظرية النظم التي وضعها من قبله عبد القاهر الجرجاني، وفسر على أساسها الإعجاز القرآني، وعمد الزمخشري إلى هذه النظرية وحاول أن يطبقها على النصوص القرآنية أثناء تفسيره لها، ولقد أسهم بذلك في تعميق كثير من المسائل البلاغية، بل إنه أسهم إسهامًا مباشرًا في تبويب هذه المسائل على النحو الذي نعرفه اليوم.

ومن أبرز العلماء الذين بحثوا في علم المعاني وطبقوا نظرية النظم في مؤلفاتهم نجد فخر الدين الرازي (ت ٦٠٤هـ) الذي لخص مباحث عبد القاهر الجرجاني، وذكر علم المعاني وعلم البيان وقارنا بينهما دون تفریق، في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)، وقسم كتابه إلى مقدمة تحدث فيها عن إعجاز القرآن والفصاحة وجملتين، الجملة الأولى خاصة بالمفردات وأكثر ما فيها يتعلق بعلم البيان وشيء من علم البديع، والجملة الثانية خاصة بالجملة، تحدث في عن النظم، وذكر أبوابا من علم المعاني ومن بينها: التقديم والتأخير وأغراضه، والفصل والوصل، الحذف، الإيجاز...

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت ط ٢٠٠١ م (١/ ٤٣)

وبعده جاء السكاكي (٦٢٦هـ) ولم يكن حديثه في هذه المباحث كحديث عبد القاهر، فقد وضع حدودا استطاع بها أن يفصل بين هذه الأبحاث ، وخص ما يتعلق بإيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة باسم "البيان"، وخص ما يتعلق بتحسين الكلام وتزيينه بعد رعاية المطابقة، ووضح الدلالة باسم "البديع" وأطلق (علم المعاني) على الموضوعات التي سماها عبد القاهر نظاما.

وبعد السكاكي ألفت كتب عديدة حول كتابه أشهرها كتاب الخطيب القزويني (الايضاح) و (التلخيص) وضح فيهما ما غمض من كلام السكاكي، وناقشه في كثير من المسائل، ووضع بعض التعريفات أكثر دقة مستنيرا في ذلك بكتب من سبقه مثل: الزمخشري، و عبد القاهر الجرجاني،

٣. أقسام علم المعاني:

تقاربت وجهة نظر البلاغيين في تقسيمهم لمباحث علم المعاني وفقا لما أبداه كل من السكاكي ومن بعده القزويني، وكان مثل هذا التقسيم سمة بارزة في مؤلفاتهم في عصرهم الذي اختلط بمتاهات علم الكلام، وتقسيمات المنطق والفلسفة التي كانت رائجة في عصرهم، واقتفى أثرهما بهاء الدين السبكي وسعد الدين التفتازاني ومن اتبعهما من الشارحين الذين سلكوا بالبيان مسلك العلوم النظرية وابتعدوا عن الذوق الفني والتحليل الأدبي.

ويأتي السكاكي في طليعة هؤلاء المصنفين على طريقته الخاصة في التقسيم والتفصيل فيضع مباحث علم المعاني في قوالب جامدة تنتهي به الى قوانين، والقوانين الى فنون، والفنون الى مباحث على الشكل التالي:

القانون الأول: ويتعلق بالخبر، والقانون الثاني يتعلق بالطلب.

وقسم القانون الأول إلى أربعة فنون:

الأول: في الاسناد الخبري، وتفصيل اعتباراته وتبيين أنواعه، وعرض أغراضه، واستخراج مؤكداته، وخروجه عن مقتضى الظاهر.

الثاني: في تفصيل اعتبارات المسند إليه، وبيان وجوه حذفه وذكره، ومباحث تعريفه وتنكيره، واضماره، ووجوه تعريفه بالموصولية والإشارة والإضافة....

الثالث: في تفصيل اعتبارات المسند، وتناول فيه متعلقات الاسم والفعل، وبحث الاسم في حذفه وذكره، وإفراده، وتقييده، وتنكيره، وتخصيصه، وتقديمه وتأخيرته، وفيما يتعلق بالفعل من حيث ذكره وحذفه، واضمار فاعله وإظهاره، وترك مفعوله واثباته، وتقييده بالشرط.

الرابع: في تفصيل اعتبارات الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة، والقصر.

وقسم القانون الثاني الى خمسة فنون هي:

التمني، الاستفهام، الأمر، النهي، النداء. واستعمال الخبر موضع الطلب، والطلب موضع الخبر، وختم هذه المباحث بأسلوب الحكيم.

أما القزويني فقد حصر مباحث علم المعاني في ثمانية أبواب هي^(١):

١ - أحوال الإسناد الخبري.

٢ - أحوال المسند إليه.

٣ - أحوال المسند.

٤ - أحوال متعلقات الفعل.

٥ - القصر.

٦ - الإنشاء.

٧ - الفصل والوصل.

٨ - الإيجاز والإطناب والمساواة.

ووجه انحصار علم المعاني في هذه المباحث الثمانية أن الكلام قسمان: خبر وإنشاء، ذلك أن الكلام إما أن يكون له واقع خارجي تطابقه أو لا تطابقه، أو لا، فالخبر هو ما يحتمل الصدق

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الامام الخطيب القزويني، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩٨. ص ١٦ وما بعدها

والكذب لذاته؛ لأن له نسبة خارجية في الواقع إن طابقت كلام المتكلم كان الخبر صادقاً، وإن لم تطابقه كان الخبر كاذباً مثل قولك مثلاً: سافر محمد. والأرض تدور حول الشمس أما الإنشاء فهو ما لا يحتمل الصدق والكذب لذاته؛ إذ ليست له نسبة خارجية تطابقه أو لا تطابقه، كالأمر في قولك مثلاً: اكتب الدرس. فالأمر بالكتابة ليست له حقيقة ثابتة في الخارج؛ أي الواقع؛ لأنه يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، فلا يحتمل أن يقال لقائله: صدقت أو كذبت، ومثله بقية أنواع الطلب: كالنهى والاستفهام والتمني والنداء. والخبر لا بد له من: إسناد ومسند إليه ومسند، والمسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلاً أو في معنى الفعل، كاسم الفاعل واسم المفعول والمصدر ونحو ذلك. فأحوال هذه الأربعة هي الأبواب الأربعة الأولى في علم المعاني^(١).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن كثيراً من أحوال التراكيب العربية يُبحث عنها في علم النحو، كالذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير، فما الفرق إذن بين تناول النحاة لمثل هذا، وتناول البلاغيين؟.

وهذا التساؤل طرح وأجاب عنه بعض العلماء مثلما فعل صاحب عروس الأفراح: "إن غاية النحوي أن ينزل المفردات على ما وضعت له، ويركبها عليها، ووراء ذلك مقاصد لا تتعلق بالوضع مما يتفاوت به أغراض المتكلم على أوجه لا تتناهى، وتلك الأسرار لا تعلم إلا بعلم المعاني، والنحوي وإن ذكرها فهو على وجه إجمالي يتصرف فيه البياني تصرفاً خاصاً لا يصل إليه النحوي وهذا كما أن معظم أصول الفقه من علم اللغة، والنحو، والحديث، وإن كان مستقلاً بنفسه"^(٢).

فالبحث النحوي بحث تحليلي، يسعى للكشف عن الوظائف، والبحث البلاغي -وخاصة في علم المعاني- بحث تركيبى يسعى إلى إيضاح الدلالات والكشف عن خصوصيات التراكيب، فعلم النحو يبحث هذه الأحوال من حيث الصحة والفساد، أما علم المعاني فيبحث في سر بلاغتها ومطابقتها لمقتضى الحال، فالبلاغة تبدأ من حيث ينتهي النحو. ولهذا عد بعضهم "علم المعاني

(١) ينظر: خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة الطبعة: السابعة (ص: ٧٦) /

ومعجم المصطلحات البلاغية، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٧ م ص ٦٣٢

(٢) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية،

بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م (١/ ٤٧)

قمة الدراسة النحوية أو فلسفتها إن صح هذا التعبير^(١).

ثانياً- النظم والاعجاز القرآني:

١ . مفهوم النظم:

النظم لغة: مادة تدل على التأليف والجمع، جاء في أساس البلاغة: " نظمت الدر ونظمته ودر منظوم ومنظم وقد انتظم وتنظم وتناظم وله نظم منه ونظام ونظم ومن المجاز نظم الكلام وهذا نظم حسن وانتظم كلامه وأمره وليس لأمره نظام إذا لم تستقم طريقته"^(٢) - النَّظْمُ التَّأْلِيفُ نَظَّمَهُ يَنْظِمُهُ نَظْمًا وَنَظَامًا... وَنَظَّمْتُ اللَّوْلُؤَ أَي جَمَعْتُهُ فِي السَّنْكَ وَالتَّنْظِيمُ مِثْلُهُ وَمِنْهُ نَظَّمْتُ الشُّعْرَ وَنَظَّمْتُهُ وَنَظَّمُ الأَمْرَ عَلَى المِثْلِ وَكُلُّ شَيْءٍ قَرَنْتَهُ بِأَخْرٍ أَوْ ضَمَّمْتَهُ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ فَقَدْ نَظَّمْتَهُ"^(٣) وجاء في القاموس المحيط: " النظم : التأليف وضم شيء إلى شيء آخر والمنظوم والجماعة من الجراد وثلاثة كواكب من الجوزاء وع والثريا والدبران . ونظم اللؤلؤ ينظمه نظماً ونظاماً ونظمه: ألفه وجمعه في سلك فانتظم وتنظم"^(٤)

والملاحظ من خلال المعنى اللغوي الذي أوردته المعاجم، أن النظم ضم الأشياء بعضها إلى بعض وتنسيقها على نحو معين، كما تضم حبات اللؤلؤ في نظام يجمعها على نحو من الاتساق.

اصطلاحاً:

يقول الدكتور صالح بلعيد في تعريفه لهذه النظرية: "هو تأليف وضم مجموعة من العناصر المتحدة في العملية اللغوية ليكون الكلام حسناً حسب خصائص معينة هي:

١ . حسن الاختيار لأصوات الكلمة

(١) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها ، تمام حسان، عالم الكتب، لبنان، ط ٥، ٢٠٠٦، (ص: ١٨).

(٢) أساس البلاغة، الزمخشري، دار الفكر، دط، ١٣٩٩هـ (ص: ٦٤١).

(٣) لسان العرب لابن منظور (٦/ ٤٤٦٩).

(٤) القاموس المحيط، يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، دت، (ص: ١٥٠٠).

٢ . تعليق الكلمة في ذاتها

٣ . تعليقها بما يجاورها وليس بضم الكلمات كيف ما جاءت

٤ . مراعاة الموقع النحوي الأصيل حسب ما تقتضيه بيئة العربي

٥ . مراعاة المعنى المباشر(السطحي) غير المنزاح، والمعنى غير المباشر (المنزاح)^(١)

تناول عبد القاهر موضوع الإعجاز في سياق نظرية «النظم» التي تبناها في التعميد والتحليل النقديين لمختلف الخطابات الأدبية، مواصلاً بذلك ما درج عليه بعض سابقه، مثل الجاحظ، من التعويل على النظم في صناعة الكلام، ولكن بنظرات أدق، وتناول أعمق. وتحدث عبد القاهر الجرجاني عن نظريته في إعجاز القرآن وهو يضع عدة احتمالات حول وجوه الإعجاز، ويردها ليثبت الوجه المختار:

لا يجوز أن يكون في "الكلم المفردة"، لأن تقدير كونه فيها يؤدي إلى المحال، وهو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة... ولا يجوز أن تكون في "معاني الكلم المفردة"، التي هي لها بوضع اللغة؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تجدد في معنى "الحمد" و"الرب"، ومعنى "العالمين" و"الملك" و"اليوم" و"الدين"، وهكذا، وصف لم يكن قبل نزول القرآن...

ولا يجوز أن يكون هذا الوصف في ترتيب الحركات والسكنات... ولا يجوز أن يكون الإعجاز بأن لم يلتق في حروفه ما يثقل على اللسان. ولا يمكن أن تجعل "الاستعارة" الأصل في الإعجاز وأن يقصر عليها؛ لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في أي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة، وإذا امتنع ذلك فيها، ثبت أن "النظم" مكانه الذي ينبغي أن يكون فهي. وإذا ثبت أنه في النظم، والتأليف^(٢).

من هذه المنطلقات أسس عبد القاهر لأدبية الإعجاز، حيث نفى تحققها في الكلم مفردة، أو

(١) نظرية النظم، صالح بلعيد، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠١ص: ٩٣.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني المحقق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة:

الثالثة - ١٩٩٢م ص ٣٨٦ وما بعدها

في إيقاع الفواصل المتناغمة وحدها، أو اختصاصها بالاستعارة وضروب المجاز منفردة وإنما مناط تلك الأدبية ليس إلا أن يكون في "النظم والتأليف" (١).

فالإمام الجرجاني إذن يذهب إلى أن النظم وحده هو سر الإعجاز ووجهه، وليست مباحث البلاغة المختلفة ولا المفردات وحدها ولا حتى الجانب الصوتي.

وحد النظم عند عبد القاهر هو: "تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض" (٢). وانطلق الجرجاني لبناء نظريته حول النظم من النحو العربي، فأخرجه من نطاق شكلية وجفافه وسما به فوق الخلافات والتأويلات حول البناء والإعراب، فأخضع النحو لفكرة النظم فقال: "ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه على النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها" (٣) من أجل ذلك كان المؤلف قد عقد في أول كتابه مبحثاً دافع فيه عن علم النحو عند من يقلل من شأنه ويشكك في جدواه وحث على تعلمه والتقوي فيه؛ لأنه المرتكز الذي ستقوم عليه نظريته في بقية الكتاب.

يقول في أول ذلك المبحث: "وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم، وأشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه؛ ذاك لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذا كان قد علم أن الألفاظ معلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه" (٤).

فالنحو إذن عند عبد القاهر الجرجاني ليس ذلك العلم الذي يبحث في ضبط أواخر الكلمات، ولا هو جملة المصطلحات والقواعد الجافة، وإنما النحو هو المقياس الذي يستقيم الكلام به، والذي

(١) نفسه (١/ ٣٩١).

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني (١/ ٣٩٢).

(٣) نفسه (١/ ٨١).

(٤) دلائل الإعجاز (١/ ٢٨).

عن طريقه يكشف النقاب عن الدلالات الخفية والمعاني التي ندركها من علاقات الكلام بعضه ببعض، ومن ارتباطات الألفاظ بعضها ببعض أيضاً.

ويقول أيضاً في سبيل توضيح مراده من النظم وإثبات ذلك " ولست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي"^(١)

فبتوحي قوانين النحو تنتظم الألفاظ في مواقعها التركيبية بحسب سياقاتها المعنوية، لتحقيق أدبية التبليغ. على أن تباين وجوه النحو، وتنوع معانيه كالتعريف والتكبير، والتقديم والتأخير ليست هي الغاية في حد ذاتها؛ وإنما توظيفها لتأمين حسن التبليغ، وتحقيق غرض الكلام إذ " ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض"^(٢).

وجعل الجرجاني مناط أدبية النظم، أي الصياغة التركيبية لأجزاء الكلام، في نسيج محكم، وسباكة متينة، تتوخى الإفصاح عن المعاني والدلالات في نظام هندسي متساوق، كما يشرح ذلك بقوله: "واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك في توحي المعنى التي عرفت، أن تتخذ أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشد ارتباط ثان منها بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع يمينه ههنا، وفي حال ما يضع يساره هناك"^(٣)

وعلى هذا الأساس حاصر الجرجاني إشكالية اللفظ والمعنى، بعدم الانحياز لأي منهما على حساب الآخر، وإنما بالتعويل على انصهارهما في النظم.

والنظم هنا لا يعني توحي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم فحسب، بل يقتضي

(١) نفسه (١/ ٨٣).

(٢) نفسه (١/ ٨٧).

(٣) دلائل الإعجاز (١/ ٩٣).

استحضار البعد البلاغي الجمالي أيضاً، فتكون الأدبية الإعجازية ثمرة اللحمية بينهما.

ولهذا فالصور البيانية من مقتضيات النظم القرآني قال الجرجاني «يقضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو معجز؛ وذلك لأن هذه المعاني التي هي الاستعارة، والكناية، والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من بعدها، من مقتضيات النظم، وعنهما يحدث وبها يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم، وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو»^(١).

ويعزز الجرجاني هذا الطرح التنظيمي بعينة إجرائية يجمع فيها المقومات النظامية السابقة، حين

يجل قوله تعالى على لسان زكريا . عليه السلام .: ﴿ وَأَشْتَعَلْ أَلْرَأْسُ شَيْبًا ﴾ نافياً أن تكون الاستعارة هنا، وحدها، سببا للحسن والجمال، فليس «هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس، عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة، ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل إلى الشيء، وهو لما هو، من سببه؛ فيرفع به ما يسند إليه، ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى، منصوباً بعده، مبيناً أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول، وإنما كان من أجل هذا الثاني ولما بينه وبينه من الاتصال والملازمة ...»^(٢). ثم يوضح الأمر ويفصله أكثر بلهجة الناقد المحترف الخبير بتلايب النظم العربي: «وذلك أننا نعلم أن «اشتعل» للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ، كما أن «طاب» للنفس، و «قر» للعين، و «تصبب» للعرق وإن أسند إلى ما أسند إليه، يبين أن الشرف كان، لأن سلك فيه هذا المسلك، وتوخى به هذا المذهب، أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسندته إلى الشيب صريحاً فنقول: (اشتعل شيب الرأس، والشيب في الرأس)، ثم تنظر: هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟»^(٣).

ليخلص بعد هذا إلى كشف سر جمال استعارة الاشتعال للشيب، وتعليل ذلك بقوله:

فإن السبب في أن يفيد، مع لمعان الشيب في الرأس، الذي هو أصل المعنى: الشمول؛ وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استقر به، وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به؛ وهذا ما لا يكون إذا قيل (اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس).

(١) المصدر نفسه (١/ ٣٩٣).

(٢) دلائل الإعجاز (١/ ١٠٠).

(٣) نفسه (١/ ١٠١).

بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة"^(١). ثم يكشف لنا معلماً آخر من جنس النظم، وهو تعريف الرأس (بالألف واللام) وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزية"^(٢).

على منوال هذا التنظير الدقيق، والتحليل العميق، مضى الجرجاني في تبين جمالية الخطاب القرآني، مستدلاً "على منهجه الأدبي في تفهم آي القرآن الكريم بسمو النظم فيها، وما ينسجم فيه من أوامر التناسق، وتآلف كلماته بالتضامن والترابط إلى بضعها، وهو يستعين بالدراسة البلاغية والنقدية في استذواق كافٍ لاستخراج النتائج المحللة بالعلة والتفسير"^(٣).

لقد تمكن عبد القاهر بفضل ذوقه الأدبي والتحليل العميق من تقديم نظرية كشفت عن أحد الجوانب الخاصة بالإعجاز القرآني في عصره، وهي نظرية تحاول إعطاء نظرة شاملة تحيط بعناصر تلك الأدبية، وتفككها عنصراً عنصراً، وتكشف عن علاقاتها البنائية، ووشائجها النظمية، وصولاً إلى ملامسة أبعادها الجمالية، ما أمكن ذلك.

٢. آراء البلاغيين وعلماء القرآن في نظرية النظم:

وقف المفسرون وعلماء القرآن بعد الجرجاني موقف المستفيد من هذه النظرية، وأشهرهم من بعده نجد الزمخشري الذي طبق نظريته تطبيقاً علمياً في تفسيره الكشاف، مع بعض الإضافات التي تدل على علو همته، وجودة قريحته، ولعله أول من أشار إلى التفرقة بين علم المعاني والبيان، وإن كان لم يضع لكل منهما حداً فاصلاً، مع ما لكل منهما من موضوعات خاصة به، وإلى هنا كانت البلاغة صافية النبع، عربية الترتيب والوضع"^(٤).

وتحدث الألوسي عن النظم وإعجازه في القرآن مقسماً الكلام إلى خمسة مراتب، وعلاقة هذه الأقسام ببلاغة القرآن فقال: "أما بيان كون النظم معجزاً فلأن مراتب تأليف الكلام على ما قيل

(١) نفسه (١/ ١٠١).

(٢) نفسه (١/ ١٠١).

(٣) الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، د. محمد عباس، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٩، ص ٧٧.

(٤) البلاغة فنونها وأفانها (علم المعاني)، فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن، ط ٤، ١٩٩٧، ص ٧٤.

خمس «الأولى» ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض فتحصل الكلمات الثلاث الاسم والفعل والحرف «والثانية» تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض فتحصل الجمل المفيدة وهو النوع الذي يتداوله الناس جميعا في مخاطبتهم وقضاء حوائجهم ويقال له : المنثور «والثالثة» ضم ذلك إلى بعض ضما له مباد ومقاطع ومداخل ومخارج ويقال له المنظوم «والرابعة» أن يعتبر في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ويقال له المسجع «والخامسة» أن يحصل له مع ذلك وزن ويقال له إن قصد الشعر والمنظوم إما محاورة ويقال له الخطابة وإما مكاتبة ويقال له الرسالة فأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الأقسام ولكل من ذلك نظم مخصوص والقرآن جامع لمحاسن الجميع بنظم مكتس أبهى حلل، ومتعر عن كل خلل، ومشمتمل على خواص ما شامها سواه ، ومزايا ما سامها عند أهل النقد نظم إلا إياه.

من كل لفظ تكاد الأذن تجعله ربا ويعبده القرطاس والقلم. ويؤيد ذلك أنه لا يصح أن يقال له رسالة أو خطابة أو سجع كما يصح أن يقال هو كلام ، والبليغ إذا قرع سمعه فصل بينه وبين ما عداه من النظم بلا ترديد وهذا مما لا خفاء فيه على الرجال حتى على الوليد ، وأما بيان ذلك في البلاغة فهو أن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في البيان متفاوتة ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجاري الطلق الرسل وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود فالأول أعلاها والثاني أوسطها والثالث أدناها وأقربها وقد حازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام أوفر حصة وأخذت من كل نوع أعظم شعبة فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعدوبة وهما كالمتضادين فكان اجتماع الأمرين فيه مع نبو كل منهما عن الآخر فضيلة ومنزلة جليلة وقد خص بذلك القرآن كما لا يخفى على ذوي الفطر السليمة ومن كان له في علم البلاغة إتقان^(١).

ونجد في العصر الحديث الشيخ الطاهر بن عاشور (١٣٩٣ هـ) في تفسيره التحرير والتنوير الذي طبق هذه النظرية وأضاف عليها لمساته البيانية عند تفسيره للآيات القرآنية، وهو من أفضل كتب التفسير التي وظفت نظرية النظم في النص القرآني في العصر الحديث.

(١) روح المعاني . (١ / ٣٣)

قال ابن عاشور عن النظم القرآني: "إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة، فحمل القرآن لها دلالتها الوضعية التركيبية التي يشاركها فيها الكلام العربي كله، ولها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها.

ولها دلالتها المطوية وهي دلالة ما يذكر على ما يقدر اعتمادا على القرينة، وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء وكثرت في القرآن مثل تقدير القول وتقدير الموصوف وتقدير الصفة.

ولها دلالة مواقع جملة بحسب ما قبلها وما بعدها، ككون الجملة في موقع العلة لكلام قبلها، أو في موقع الاستدراك، أو في موقع جواب سؤال، أو في موقع تعريض أو نحوه. وهذه الدلالة لا تتأني في كلام العرب لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم بخلاف القرآن، فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة، وبتلك الإطالة تأتي تعدد مواقع الجمل والأغراض"^(١).

ويرجع مصطفى الصادق الرافعي (١٣٥٦هـ) إعجاز القرآن إلى نظمه حيث قسم الكلام إلى ثلاثة أجزاء يشملها النظم وهي "حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم. وقد رأينا سر الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به؛ فليس لنا بد في صفتها من الكلام في ثلاثتها جميعاً"^(٢).

ثم يفرق بين بلاغة القرآن ونظمه وكلام البلغاء، فقال: "أن نظم القرآن يقتضي كل ما فيه منها اقتضاءً طبيعياً بحيث يُبنى هو عليها لأنها في أصل تركيبه، ولا تبني هي عليه؛ فليست فيها استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا شيء من مثل هذا يصح في الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه إذا تبدلته منه، فضلاً عن أن يفني به، وفضلاً عن أن يربى عليه، ولو أدت اللغة كلها على هذا الموضع."^(٣).

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ م (١/ ١١٠)

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى الصادق الرافعي، دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الثامنة - ١٤٢٥ هـ (ص:

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٤٥ و ١٤٦)

ويشيد الدكتور صبحي الصالح بعبد القاهر بقوله: "ولقد كان عبد القاهر ذواقة للأسلوب القرآني، حتى أوشك أن يسبق عصره في بعض لمحاته الموفقة التي نفذ بها إلى إدراك الجمال الفني في كتاب الله. واستمع إليه وهو يفسر هذه الصورة البارعة في قوله تعالى: (اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) فسيعجبك منه بلا ريب حسه المرهف الدقيق وفهمه طريقة القرآن المفصلة في التعبير والتصوير"^(١).

ثم يقول مشيدا بأفكاره واجتهاداته حول العلاقة السياقية "ولعل أذكى محاولة لتفسير العلاقات السياقية في تاريخ التراث العربي إلى الآن، هي ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني صاحب مصطلح "التعليق"، وقد كتب دراسته الجادة في كتابه "دلائل الإعجاز" تحت عنوان "النظم"، ولكن عبد القاهر أورد في هذه الدراسة أربعة مصطلحات هي:

١- النظم.

٢- البناء.

٣- الترتيب.

٤- التعليق."^(٢)

وربط بعض الدارسين نظرية عبد القاهر في النظم بالدراسات الحديثة الغربية حول علوم اللسان، وخاصة ما توصل إليه العالم السويسري دي سوسير في هذا المجال، يقول محمد مندور (ت ١٣٨٥هـ): "منهج عبد القاهر يستند إلى نظرية في اللغة، أرى فيها -ويرى معي كل من يعنى النظر- أنها تماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء، ونقطة البدء نجدها في آخر "دلائل الإعجاز"؛ حيث يقرر المؤلف ما يقرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات "Systeme des rapports". على هذا الأساس العام بنى عبد القاهر كل تفكيره اللغوي الفني"^(٣)

(١) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ٢٠٠٠م (ص: ٣١٤)

(٢) نفسه (ص: ١٨٦)

(٣) في الميزان الجديد، محمد مندور، نهضة مصر للطباعة، دط، ٢٠٠٤م (ص: ١٤٨)

وهذا ما رآه تمام حسان أيضا فقال: "أجدني مدفوعًا إلى المبادرة بتأكيد أن دراسة عبد القاهر للنظم وما يتصل به تقف بكبرياء كتفًا إلى كتفٍ مع أحدث النظريات اللغوية في الغرب، وتفوق معظمها في مجال فهم طرق التركيب اللغوي، هذا مع الفارق الزمني الواسع الذي كان ينبغي أن يكون ميزة للجهود المحدثة على جهد عبد القاهر"^(١).

ويرى الدكتور محمد عبد المطلب أن كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر "بداية لتحرك صحيح نحو نظرية لغوية في فهم النص الأدبي، ينتهي بها الأمر إلى نوع من التركيز حول دراسة الأسلوب ذاته من خلال مفهوم النظم. وهو مفهوم اعتمد على التركيب اللغوي الذي يتصل باللفظ المنطوق والكلام النفسي"^(٢)

٣. النظم والإعجاز القرآني عند الألوسي:

لعلم المعاني مكانة عند علماء الإعجاز حتى أن بعضهم ربط الطريق لفهم القرآن وتدبره بالتمكن من ناصية هذا العلم وممارسته وتذوقه قال السكاكي: "واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن يدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحاة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين، علم المعاني والبيان"^(٣)

وقال التفتازاني: "يعني أن كل ما ندركه بعقولنا ففي غالب الأمر نتمكن من التعبير عنه ، والإعجاز ليس كذلك لأننا نعلم قطعاً من كلام الله أنه بحيث لا تمكن للبشر معارضته والإتيان بمثله ولا يماثله شيء من كلام فصحاء العرب مع أن كلماته كلمات كلامهم، وكذا هيئات تراكيبه ، كما أننا نجد كلاماً نعلم قطعاً أنه مستقيم الوزن دون آخر ، وكما أننا ندرك من أحد كون كل عضو منه كما ينبغي وآخر كذلك أو دون ذلك ، لكن فيه شيء نسميه الملاحاة ولا نعرف أنه ما هو ، وليس مدرك الإعجاز عند المصنف سوى الذوق وهو قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ووجوه محاسنه الخفية ، فإن كان حاصلها بالفطرة فذاك وإن أريد اكتسابه فلا طريق إليه سوى الاعتناء بعلمي المعاني والبيان وطول ممارستهما والاشتغال بهما ، وإن جمع بين الذوق الفطري

(١) اللغة العربية معناها ومبناها (ص: ١٨)

(٢) البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤ ص ١٩٣

(٣) مفتاح العلوم (ص: ٤١٦)

وطول خدمة العلمين فلا غاية وراءه"^(١)

وفي مقدمة تفسيره يذكر الألوسي سبع فوائد تعد أهم مباحث علوم القرآن، وخص الفائدة الأخيرة للحديث عن إعجاز القرآن فقال: "«اعلم» أن إعجاز القرآن مما لا مزية فيه ولا شبهة تعتربه وأرى الاستدلال هنا عليه مما لا يحتاج إليه والشبه صرير باب أو طنين ذباب والأهم بالنسبة إلينا بيان وجه الإعجاز"^(٢)، ثم يشرع في ذكر هذه الوجوه والردود المختلفة عليها، مناقشا في بعض الأحيان هذه الردود ومفندا لها في أحيان أخرى، ثم يختم بالوجوه الذي ارتضاها لإعجاز القرآن وهي أربعة أوجه:

- النظم.
- البلاغة
- الإخبار عن الغيب
- موافقة العقل ودقيق المعنى

جاء في تفسيره: "والذي يخطر بقلب هذا الفقير أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى وقد يظهر كلها في آية وقد يستتر البعض كالإخبار عن الغيب ولا ضير ولا عيب فما يبقى كاف وفي الغرض واف.

نجوم سماء كلما انقضّ كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكب"^(٣)

ثم يشرع في بيان الوجوه الأربعة وشرحها والذي يهمننا منها النظم والبلاغة: "أما بيان كون النظم معجزا فلأن مراتب تأليف الكلام على ما قيل خمس «الأولى» ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض فتحصل الكلمات الثلاث الاسم والفعل والحرف «والثانية» تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض فتحصل الجمل المفيدة وهو النوع الذي يتداوله الناس جميعا في مخاطباتهم وقضاء حوائجهم ويقال له: المنشور «والثالثة» ضم ذلك إلى بعض ضما له مباد ومقاطع ومداخل ومخارج

(١) المطول، التفتازاني ص ٢٤٣

(٢) روح المعاني . (١ / ٢٨).

(٣) روح المعاني . (١ / ٣٢)

ويقال له المنظوم «والرابعة» أن يعتبر في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ويقال له المسجع «والخامسة» أن يحصل له مع ذلك وزن ويقال له إن قصد الشعر والمنظوم إما محاورة ويقال له الخطابة وإما مكتوبة ويقال له الرسالة فأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الأقسام ولكل من ذلك نظم مخصوص والقرآن جامع لمحاسن الجميع بنظم مكتس أبهى حلل ، ومتعر عن كل خلل ، ومشمتم على خواص ما شامها سواه ، ومزايا ما سامها عند أهل النقد نظم إلا إياه.

وأما بيان ذلك في البلاغة فهو أن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في البيان متفاوتة ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجاري الطلق الرسل وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود فالأول أعلاها والثاني أوسطها والثالث خص وأقربها وقد حازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام أوفر حصة وأخذت من كل نوع أعظم شعبة فاننظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعدوبة وهما كالمتضادين فكان اجتماع الأمرين فيه مع نبو كل منهما عن الآخر فضيلة ومنزلة الرسل حصة فهذه الأوجه الأربعة هي الظاهرة في وجه إعجاز القرآن. ^(١)

وبهذا يكون إعجاز القرآن عنده من جهتين: الأولى والثانية متوجه إلى العرب، إذ هو معجز لفصحائهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز كبارهم وفحولهم عن معارضته مع توفر الدواعي عليه هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم. ثم قد يشارك العرب في إدراك إعجازه كل من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم وآدابهم من أئمة البلاغة العربية في مختلف العصور الذين جذبتهم فصاحته وبلاغته.

والقرآن معجز من الجهة الثالثة والرابعة للبشر قاطبة إعجازا مستمرا على مر العصور، وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين: إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين.

وللألوسي حديث في مواضع أخرى من تفسيره عن إعجاز القرآن، مثل ما جاء في آية التحدي في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ فِي قَوْلِهِ مُتَسَلِّطِينَ ﴾

(١) روح المعاني . (١ / ٣٢ وما بعدها).

صَدِّقِينَ ﴿٢٨﴾ ﴿١﴾ "وفي هذه الآية دلالة على إعجاز القرآن لأنه عليه الصلاة والسلام تحدى مصارع العرب بسورة ما منه فلم يأتوا بذلك وإلا لنقل إلينا لتوفر الدواعي إلى نقله. وزعم بعض الملاحدة أنه لا يلزم من عجزهم عن الإتيان بذلك كونه من عند الله تعالى قطعاً فإنه قد يتفق في الشخص خصوصية لا توجد في غيره فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان مخصوصاً بهذه المرتبة من الفصاحة والبلاغة ممتازاً بها عن سائر العرب فأتى بما أتى دونهم، وقد جاء من بعض الطرق أنه صلى الله عليه وسلم قال: «أنا أفصح العرب بيد أي من قريش»

وأجيب بأنه صلى الله عليه وسلم وإن كان في أقصى الغايات من الفصاحة حتى كأن الله تعالى شأنه وعزت قدرته محض اللسان العربي وألقى زبدته على لسانه صلى الله عليه وسلم فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرجل وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السجل إلا أن كلامه صلى الله عليه وسلم لا يشبه ما جاء به من القرآن وكلام شخص واحد متشابه كما لا يخفى على ذوي الأذواق الواقفين على كلام البلغاء قديماً وحديثاً" (٢).

ووقع التحدي بسورة وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات "لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام وصوغه بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام وخواتمه، وانتقال الأغراض، والرجوع إلى الغرض، وفنون الفصل، والإيجاز والإطناب، والاستطراد والاعتراض" (٣)

وعن الإعجاز البلاغي الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا رَجُلُ أَبْلَغِي مَاءَكَ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٤﴾

يقول: "واعلم أن هذه الآية الكريمة قد بلغت من مراتب الإعجاز أفاصيها واستدلت مصارع العرب فسفعت بنواصيها وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان وكانت من سمهرى البلاغة

(١) البقرة: ٣٨

(٢) روح المعاني . (٦ / ١١٢).

(٣) التحرير والتنوير . (١ / ١٠٤)

(٤) هود: ٤٤

مكان السنان"^(١)

وأرجع إعجاز الآية لأمرين: " لأول الطرف الأعلى من البلاغة أعني ما ينتهي إليه البلاغة ولا يتصور تجاوزها إياه، والثاني ما يقرب من ذلك الطرف أعني المراتب العلية التي تتقاصر القوى البشرية عنها أيضا ومعنى إعجاز آيات الكتاب المجيد بأسرها هو كونها مما تتقاصر القوى البشرية عن الإتيان بمثلها سواء كانت من القسم الأول أو الثاني، فلا يضر تفاوتها في البلاغة"^(٢)

وهذه الآية أسالت حبر العلماء، فتصدى السكاكي في «المفتاح» في بحث البلاغة والفصاحة لبيان بعض خصائص البلاغة في هذه الآية، فقال: والنظر في هذه الآية من أربع جهات، من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني ... ومن جهة الفصاحة المعنوية ومن جهة الفصاحة اللفظية"^(٣).

كما ألفت حولها رسائل مثل رسالة الشيخ علاء الدين -أعلى الله تعالى درجته في أعلى عليين -في هذه الآية الكريمة جمع فيها ما ظهر له ووقف عليه من مزاياها فبلغ ذلك مائة وخمسين مزية"^(٤)

(١) روح المعاني . (٦ / ٢٦١)

(٢) روح المعاني . (٦ / ٢٦١)

(٣) مفتاح العلوم (ص: ٤١٧).

(٤) ينظر: روح المعاني . (٦ / ٢٦٥)

ثالثا- مفهوم العـدول:

لغة: جاء في معجم الخليل: "وَعَدَلْتُ فلاناً بنظيره، أَعَدَلْتُهُ. ومنه: يقال: ما يعدلك عندنا شيء، أي: ما يقع عندنا شيء موقعك. وَعَدَلْتُ الشيءَ أقمته حتى اعتدل.وَعَدَلْتُ الدَّابَّةَ إلى كذا: أي: عطفتها فانعدلت....والعَدْلُ: الطريق. ويقال: الطريق يُعَدَّلُ إلى مكان كذا، فإذا قالوا يَنْعَدِلُ في مكان كذا أرادوا الاعوجاج.... وغصنٌ معتدل: مستو. و جارية حسنة الاعتدال، أي: حسنة القامة. والانعـدال: الانعراج.^١

وفي المحكم: "وَعَدَلَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْدِلُ عَدْلًا وَعُدُولًا: حَادَ. وَعَدَلَ إِلَيْهِ عُدُولًا: رَجَعَ....وَعَدَلَ الطَّرِيقُ: مَالَ."^٢

وجاء في لسان العرب: "وَعَدَلَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْدِلُ عَدْلًا وَعُدُولًا: حَادَ، وَعَنِ الطَّرِيقِ: جَارَ، وَعَدَلَ إِلَيْهِ عُدُولًا: رَجَعَ. وَمَا لَهُ مَعْدِلٌ وَلَا مَعْدُولٌ أَي مَصْرُفٌ."^٣

مما سبق يظهر أن العدول قد يحمل معنيين متضادين وهما الاستواء والاعوجاج، ومن معانيه أيضا الميل الحياد والانصراف.

اصطلاحا: عرفه محمد ويس أنه: "استعمال المبدع للغة مفردات وتراكيب وصورا استعمالا يخرج به عما هو معتاد ومألوف بحيث يؤدي ما ينبغي له أن يتصف به من تفرّد وإبداع وقوة جذب وأسر"^(٤)، ويُعرف العدول أيضا بأنه: كل ما ليس بمألوفٍ ولا عادي المطابق للنموذج المعتاد"^(٥)

(١) العين (٢/ ٣٩)

(٢) المحكم والمحيط الأعظم (٢/ ١٤)

(٣) لسان العرب (١١/ ٤٣٤)

(٤) الانزياح في منظور الدراسات الاسلوبية، أحمد ويس، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ط١ ص٨.

(٥) فكرة العدول في البحوث الأسلوبية المعاصرة، عبد الله صولة، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، حزيران ١٩٨٧،

المغرب ص ٧٩

فهو يعنى برصد انحرافات الكلام عن نسقه المثالي المؤلف، وذلك لأنهم نظروا إلى اللغة وفق مستويين، الأول: مستواها المثالي في الأداء العادي، والآخر: مستواها الإبداعي الذي يعتمد على اختراق هذه المثالية وانتهاكها^(١)

ويظهر لنا من هذا التعريف أنّ العدول هو الفيصل بين الكلام العادي والكلام الأدبي، وإذا أردنا استجلاء الفروق بين هذين المستويين من الكلام فسنجد أننا أمام آراء كثيرة، فمن ذلك ما رآه تودوروف حين اعتبر " أنّ الحدث اللساني العادي خطاب شفاف نرى من خلاله معناه، ولا نكاد نراه هو في ذاته، فهو منفذ بلّوري لا يقوم حاجزا أمام أشعة البصر، بينما يتميز عنه الخطاب الأدبي بكونه ثخنا غير شفاف، يستوقفك هو نفسه قبل أن يمكّنك من عبوره أو اختراقه، فهو حاجز بلّوري طلي صورا ونقوشا، فصدّ أشعة البصر أن تتجاوزته"^(٢)

وعطفا على ما ذكر يمكن أن نقول إنّ الكلام أو الخطاب العادي يعتمد على المباشرة، ويهدف إلى التبادل النفعي، ويتسم هذا المستوى من الكلام بمحدودية معجمه، إذ ليس في ألفاظه الجديد، ولا في معانيه المستحدث، وهولا يحتاج إلى جهد عقلي أو فكري لفهم المراد منه، في حين أنّ الخطاب الأدبي يصدر عن ملكة عند منشئه، وهو يخاطب وجدان السامع أو القارئ، كما يتميز بأنّ ألفاظه مختارة، وتراكيبه غير معهودة، ومعانيه مبتكرة، وقد يحتاج لفهمه وليبان ما يراد به إلى إمعان الفكر وإعمال العقل.

١. العدول والأسلوبية:

اهتمت الدراسات الأسلوبية والنقدية الحديثة بظاهرة العدول باعتباره أحد المقومات الأساسية في تشكيل الكلام وصياغته، ويعد العدول أو ما يسميه بعض النقاد والباحثين بالانزياح أو الانحراف أهم ما قامت عليه الأسلوبية من أركان حتى جعله أهل الاختصاص كل شيء فيها، وعرفوها فيما عرفوها بأنها "علم الانزياحات"^(٣).

و نظر "تودوروف" إلى الأسلوب معتمدا على مبدأ الانزياح، فكان أن عرفه بأنّه " لحن مبرّر ما

(١) ينظر: البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب: ١٩٨

(٢) الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، دار العربية للكتاب، تونس، ط٢، ١٩٨٢، ص١١٦.

(٣) ينظر: بنية اللغة الشعرية، كوهن جان، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، المغرب، ط١، ١٩٨٦،

كان يوجد لو أن اللغة الأدبية كانت تطبيقاً للأشكال النحوية الأولى " (١).

ويأتي " جورج مونان " على الفكرة نفسها، إذ يقول: " ثمة أسلوب بالنسبة إلى بعضهم، عندما تحتوي العبارة على انزياح يخرج به عن المعيار " (٢).

فبحسب تودوروف وجورج مونان أن العبارة تحتوي على الأسلوب، عندما يحتوي الأسلوب على انزياح يخرج به عن القاعدة، ونستطيع أن نضرب على ذلك مثلاً فنقول: إذا قلنا (عم الظلام الأرض)، و(أشرفت الشمس)، فإننا بهذا نتكلم كما يتكلم كل الناس، فالعبارتان اللتان تمّ النطق بهما عبارتان حياديتان، والتعبير فيهما يقف عند حدود الدرجة صفر من القول، ولكن عندما نقول كما قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ ﴾ (٣)، فإننا نسجل بهذا حدثاً أسلوبياً، وذلك لأن السمات النحوية التي تتضمنها الأفعال عسس وتنفس هي غير السمات التي تتضمنها الأسماء الصبح والليل.

يتضح مما سبق أنّ العدول ظاهرة أسلوبية تخصّ اللغة الفنية، ويمكن بواسطتها التعرف على طبيعة الأسلوب الأدبي ذاته.

و العدول من أهم الظواهر التي يمتاز بها الأسلوب الأدبي عن غيره، لأنه عنصر يميز الأدبية ويمنحها خصوصياتها، وتوهجها وألقها، ويجعلها لغة خاصة تختلف عن اللغة العادية، ولذلك نرى كبار نقاد الأدب من أمثال: (تودوروف) Todorov، و (جان كوهن) Jean Cohen يتخذون من ظاهرة الانزياح في النص الأدبي أساساً للبحث في الخواص الأسلوبية التي تميز النص.

وهو من أهم أركان الأسلوبية وهذا راجع لأمرين، أولهما: أن الأسلوب من حيث هو طريقة الفرد الخاصة في التعبير سيظل دائماً مقترناً بالانزياح أو العدول عن طرائق أخرى فردية (أساليب كتاب آخرين) أو جماعية (أساليب الأدب واللغة عامة)، وثانيهما: أن الأسلوبية نفسها كانت قد جعلت الانزياح منذ نشأتها عماد نظريتها، فقد اتخذ رواد الأسلوبية وخاصة (سپتزر) Spitzer من مفهوم الانزياح "مقياساً لتحديد الخاصية الأسلوبية عموماً، ومسباراً لتقدير كثافة عمقها ودرجة نجاعتها "

(١) نفسه ص ١٠٢-١٠٣

(٢) الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٧٥.

(٣) التكوير: ١٧-١٨.

(١)

ويرى (سبيتزر) أن الأسلوبية " تحلل استخدام العناصر التي تمدنا بها اللغة وأن ما يمكن من كشف ذلك الاستخدام هو الانحراف الأسلوبي الفردي وما ينتج من انزياح عن الاستعمال العادي" (٢).

وقد حرص الأسلوبيون على تأكيد أهمية الانزياح في الدراسات الأسلوبية، إذ يرى محمد عبد المطلب أن أهم المباحث الأسلوبية يتمثل في رصد انزياح الكلام عن نسقه المثالي المؤلف، أو كما قال (جان كوهن): رصد(الانتهاك) الذي يحدث في الصياغة، والذي يمكن بواسطته التعرف على طبيعة الأسلوب الأدبي، بل ربما كان هذا الانتهاك هو الأسلوب ذاته، وما ذاك إلا لأن الأسلوبيين تعاملوا مع اللغة على أساس أنها ذات مستويين، الأول: مستواها المثالي (العادي) ويتجلى في هيمنة الوظيفة الإبداعية على أساليب الخطاب، والثاني: مستواها الإبداعي (الفني) الذي يخترق الاستعمال المؤلف للغة^(٣)، ويخرق صيغ الأساليب الجاهزة، ويهدف من خلال ذلك إلى شحن الخطاب بطاقات أسلوبية وجمالية تحدث تأثيرا في المتلقي.

فالمستوى العادي هو الذي يعتمد النحو التقعيدي في تشكيل عناصره، كما يعتمد اللغة في تنسيق هذه العناصر، وثمره الترابط بين ما يقول به النحاة وما يقول به اللغويون ظهور مثالية اللغة في استخدامها المؤلف، وهي مثالية افتراضية أكثر منها تطبيقية واقعية، ولعل هذه المثالية الافتراضية هي التي كانت وراء كثير من المقولات النظرية في الدراسات النحوية واللغوية كتقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، ثم الولوج من هذه القسمة إلى تنويعات على الاسم والفعل والحرف، من خلال الجمود والاشتقاق، أو من خلال الأصول والتجريد والزيادة، كما كان هناك تصور خاص بالزمن وعلاقته بالفعل، كما أن الحروف أصبح لها تقسيماتها المرتبطة بوظيفة أساسية في التراكيب اللغوية، ويضاف إلى ذلك ما قاموا به من تحديد مكاني لأجزاء الجملة يرتبط في معظم أحواله بالحركة الإعرابية على أواخر الكلمات، واعتماد نظرية العامل وما يتبعها من ظهور أو استتار كأساس في

(١) الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، ص ١٠٢

(٢) الأسلوبية وتحليل الخطاب، نور الدين السد، دراسة في النقد الأدبي الحديث، دار هومة، الجزائر، ط ١، ١٩٩٧، ١٨٠/١

(٣) ينظر: البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٤، (د.ط)، ص ١٩٨

تشكيل هذه الأواخر^(١).

ويمكننا من هذا المنطلق، معالجة لما نحن فيه، ورصدا لما نبتغيه، أن نقول إن البحث الأسلوبي ينصب على اللغة الفنية (الأدبية) لأنها تمثل التنوع الفردي المتميز في الأداء بما فيه من وعي واختيار، وبما فيه من انزياح عن المستوى العادي المألوف، بخلاف اللغة العادية التي يتبادلها الأفراد بشكل مباشر وغير متميز، ولذلك ذهب بعض المنظرين للأسلوب إلى أنه نوع من الخطاب على مرتكز أساسي يتمثل في أن الخطاب الأدبي إذا كان يستمد مادته من معجم لغته التي ينتمي إليها، ويقوم بتأليفها كي تؤدي وظيفتها في بث الفكر، وتوصيل المعلومات، ونقل الأحاسيس، وإظهار الانفعالات باعتبار أن اللغة نظام من الرموز أو العلامات، فإنه - أي الخطاب أو النص الأدبي - قد يكسر القواعد اللغوية الموضوعية، أو يخرج من المألوف للغة، أو يبتدع صيغا وأساليب جديدة، أو يستبدل تعبيرات جديدة بأخرى قديمة، أو يقيم نوعا من الترابط بين لفظين أو أكثر، أو يستخدم لفظا في غير ما وضع له أصلا، وهذا الخروج عن الاستعمال العادي للغة يطلق عليه منظرو الأسلوب وعلماء اللسانيات عدة مصطلحات لعل أبرزها مصطلح الانزياح^(٢).

والدراسة الأسلوبية تهتم بذلك العدول الذي يغير في بنية الإسناد تغيراً يفضي إلى دلالة جديدة محكومة بالسياق كمعيار أساسي في جمال العبارة^(٣)، فالعدول يحصل ويقوم على المعنى والدلالة معاً واعتمادا على محورين أساسيين في العمليات اللغوية وهما: المحور التركيبي الذي يتم فيه تنظيم العلاقات بين مفردات الجملة المختلفة حسب السياق، والثاني: المحور الاستبدالي الذي تحل فيه بعض الأجزاء محل غيرها بالاختيار حسب مقاصد المتكلم وما يتطلبه السياق .

ويبدو أن مصطلح " الانزياح " قد شاع وانتشر بين الباحثين المعاصرين من خلال اطلاعهم على الدراسات النقدية الغربية الحديثة، إذ إن هذا المصطلح قد عرف بالفرنسية على أنه Ecart، وبالألمانية (Abweihung) وبالإنجليزية (Déviation) وقد اختلفت تسميات هذا المصطلح في النقد الغربي، وذلك لاختلاف النقاد الذين تعاملوا معه، فقد عدّه :

(١) نفسه، ص ١٩٨

(٢) ينظر: الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية، فتح الله أحمد، الدار الفنية، عمان. الاردن، ١٩٩٠م، ص ١٩.

(٣) ينظر: النظم في المنظور النحوي والبلاغي، هدى محمد صالح الحديثي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب. جامعة بغداد

١٩٩٣.

بول فاليري " تجاوزا "

ورولان بارت " فضيحة "

وتودوروف " شذوذا "

وجان كوهن " انتهاكا "

وباتيار " إطاحة "

وثيري " كسرا "

وسبيتزر " انحرافا ".^(١)

وإذا كان النقاد الغربيون قد أطلقوا على هذه الظاهرة الأسلوبية أسماء مختلفة توحى باللامألوف وتصف التجاوز والتخطي، فإنّ الباحثين العرب قد استعملوا إلى جانب مصطلح (الانزياح) مجموعة من المصطلحات الأخرى التي هي عبارة عن مترادفات أو شروحات للمصطلح، نذكر منها: العدول، والخروج، والخرق، والانحراف، والابتعاد، والبعد، والتشويش، والتشويه، والمجازة، والنشاز، والاتساع، والفارق، والجسارة اللغوية، والغرابة، والإخلال، والانحاء... الخ.^(٢)

ويرى عدنان بن ذريل أنّ هذه المسميات المختلفة هي في الحقيقة لمسمى واحد، وأطلق عليها: (عائلة الانزياح)، وما الاختلاف في التسمية إلاّ نتيجة للاختلاف في النظرة إلى تطبيقاتها وتحليلاتها.^(٣)

ومما تقدّم يظهر أنّ تعدد المصطلحات التي أطلقت على ظاهرة العدول يشير إلى مدى أهمية ما تحمله هذه المصطلحات من مفهوم، وإلى تأصّله في الدراسات العربية والغربية، غير أنّه يشير في الوقت ذاته إلى أنّ مصطلح الانزياح غير مستقر، إذ إنّ تعدد الأسماء يجعل القارئ يظن أنّه يتعامل

(١) ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، فضل صلاح، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص٨٠، و الأسلوب دراسة لغوية

إحصائية، سعد مصلوح، دار الفكر العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص٤٦، والأسلوبية والأسلوب، المسدي ص١٠٠.

(٢) ينظر: الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية، ويس ص٣٥-٤٠، وينظر: الأسلوبية مفاهيمها وتحليلاتها، رابعة موسى، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، ط١، ٢٠٠٣، ص٤٥.

(٣) ينظر: النقد والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان ابن ذريل، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٨٩، ص٢٦.

في كل مرّة مع مصطلح جديد، ولكن من المؤكّد أنّ هذه المصطلحات ليست في مستوى واحد في دلالتها على المفهوم، بل إنّ كثيرا منها يسيء إلى لغة النقد مثل (الشدود، الانحناء، النشاز....)، ويكاد يتفق النقاد على مصطلح الانزياح والعدول، وفي دراستنا هذه نغلب مصطلح العدول لما له من إرهابات في ثراتنا العربي، حيث استخدمها البلاغيون في سياقات مختلفة، ولكثرة وروده في تفسير روح المعاني.

٢- العدول في التراث العربي:

وبعد تناول مفهوم العدول عند المحدثين، والإشارة إلى تعدد المصطلحات التي أطلقت عليه، نود أن نطرح السؤال الآتي: هل عرف القدماء العدول كما عرفه المحدثون؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول: إنّ ظاهرة العدول ليست خاصة بالنقد الحديث، فإذا كان مصطلح العدول، من حيث هو مصطلح أسلوبى، حديث النشأة ومن ابتداء الزمن المتأخر، فإنّ شيئاً من إرهاصات هذا المصطلح نجده عند أرسطو وعند غيره من البلاغيين والنقاد.

فأما أرسطو، فقد فرق بين لغة عادية مألوفة وأخرى غير مألوفة، ورأى أنّ اللغة التي تنحو إلى الإغراب وتتفادى العبارات الشائعة هي اللغة الأدبية، يقول: "وجود العبارة في أن تكون واضحة غير مبتذلة، فالعبارة المؤلفة من الأسماء الأصلية هي أوضح العبارات، ولكنها مبتذلة... أمّا العبارة السامية الخالية من السوقية فهي التي تستخدم ألفاظاً غير مألوفة، وأعني بالألفاظ غير المألوفة الغريب والمستعار والمحدود وكل ما بعد عن الاستعمال" ^(١)، ويقول أيضاً: "بتحوير هيئة الكلمات عن أوضاعها الأصلية، والخروج عن الاستعمال العادي تحتنب السوقية" ^(٢)

وإذا عدنا إلى التراث العربي، وحاولنا تتبع إرهاصات الانزياح فيه، فإننا سنجد القدر الوفير من الآراء والإشارات التي تصح اتخاذها مؤشراً دالاً على حضور فكرة الانزياح عند العرب، نجدها في فترة مبكرة لم تكن بوادى الفكر النقدي قد بانت بعد، ولعل أهم ما يمكن أن يذكر في هذا الشأن أنّ العرب منذ جاهليتهم كانوا يمتلكون حساً نقدياً، وكانت لهم آراء وانطباعات اعتمدت على الذوق والسليقة لا على القوانين والنظريات، فإنّها تدل على تذوقهم للشعر، وإحساسهم بالكلمة، وإدراكهم بأنّ لغة الشعر واللغة الأدبية تختلف عن لغة النثر أو الخطاب العادي.

ومن الإشارات المبكرة التي يمكن أن تسلك ضمن هذا الإدراك المبكر لفكرة العدول، ما نجده في شعرنا العربي، "فالشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا. ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ومن تصريف اللفظ وتعقيده ومد المقصور وقصر الممدود والجمع بين لغاته والتفريق بين صفاته واستخراج ما كلت الألسن عن وصفه ونعته والأذهان عن فهمه وإيضاحه.

(١) صنعة الشعر، أرسطو طاليس ترجمة: شكري محمد عياد، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط١، ١٩٦٧، ص١٢٢

(٢) نفسه، ص١٢٤.

فيقربون البعيد ويبعدون القريب ويحتج بهم ولا يحتج عليهم ويصورون الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل" (١).

كقول حسان بن ثابت في بيت له شهير:

لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعري (٢)

ومؤدي هذا أنّ حسان قد إنزاح في شعره عن سائر الشعر بحيث انعدم التوافق بينهما من أي وجه كان، وفي هذا ما فيه من إشارة - صحيحة كانت أم لم تكن - إلى أنه تفرد بشعره، وأنه شعر مبدع جاء على غير مثال، شعر خالف المؤلف عند الشعراء بل حتى غير المؤلف عندهم وإنزاح عنه.

ونتقدم في الزمن قليلا فنرى الفرزدق على إدراك بأنّ للشاعر امتياز عن غيره من ذوي الكلام، إذ يروى أنّه لما قال في أحد أبياته:

وعَضُّ زَمَانٍ يا ابنَ مَرَوَانَ لَمْ يَدَعِ مِنَ المَالِ إِلَّا مُسَحَّتًا أو مُجَلْفًا (٣)

رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة، وأتعب أهل الإعراب في طلب العلة، فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا فيه بشيء يرضى. ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أنّ كل ما أتوا به من العلل احتيال وتمويه؟! وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه إيّاه فشمته وقال: عليّ أن أقول وعليكم أن تحتجوا! (٤)

فالفرزدق خرج عامدا عن قياس النحو، ربما لأن القياس لا يعبر عمّا بداخله، ولا يؤدي غرضه بدقة، ولذلك من حقه أن يخرج على قواعد النحو، وأن يتكر من الأساليب والكلمات والأخيلة ما كان خاصا به، ولا يسمى مخطئا بل مبتكرا ومبتدعا.

ويمكن عد خروج أبي نواس عن نظام القصيدة القديمة والتي لا تكاد تخلوا أغلبيتها من المقدمات الظللية عدولا عن الشعر والشعراء السابقين له، حتى أنه سخر من الوقوف على الأطلال والبكاء

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تح: الحبيب ابن خوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط ٣، ٢٠٠٨م، ص ١٢٧.

(٢) ديوان حسان ابن ثابت، تحقيق: وليد عرفات، بيروت، ١٩٧٤، (د.ط)، ١/٩٧.

(٣) ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه: علي فاعور دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧ ص ٣٨٦.

(٤) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ، (١/٨٩).

على الديار وتهكم بهؤلاء المقلدين، وله أبيات قال فيها:

قُلْ لِمَنْ يُكِي عَلَى رَسْمِ دَرَسٍ واقفاً، ما ضَرَّ لو كان جلسن

اتركِ الرَّبْعَ، وَسَلَمِي جانباً، واصطَبِحْ كَرُحِيَّةً مثل القبس^(١)

وقد ورد مصطلح (العدول) عند ابن جنى في باب (قوة اللفظ لقوة المعنى) حيث يقول: "ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله."^(٢) ، وفي باب الفرق بين الحقيقة والمجاز يقول: "وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة، وهي: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه."^(٣)

ونجد هذا المصطلح في معرض حديثه عن ما يسمى بالتضمن، فقال: متى كان فعل من الأفعال في معنى فعل آخر، فكثيراً ما يُجرى أحدهما مجرى صاحبه، فيُعَدَّلُ في الاستعمال به إليه"^(٤)

ومن يبحث في التراث العربي عن مثل هذه الإشارات التي تشكل بدور فكرة العدول سيجد تلميحات وإشارات عديدة حوله، ولكننا نكتفي بما ذكرنا، لننتقل إلى النقاد والبلاغيين الذين أدركوا - منذ البداية - أن المستوى الفني لا يمكن أن يتحقق إلا بالعدول والخروج عما هو مألوف، ولعل ما جاء به هؤلاء النقاد - خاصة عبد القاهر الجرجاني - من جماليات في الأسلوب تتضمن التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية والتقديم والتأخير والحذف والإيجاز والإطناب وغيرها من قضايا البلاغة والنقد، هي إشارة كافية لتنبه القدماء لكل ما هو خارج عن المألوف، وإدراك تام للتفريق بين اللغة العادية واللغة الفنية، وفي هذا الشأن يشير عبد القاهر الجرجاني إلى أن "الكلام على ضربين:

ضربٌ أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، لكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل، أولاً ترى

(١) ديوان أبي نواس، دار صادر، بيروت، دط، دت، ص ٣٦٦

(٢) الخصائص، ابن جنى، تحقيق: محمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٧، (ص: ٣١٠)

(٣) الخصائص (ص: ٢٢٧)

(٤) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ابن جنى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٩٩٩م

أنتك إذا قلت: "هو كثير رماد القدر"، أوقلت: "طويل النجاد"، أوقلت في المرأة: "أنه مضياف، ومن "طويل النجاد" أنه طويل القامة، ومن "نؤوم الضحى" في المرأة أنها مترفة ومخدومة لها من يكيفها أمرها.

وكذا إذا قال: "رأيت أسدا"، وذلك الحال على أنه لم يُرد السبع، علمت أنه أراد التشبيه، إلا أنه بالغ فجعل الذي رآه لا يتميز عن الأسد في شجاعته" (١).

إنَّ عبد القاهر الجرجاني في النص السابق يفرِّق بين الكلام العادي (الذي تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده)، والكلام الذي فيه عدول وانزياح (الذي لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده لكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة)، وقوله: "ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض" يدلُّ على أنَّ المعنى ينزاح عن مدلوله اللفظي الكائن في دلالاته الظاهرة أو المباشرة (أي عن المعنى الأول)، إلى دلالة خفية غير مصرَّح بها (أي إلى المعنى الثاني = معنى المعنى)، وهكذا فإنَّ الجرجاني في حديثه عن المعاني وثوابي المعاني يقترب كثيرا من مفهوم الانزياح في الدراسات الأسلوبية المعاصرة.

ويمكن أيضا أن نستدل على مفهوم العدول عنده من خلال حديثه عن فاعلية الاستعارة المفيدة، في قوله: "فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جليلة، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعزَّ منها، ولا رونق لها ما لم تزنها، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون" (٢)، فالاستعارة المفيدة - في رأي عبد القاهر - صورة من صور الخروج عن المألوف، وانتظار اللامتظر، وتوقع اللامتوقع، وهي ضرب من ضروب الانزياح الصوري.

ومن أشهر المصطلحات في تراثنا البلاغي القريبة من العدول نجد **الالتفات** وخاصة في مفهومه الواسع والذي لا ينحصر فقط في الضمائر، وهو المقصود في تعريف العلوي " هو العدول من

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٢٦٢.

(٢) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني شرح وتعليق وتحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، وعبد العزيز شرف، دار الجيل،

بيروت، ط ١، ١٩٩١، ص ٥٥-٥٦

أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول، وهذا أحسن من قولنا: هو العدول من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة؛ لأن الأول يعم سائر الالتفاتات كلها" (١)

وأطلق النقاد والبلاغيون القدماء على الأساليب التي تخرج عن المؤلف عدّة مصطلحات تقترب من المصطلحات التي أطلقها المحدثون ليصفوا بها خروج المبدع على ما هو مألوف في استخدام العناصر اللغوية، ويكاد يكون "التوسّع" أو "الاتساع" من أكثر المصطلحات التي جاء بها القدماء للدلالة على كلّ استخدام ينزاح عن النمط التعبيري المألوف، ويتخطى ما جرت العادة على استعماله.

وهذا المصطلح ينطوي على مفهومين: أحدهما لفظي، يقوم على توسيع الوظيفة النحوية للظرف المتصرف بإجرائه مجرى الخبر والفاعل والمفعول به، والآخر معنوي، يقوم على إسناد الفعل إليه مجازاً للمبالغة في كثرة وقوع الفعل فيه، وبذلك يكون الاتساع أوسع دلالة عند اللغويين من مصطلح المجاز الذي أطلقه البلاغيون على أنواعه المعهودة في بحثهم (٢) فسيبويه أشار إلى هذا المفهوم مرات عديدة (٣)، وأما ابن جني فقد عالج معالجة مستفيضة، يقول في باب الفرق بين الحقيقة والمجاز: " وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة، وهي: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة" (٤)، ويسوق مثالا على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسَكَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِقُونَ ﴾ (٥)

ويقول: "إنّ في هذه الآية المعاني الثلاثة، أما الاتساع فلأنه استعمل لفظ السؤال مع ما لا يصح في الحقيقة سؤاله... ألا تراك تقول: وكم من قرية مسؤولة، وتقول: القرى وتساءلك؛ كقولك: أنت وشأنك. فهذا ونحوه اتساع" (٦).

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العصرية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

(٢/٧١)

(٢) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٠، ص ٤٠٧

(٣) الكتاب، سيبويه، (١/٢١١-٢١٢)

(٤) الخصائص، ابن جني ٤٤٤/٢

(٥) يوسف: ٨٢.

(٦) المصدر نفسه: ٤٤٩/٢

من خلال هذا المثال وأمثلة أخرى ذكرها في كتابه عن المجاز أرى أن مفهوم الاتساع عند ابن جني هو زيادة قدرة اللغة على التعبير عن الدقائق وإيحاءات جديدة، فنجد الألفاظ المفردة اكتسبت عن طريق المجاز دلالات جديدة من كثرة الاستعمال، لم تكن مرتبطة بها من قبل، فتنسى الحقيقة ويبقى اللفظ مستعملاً على مجازيه. وهذا ما عبر عنه ابن جني في موضع آخر بقوله: " فإذا كان كذلك علمت أن (قام زيد) مجاز لا حقيقة، وإنما هو على وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة وتشبيهه القليل بالكثير" (١).

أما ابن الأثير فقد ورد مصطلح التوسع عنده على ضربين، أحدهما يرد على وجه الإضافة واستعماله قبيح، لبعد ما بين المضاف والمضاف إليه، وأما الضرب الآخر من التوسع فإنه يرد على غير وجه الإضافة، وهو حسن لا عيب فيه، وقد ورد في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ تَرَى اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (٢)

فنسبة القول إلى السماء والأرض من باب التوسع لأنهما جماد، والنطق إنما هو للإنسان لا للجماد، ولا مشاركة هنا بين المنقول والمنقول إليه.... وعليه ورد قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه نظر إلى أحد يومًا فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه» فإضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع؛ إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذي هو جماد.

وعلى هذا ورد مخاطبة الطلول، ومساءلة الأحجار، كقول أبي تمام:

أَمِيدَانِ لَهْوِي مَنِ أَنْحَاكَ لَكَ الْبَلْبَى فَأَصْبَحْتَ مِيدَانَ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ " (٣)

وكذلك تحدث ابن رشيق عن الاتساع في كتابه العمدة وجعل له باباً يقول فيه: " وذلك أن يقول الشاعر بيتاً يتسع فيه التأويل؛ فيأتي كل واحد بمعنى، وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ، وقوته، واتساع المعنى" (٤)

(١) الخصائص (٢/ ٤٥٠).

(٢) فصلت: ١١.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت ١٩٩٥ م، (١/ ٣٥٠).

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة: الخامسة، الخامسة، ١٤٠١ هـ (٢/ ٩٣).

وإذا ما تفحص القارئ الأمثلة التي أوردها كل من ابن جني وابن الأثير وابن رشيق في حديثهم عن التوسع أو الاتساع فإنه يجد أنّ هذه الأمثلة والشواهد تنضوي تحت مفهوم (العدول) الذي شاع في الدراسات الأسلوبية الحديثة، ولذلك لم يجد بعض الباحثين المعاصرين حرجاً في أن يجعلوا مصطلح (الاتساع) دالاً على مفهوم الانزياح الذي تهتم به الدراسات النقدية الحديثة اهتماماً كبيراً، يقول توفيق الزيدي: " فإذا كانت اللسانيات قد أقرت أن لكلّ دال مدلوله فإنّ الأدب يخرق هذا القانون فيجعل للدال إمكانية تعدد دلالاته، وهو ما عبّر عنه الأسلوبيون بمصطلح الاتساع"^(١).

وإلى جانب هذا المصطلح الذي تردد في الموروث النقدي والبلاغي مصطلحات أخرى استخدمها القدماء للدلالة على مخالفة الاستعمال العادي للغة، والخروج عن الأنماط التعبيرية المتواضع عليها، ومن أبرز هذه المصطلحات التي تردت عند القدماء: العدول، والغرابة، والتغيير، والتخيل، والكذب، والتجوز، وإعمال الحيلة، ومنافرة العادة، والخروج على مقتضى الظاهر^(٢)، ويظهر أنّ هذه المصطلحات قد استوعبت بشكل أو بآخر مفهوم الانزياح الذي قامت عليه الدراسات الأسلوبية الحديثة، وهذا المفهوم ما هو إلاّ محاولة لتأويل ما عبّر عنه القدماء من عدول وغرابة وتغيير وتوسع، وغير ذلك من المصطلحات التي كشفت عن وعي النقاد والبلاغيين القدماء بأساليب الشعراء الذين كانوا يتجاوزون القواعد المألوفة، ويكسرون أنماط الاستخدام اللغوي المألوف.

بعد استقراء إرهاصات هذا المصطلح وبدور نشأته، يمكن القول إن مفهوم العدول ليس جديداً في العلوم العربية الحديثة ولا طارئاً على فنونها، وهذا الأمر يجعلنا نطرح السؤال التالي: ما الجديد الذي أضافه المحدثون لهذا المفهوم ليتسم بالحدثة وليصبح سمة ملازمة للنقد الحديث؟ إنّ ما جاء به المحدثون من توضيح للمصطلح بأنّه خرق لقانون اللغة وخروج عن المعيار، هو ما جاء به عبد القاهر الجرجاني وغيره من القدماء، والفرق بالتسمية من عدول واتساع إلى انزياح وانحراف ليس فرقا جوهرياً يمس صلب الموضوع، لكن يمكن القول إنّ المحدثين توسعوا في بحوثهم حول العدول وتناولوا هذا المصطلح بالدراسة والنقد بمنهجية أكثر تطوراً وأكثر اتساعاً وشمولاً مما عرفه القدماء.

(١) أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، توفيق الزيدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط١، ١٩٨٤، ص٨٦.

(٢) ينظر: الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، رابعة موسى، ص٥١.

٣- طرق وأنواع العدول:

للعدول طرق خاصة يتمُّ بها، وقد ميّز (تشو مسكي) بين انزياحات ناتجة عن خرق القواعد المقولية، أو القواعد التفرعية، أو القواعد الانتقائية، والجمل الناتجة عن خرق القواعد الانتقائية يمكنها أن تؤول استعاريا، وبعبارة أخرى يمكنها أن تؤول تبعا لقياس مباشر بالجمل السليمة التي تحترم قواعد الانتقاء، وبذلك تكون الجمل المنزاحة أو المنحرفة عند (تشو مسكي) ثلاثة أنماط، هي:

أ- خرق لمقولة معجمية، كالانتقال من الصفة إلى الاسم في مثل: (المظهر السياسي تعبير مباشر عن المظهر الاقتصادي)، التي تصبح (السياسي تعبير مباشر عن الاقتصادي)، أو الانتقال من الاسم إلى الصفة في مثل: (إنهم يتحدثون عن جمهورية شبح).

ب- خرق لسمة تفرعية، كالانتقال من الفعل اللازم إلى الفعل المتعدي في مثل: (اكتشف المرأة) التي تصبح (اكتشفت المرأة طفلها).

ج- خرق لسمة انتقائية، كالانتقال من المحسوس إلى المجرد في مثل: (لوثت النظريات الخاطئة فكر زيد، أو عاجل عمرو الأزمة الثقافية)^(١)

وتحدث الكثير من الباحثين عن أنواع الانزياح حتى أوصلها بعضهم إلى خمسة عشر انزياحا، وهذه الانزياحات يمكن تصنيفها إلى خمسة أنواع، هي:

١- الانزياحات الموضوعية والانزياحات الشاملة: يمكن تصنيف الانزياحات تبعا لدرجة انتشارها في النص كظواهر محلية موضوعية أو شاملة، فالانزياح الموضوعي يؤثر على جزء محدود من النسق و السياق، فالاستعارة -مثلا- يمكن أن توصف بأنها انزياح موضعي عن اللغة العادية، أما الانزياح الشامل فيؤثر على النص بأكمله، ومثاله معدلات التكرار الشديدة الارتفاع أو الانخفاض لوحدة معينة من النص، مما يعد انزياحا شاملا، ويمكن رصده بشكل عام عن طريق الإجراءات الإحصائية.

٢- الانزياحات السلبية و الإيجابية: وذلك تبعا لعلاقتها بنظام القواعد اللغوية،

(١) ينظر: التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم، محمد غاليم، دار توبقال للنشر، الدر البيضاء، ط١، ١٩٨٧، ص ٦٠-٦١

حيث نعثر على إنزياحات سلبية تتمثل في تخصيص القاعدة العامة وقصرها على بعض الحالات، كما توجد انزياحات إيجابية تتمثل في إضافة قيود معينة إلى ما هو قائم بالفعل، وفي الحالة الأولى تنجم تأثيرات شعرية نظرا للاعتداء على القواعد اللغوية، وفي الحالة الثانية تنجم التأثيرات نظرا لإدخال شروط وقيود على النص، كما هو الحال في القافية والروي مثلا.

٣- الإنزياحات الداخلية والانزياحات الخارجية: يمكن تصنيف الانزياحات من وجهة النظر التي تعتمد على العلاقة بين القاعدة والنص المراد تحليله إلى انزياحات داخلية وانزياحات خارجية، فالانزياح الداخلي يظهر عندما تنفصل وحدة لغوية ذات انتشار محدود عن القاعدة المسيطرة على النص في جملة، والانزياح الخارجي يظهر عندما يختلف أسلوب النص عن القاعدة الموجودة في اللغة المدروسة.

٤- الانزياحات الخطية (السياقية)، والصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية، والدلالية: وذلك تبعا للمستوى الذي تعتمد عليه.

٥- الانزياحات التركيبية والاستبدالية: وذلك تبعا لتأثيرها على مبدأي الاختيار والتركيب في الوحدات اللغوية، فالانزياحات التركيبية تتصل بالسلسلة السياقية الخطية للإشارات اللغوية عندما تخرج عن قواعد النظم والتركيب، مثل الاختلاف في ترتيب الكلمات، أما الانزياحات الاستبدالية وتكون (صرفية، نحوية، أو معجمية...) فتخرج عن قواعد الاختيار للرموز اللغوية، مثل وضع المفرد مكان الجمع، أو الصفة مكان الموصوف، أو اللفظ الغريب بدل اللفظ المألوف.^(١)

إنّ هذه الأشكال التي قدّمها الباحثون للانزياح لم تكن عناصر يمكن قبولها دون اعتراض، لأنّ الانزياح يمكن أن يكون مفهوماً واسعاً بحيث يمكن قبولها دون اعتراض، لأنّ الانزياح يمكن أن يكون مفهوماً واسعاً بحيث يمكن القول إنّ اللغة الشعرية هي الانزياح عن اللغة العادية أو عن لغة النشر، و بالمثل فإنّ مفهوم الانزياح يمكن أن يكون ضيقاً مقتصرًا على المجازات وبعض الإجراءات الأسلوبية المتعلقة بالبلاغة، من مثل الاستعارة والتقديم والتأخير والحذف وغيرها، ولكن هل كل النصوص الأدبية استعارات أو تقديمًا أو تأخيراً أو حذفًا، إنّ هذه الإجراءات أو الظواهر الأسلوبية تأتي

(١) ينظر: علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥، ص١٥٥-

بصورة أو بأخرى في النصوص الأدبية، لكن ليس النص الأدبي كـله استعارة أو تقدما أو تأخيرا أو حذفاً وغير ذلك من الإجراءات الأسلوبية، لذلك فإن مواجهة الانزياحات في نص من النصوص تعني التركيز على عناصر دون العناصر الأخرى.^(١)

٤- وظيفة العدول:

يتبين لنا مما مضى أنّ للغة مستويين: الأول عادي مثالي، والثاني أدبي منزاح، والمستوى الأول يناسب النحاة وعلماء اللغة ومن هذا حذوهم، أمّا المستوى المنزاح فقد رأى فيه البلاغيون جمالا نسييا وعدوه من متطلبات السياق اللغوي، وجعلوا من المستوى الأول معيارا يقيسون به مقدار انزياح المستوى الفني، لأنّ " التركيب اللغوي في أدائه الفني قد ينزاح عن النمط التقليدي بأنّ يتضمن بعض الملامح التي ينفرد بها عمّا سواه، ولا ينبغي أن ننظر إلى تلك الانزياحات على أنّها رخص شعرية أو ابتداع فردي، وإنما هي في الواقع نتاج براعة استخدام المادة اللغوية المتوفرة، وتوظيفها الذكي للإمكانات الكامنة في اللغة"^(٢)، وقد يكون هذا الانزياح اختياريا يلجأ إليه المنشئ لمقاصد ودلالات فنية وجمالية يهدف إليها كالإثارة الذهنية، أو التشويق العقلي، أولفت الانتباه، أو التأكيد أو غير ذلك من الأهداف التي يسعى إليها الكاتب، وقد يكون -أي الانزياح- اضطراريا للمحافظة على قافية أو وزن، كما يفعل الشاعر حينما تدفعه المحافظة على الميزان الشعري إلى أن يسلك دروبا يباح له فيها ما لا يباح للناثر.

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إنّ الدافع إلى الانزياح نفسي بحت، وبمعنى آخر إنّ وظيفة الانزياح تتمثل بـ (المفاجأة) التي يشعر بها المتلقي، فإذا كان الانزياح يشكّل ما يسمى (الخاصية الأسلوبية) التي هي نوع من أنواع الخروج على الاستعمال العادي للغة بحيث ينأى الشاعر أو الكاتب عمّا تفتضيه المعايير المقررة في الاستخدام اللغوي، فإنّ "قيمة كل خاصية أسلوبية تتناسب مع حدّة المفاجأة التي تحدثها تناسبا طرديا بحيث إنّها كلما كانت غير منتظرة كان وقعها في نفس المتلقي أعمق"^(٣)، فالعدول-إذن- يستمد أهميته من كونه يحدث هزة سماعية وإشارة غير متوقعة عند المتلقي، فالمتلقي هو من يوجّه إليه النص، وهو الذي يحكم على قيمته وأهميته، ولذلك أولته

(١) ينظر، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، رابعة موسى، ص ٣٦-٣٧

(٢) البحث الأسلوبي "معاصرة وتراث". رجا عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، ١٩٩٣، ص ١٤٨

(٣) الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي ص ٨٦.

المناهج النقدية الحديثة عناية خاصة، بل أدخلته ضمن دائرة الإبداع، ولعل مقولة (موت المؤلف) دليل واضح على مدى الاهتمام بالملتقي.

ولعل الجاحظ (٢٥٥هـ) كان سباقاً إلى ملامسة وظيفة العدول من خلال حديثه عن أهمية الخروج على المؤلف، وما ينتج هذا الخروج من الطرافة والمفاجأة والدهشة، لأن تعلق الناس بالغريب والخارج على المؤلف مركز في طباعهم، ويقول في هذا المعنى: "إنّ الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبعد... والناس موكلون بتعظيم الغريب، واستطراف البعيد، وليس لهم في الموجود الرّاهن، وفيما تحت قدرتهم من الرّأي والهوى، مثل الذي لهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذ... ولذلك قدّم بعض الناس الخارجي على العريق، والطارف على التّليد"^(١)، ولا مرأى في أنّ ظهور الشيء من غير معدنه - في هذا النص - يعد انزياحاً من شأن وقوعه أن يولّد المفاجأة والدهشة والعجب في نفس الملتقي.

ونجد في نص آخر ورد عند أبي حيان التوحيدي (٤٠٠هـ) أنّ العدول أمرٌ ليس للنفس عنه غنى، إذ إنّ النفس كلفة بالتجدد مولعة به، فقد سأل أبو حيان صديقه ابن مسكويه (٤٢١ هـ) عن سبب كراهية النفس الحديث المعاد، فكان جواب مسكويه " أنّ الحديث للنفس الغذاء للبدن، فإعادته عليها بمنزلة إعادة الغذاء لجسم اكتفى منه"^(٢)، ويقع في هذا المضمار رأي لابن وكيع في سبب تفضيل المتنبّي على سواه من الشعراء، حيث قال: " والنفوس مولعة بالاستبدال، والنقل لهجة بالاستطراف والملل ولكل جديد لذة فلما كان شعره أجدّ فيهم عهداً كانوا له أشدّ ودّاً"^(٣)، ولذا فإنّ التغيير والتجدد حاجة مستقرة في النفس البشرية التي من شأنها أن تمل وتضجر من الأشياء المكرّرة والمألوفة، بل إنّ المعاد المكرّر لما يناقضها أشدّ التناقض، وهذه حقيقة نفسية من شأنها أن تزيد من قيمة العدول وقيمة ما يؤدّيه.

(١) البيان والتبيين أبو عمرو الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ، (١/٩٣).

(٢) الهوامل والشوامل، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين، والسيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١، ص ٣٣١

(٣) المنصف للسارق والمسروق منه، الحسن بن وكيع حقه وقدم له: عمر خليفة بن ادريس، جامعة قات يونس، بنغازي

الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م (ص: ٩٩)

وتتجلى معالم العدول ووظيفته عند حازم القرطاجني (٦٨٤هـ) الذي نجد عنده من الكلام ما يعاضد ما مضى وربما زاد عليه، فهو حين يأتي على المقارنة بين قسمين من التشبيه: قسم متداول بين الناس، وآخر يقال: إنه مخترع، نجده يقول عن الثاني: "هذا أشدّ تحريكا للنفوس إذا قدرنا تساوي قوة التخيل في المعنيين، لأنه أنست بالمعتاد فرمّا قلّ تأثيرها له، وغير المعتاد يفاجئها بما لم يكن به لها استئناس قط، فيزعجها [أي يدفعها] إلى الانفعال بديها بالميل إلى الشيء والانقياد إليه، أو النفرة عنه والاستعصاء عليه"^(١). فحازم - في هذا النص - يعزو للمفاجأة أهمّ ما يحصل للمتلقّي من توتر وانفعال، وميل إلى الشيء أو نفرة عنه، فهو بذلك مُدرك أنّ المفاجأة إنما يحدثها وقوع غير المعتاد، وهو ما يسمى عند الأسلوبيين (الانزياح)، ولكن حازما لم يتعد عن هذا المفهوم إذ سمّاه (غير المعتاد).

إنّ هذه الملاحظات النقدية التي نجدها عند النقاد والبلاغيين القدماء لا تختلف في مؤداها عمّا هو معروف لدى الأسلوبيين المحدثين من وظيفة الانزياح، فقد أدركت معظم المناهج النقدية الحديثة مدى ما للمفاجأة من أثر، فراحت تركز على العناصر التي من شأنها أن تولّد المفاجأة، ولعلّها وجدت في مفهوم الانزياح مصدرا هاما لتلك العناصر، ولذلك يمكن القول إنّ الوظيفة الرئيسية التي أكثرت الدراسات الأسلوبية من نسبتها إلى الانزياح، إنما هي (المفاجأة)^(٢).

ولكن لو سألنا أنفسنا: لم هذه المفاجأة؟ وما وظيفتها؟ فإننا نجد الجواب ماثلا عند ريفاتير الذي رأى أنّ الانزياح حيلة مقصودة لجذب انتباه القارئ^(٣)، وفي نفس الفكرة قال شكري عياد: "والكتابة الفنية تتطلب من الكاتب أن يفاجئ قارئه من حين إلى حين بعبارة تثير انتباهه حتى لا تفتر حماسه لمتابعة القراءة أو يفوته معنى يحرص الكاتب على إبلاغه إياه، وفي هذا تختلف الكتابة الفنية عن الاستعمال العادي للغة"^(٤). ثم يخلص شكري عياد من هذا إلى محاولة تحليل كثرة الانزياحات في الأدب المكتوب عنها في الأدب الشفوي، فيرى أنّ الانزياح في الأدب المكتوب هو الوسيلة الوحيدة لجذب انتباه القارئ، أمّا في الأدب الشفوي فهو وسيلة واحدة بين وسائل عدّة،

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦، ص. ٩٦.

(٢) ينظر، الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية، أحمد ويس، ص ١٧٩.

(٣) ينظر: اللغة والإبداع، مبادئ علم الأسلوب العربي، عياد شكري، أنترناشونال برس، القاهرة، ط ١، ١٩٨٨، ص ٧٩.

(٤) نفسه، ص ٨١.

ولعل هذا يفسّر لم كانت الآداب القديمة - التي هي إلى التراث الشفوي- يقل فيها الانزياح بالقياس إلى الآداب الحديثة التي أصبحت تعتمد على وسيلة الكتابة

فمن الواضح أنّ غاية الانزياح تتمثل في لفت الانتباه، ومفاجأة القارئ أو السامع بشيء جديد، والحرص على عدم تسرب الملل إليه.

ومن الأهداف الأخرى التي يسعى الكاتب لتحقيقها عند لجوئه إلى الانزياح (البعد الجمالي) في الأدب الذي قد لا يتحقق إلا عن طريق الانزياح، ومن ذلك الضروريات الشعرية التي يلجأ إليها الشاعر، والواقع أنّ محاولة تصوّر الأسلوب كانزياح عن القاعدة الموجودة خارج النص، وابتعاد متعمّد من المؤلّف لتحقيق أغراض جمالية هو أمر مقبول، ولا يمكن إنكار حقيقة أنّ هذا التصور يساعدنا على شرح كثير من الظواهر اللافتة للنظر في النصوص الأدبية، ولعلّ هذا يتضح أكثر في الحالات التي يرتطم فيها المؤلّف بجدار الاستعمال اللغوي العادي، ويخرج عليه، تلك الحالات التي كانت تعدّ منذ القدم درجة من درجات الحرية الخلاقة أو الضرورية الشعرية التي يستيحيها لنفسه الشاعر الكبير، وهو على ثقة من أنّها لن تعدّ عجزاً أو قصوراً، بل استثماراً مشروعاً لإمكانات خارجة على نطاق التعبير العادي المألوف، وتفجيراً لدرجة عليا من الشعر لا يتأتى الوصول إليها بشكل آخر^(١).

ويرى سبيتزر أنّ أيّ انزياح لغوي عن نموذج الكلام الجاري في الاستعمال ليس إلاّ تعبيراً موازياً للإثارة النفسية المنزاحة عن المألوف في حياتنا النفسية، ولهذا يستطيع الإنسان أن يجلس بمركز العواطف في النفس من خلال الانزياح اللغوي عن النموذج المعياري، لأنّ التعبير اللغوي المعين إنّما هو مرآة تعكس خاصية نفسية معينة^(٢)، ومن هذا المنطلق يبدو لنا أنّ التأكيدات المختلفة على أهمية مراقبة الانزياحات تأتي من القناعة بكونها ظاهرة أسلوبية نستطيع من خلالها معرفة ما يشتمل عليه النص الأدبي من دلالات وجدانية ومشاعر نفسية خبيئة.

هذه - إذن- غايات الانزياح فهي في معظمها نفسية جمالية، تهدف إلى شد انتباه المتلقي وإثارته، وإضافة صورة إيجابية إضافية على الموضوع تعبّر عن مواطن جمالية خفية في النص، لا

(١) ينظر: الأسلوبية منهجا نقديا، محمد عزام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، (د.ط)، ١٩٨٩، ص٥٣-٥٤.

(٢) ينظر: الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، السيد شفيق، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٦، ص١٠٣.

يدركها إلا المختص، زيادة على المعاني المعجمية المألوفة الظاهرة، وهذه الوظيفة الانفعالية التي تثيرها اللغة الأدبية بانزياحها عن النسق المثالي المؤلف تُحدث ما يسمى عند رولان بارت بـ "لذة النص"، وتسمى عند القدامى بالارتياح والاهتزاز والطرب.

والجدير بالذكر أنّ النقاد يتفاوتون في نظرهم إلى قيم الانزياح، ففريق منهم يكبر من قيمة الانزياح الجمالية، ويطالب بأن يتعدى الانزياح البنية السطحية إلى البنية العميقة، كما في الاستعارات والكنيات، من مثل (وجه السماء متجهم) حيث أسند التجهم إلى ما لا يعقل، وهذا الانزياح هو سر الشعاعية، بينما يتحرر نقاد آخرون من هذا الانزياح يكون أكثر قبولا في نفس القارئ إذا جاء عفو الخاطر دون تكلف، شأنه في ذلك شأن ألوان البديع.

إضافة إلى ما تقدّم يظهر أنّ هناك احتراسا ينبغي على المرء أن يأخذه بعين الاعتبار، وهذا الاحتراس متمثل في أنّ ليس كل انزياح يظهر قيمة فنية تكشف عن قدرة على الإبداع والخلق، فهناك انزياحات ليس لها قيمة كبيرة من الناحية الفنية، ولذلك فالحذر مستوجب، لأنّ ليس كل انزياح عن النمط المؤلف أو القاعدة الأساسية ينبثق منه إبداع فني، فاللغة في خامتها الأولى تمثل الجدار الخلفي الذي يستند إليه أي استعمال، وعليه تتشكل مكونات الانزياح من غير مفارقة لهذا الجدار، وليس باللازم أن يكون اختلاف البنية الأدائية عميقة أو سطحية ذا دلالة فنية، يضاف إلى ذلك أنّ التشكيل الفني في استخدامه اللغة القياسية قد يتفوق على بنيات تنهج نهجا مباينا^(١)، وعلى هذا الأساس فليس كل انزياح يعزّز شعرية النص ويسمو به فوق ما هو عادي، إذ إنّ بعض الانزياحات مخادعة وتوهم القارئ، لأنها لا تحمل أيّ دلالة فنية أو جمالية.

وعلى الرغم من هذه المآخذ التي أخذت على الانزياح، إلا أنّه ينبغي ألاّ نقلل من قيمة هذه الظاهرة ودورها الفاعل في دراسة النص الأدبي، " إذ إنّ رصد ظواهر الانزياح في النص يمكن أن تعين على قراءته استبطانيه جوانية تبعد عن القراءة السطحية والهامشية، وبهذا تكون ظاهرة الانزياح ذات أبعاد دلالية وإيحائية تثير الدهشة والمفاجأة، ولذلك يصبح حضوره في النص قادرا على جعل لغته متوهجة ومثيرة، تستطيع أن تمارس سلطة على القارئ من خلال عنصر المفاجأة والغرابة"^(٢)

(١) ، ينظر: البحث الأسلوبي، رجاء عيد ص ١٥٠.

(٢) الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ربابعة موسى ص ٥٨.

٥- معيار العدول:

واجه الباحثون في دراسة العدول إشكالية أساسية تتمثل في تحديد طبيعة المعيار الذي يحدث عنه العدول، فثمة تساؤل يبرز عند الحديث عن العدول يتمثل في كيفية تحديد المستوى العادي للغة الذي يحدث عنه هذا الانزياح، ومن المعلوم أنّ أولئك الذين تكلموا في الانزياح حاولوا تحديد الواقع اللغوي الأصلي قبل حدوث العدول، واستعملوا للدلالة عليه مصطلحات مختلفة ولكنها متقاربة، نذكر منها: القاعدة، والمعيار، والاستعمال الدارج، والاستعمال المألوف، واللغة العادية، والدرجة الصفر، وغيرها.

ويبدو أنّ تحديد معيار العدول لم يكن أمراً سهلاً، وإذا صحّ ما قاله الأسلوبيون من أنّ الانزياح هو أخص ما في الأسلوب من خصائص فإنّ المشكلة تكمن في أنّ هؤلاء لم يتفوقوا على معيار لهذا الانزياح، والنظر في الدراسات الأسلوبية يقف على محاولات متعددة لإيجاد مثل هذا المعيار، ولكن الأسلوبين راحوا يبحثون عن المعيار أكثر ما يبحثون في اللغة العادية أو اليومية التي تندرج فيما أطلق عليه رولان بارت "درجة الصفر في الكتابة"^(١)، وهي صفة تطلق على اللغة العادية ذات الوظيفة التوصيلية والإبلاغية، التي تدل فيها كلّ كلمة على ما وضعت له في أصل اللغة، وهي دلالة حرفية معجمية ثابتة لا تحمل أيّ ملامح الفنية والأسلوبية ولا تحمل أكثر من مدلول، فهي تقدم المعنى بطريقة مباشرة، تبتعد اللغة عن أي تأويل، ومن ثمّ فقد يصح اتخاذها قاعدة عامة يقاس عليها الانزياح.

ولم يتوقف الأمر في تحديد عنصر الانزياح عند هذا الحد بل ذهب بعضهم إلى تحديد معيار الانزياح من خلال التفريق بين اللغة الشعرية واللغة النثرية، وقد تجلّى هذا الأمر بصورة واضحة عند جان كوهن الذي يقول: "وبما أنّ النثر هو المستوى اللغوي السائد، فإننا يمكن أن نتخذ منه المستوى العادي ونجعل الشعر مجاوزة تقاس درجته إلى هذا المعيار"^(٢)، ويبدو أنّ هذا الرأي غير دقيق لأنّ هناك انزياحات يمكن أن تظهر في لغة الأجناس الأدبية الأخرى، فالانزياح لم يعد خاصاً بلغة الشعر، إذ إنّ مظاهر الانزياح من استعارة ومجاز وكناية وحذف وتقديم وتأخير وغيرها قد تتجلّى في الأعمال النثرية، وبشكل ضئيل ونسبي يوحي بأن الحد الفاصل بين ما هو شعري وغير

(١) ينظر: الكتابة في درجة الصفر، بارت رولان ترجمة: نعيم الحمصي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٠، (د.ط)، ص ٢٨.

(٢) بنية اللغة الشعرية، كوهن ص ٢٣.

شعري عنصر غير مستقر .

وهناك مقاييس أخرى تكشف عن العدول في النص الأدبي فقد يكشف عنه باعتماد الحس اللغوي عند المتلقين، ولكن بهذا المقياس يصبح معيار الانزياح مطلقا وغير محدد لأن المتلقين مختلفون في أذواقهم وفهمهم للانزياح، يقول شكري عياد: " ونحن ندرك من أول وهلة أنّ القارئ يمكن أن يستوقفه تعبير ما يخيل إليه أنه خارج على المؤلف لدرجة كافية ليعده انحرافا، ومن ثم يرى فيه سمة أسلوبية قوية يستدل بها على شعور الكاتب، أو على المعنى الذي يريد أن يثبتته في ذهن المتلقي، مع أنّ قارئاً آخر أو قارئاً آخرين يمكن أن لا يتفقوا معه في ذلك، فبديهي أنّ كل قارئ يتأثر بطبيعته ومزاجه، ولا سيما إذا كان ثمة اختلاف بين عصر الكاتب وعصر القارئ لهذا شدّد سببترز على صفات الأمانة والإخلاص والصبر في الدارس الأسلوبى الذي ينبغي بطبيعة الحال أن يكون خبيراً باللغة التي يقرأها، ومدرباً على هذا النوع من القراءة، حتى لا يزيّف مواضع الاهتمام في النص " (١)، كما أن القارئ البعيد عن موضوع النص المدروس يشعر بالانزياح أكثر من القارئ المختص بموضوع النص، ولذلك يجب على القارئ أن يعرف أين ينتهي المعيار، وأين يبدأ الانزياح، ولأي شيء يكون القياس، فالقارئ الذي لا عهد له بعرف أدبي معيّن ليكن على سبيل المثال، قارئاً للقصة أو الرواية يدخل عالم الشعر الحديث، أو قارئاً ألف أسلوب المدرسة الواقعية يشرع في قراءة الرمزيين، مثل هذا القارئ تبدو له الانزياحات أكثر كثيراً مما هي في الواقع، لأن ما يراه جديداً أو غريباً راجع معظمه إلى الخواص المشتركة لهذه المدرسة، ولذلك فلا بدّ من أن يضيق حدود المقارنة، فلا يكتفي بالمقارنة بين النص الذي يقرأه وبين اللغة القياسية، أو بينه وبين لغة الأدب عموماً، بل يجب أن يقارن بين شعراء المدرسة الواحدة، أو بين كتّاب الفن الواحد، حتى تتبيّن له جهات التفرد والأصالة التي تميّز كاتباً عن كاتب (٢)، وعليه فإنّ القراء يتفاوتون في فهمهم للانزياح وتقديره، بل لعل القارئ نفسه يختلف تقديره للانزياح من نص إلى آخر.

وقد يحدّد الانزياح من داخل النص، وذلك بأن نعدّ النص الأدبي نفسه هو المعيار الذي يقاس إليه الانزياح، فقد لجأ (ريفاتير) إلى معيار آخر يكمل به معيار القارئ العمدة سمّاه (السياق) يلتمس من داخل النص، ويقوم على العلاقة الركنية المتبادلة بين السياق والمسلك الأسلوبى،

(١) اللغة والإبداع، عياد ص ٨٣.

(٢) نفسه، ص ٨٩.

يكتسب هذه الصفة قياساً إلى سياق معين، ومثال ذلك أنّ الجملة القصيرة في سياق من الحمل الطويلة تعدّ مسلماً أسلوبياً وكذلك العكس، ومادام المسلك الأسلوبى يقوم على مخالفة التوقع لإثارة انتباه المتلقي، فإنّ كل كسر متعمّد للسياق هو مسلك أسلوبى^(١)، ومعنى ذلك أنّ بنية النص من حيث العبارات والتراكيب تبرز هي نفسها مستويين اثنين: أحدهما يمثل النسيج الطبعى، وثانيهما يزدوج معه ويمثل مقدار الخروج عليه أو الانزياح عنه.

وهناك بعض الباحثين من وجد في البنية العميقة والبنية السطحية مقياساً موضوعياً لتعيين الانزياحات، " فمعظم الحمل لها بنيتان: بنية سطحية أو ظاهرية وأخرى تحتية أو عميقة. وللتمييز بين هاتين البنيتين قيمة من حيث المعنى، تظهر عند المقارنة بين هاتين الجملتين: " عقاب الله تطهير " و " عقاب المذنب تأديب " فالبنية الظاهرية واحدة في كليهما - أي أنّ كل واحدة منهما تحتوي على مبتدأ ومضاف إليه وخبر - ولكن البنية العميقة توضح أنّ لفظ الجلالة في الجملة الأولى هو فاعل العقاب، و " المذنب " في الثانية هومن وقع عليه العقاب " ^(٢)، أمّا عن العلاقة بين الانزياح وهاتين البنيتين، فإنّها تتجلى في مدى التباعد والتغاير بين البنيتين، بحيث كلما ازداد التباعد ازداد الانزياح وضوحاً في النص، ويخف هذا الانزياح بمقدار ما تزداد نسبة التطابق بينهما.

أما البلاغيون فاقْتبسوا من النحو العربى معياراً " يقيسون عليه العدول، وهو أن الأصل في كل جملة أن يكون لها ركنان أساسيان: (مسند ومسند إليه) والأصل فيهما أن يكونا مذكورين ظاهرين لا محذوفين ولا مضمّرين، وأخذوا بأصول متعلقة بالرتبة مثل: الأصل في الكلام، الرتبة المحفوظة.... والأصل في المسند إليه أن يتقدم والمسند أن يتأخر. وأصل الجملة الاسمية الثبوت والجملة الفعلية التجدد وهكذا.

وأطلقوا على هذا الأصل عدة تسميات مثل: الاستعمال الأصولى وأصل الوضع ومقتضى الظاهر وغير ذلك، وأطلقوا على الخروج عليه: العدول عن أصل القاعدة أو أصل الوضع (٣).

وإذا كانت هذه الأمور قد أكدت حرص النحاة واللغويين على مثالية اللغة في مستواها العادى - وهو المستوى الذي يعينهم الاشتغال به ورعايته - فإنّ النقاد والبلاغيين - وهم المعنيون باللغة

(١) ينظر: الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربى الحديث، إبراهيم عبد الجواد، وزارة الثقافة، عمان، ط١، ١٩٩٦. ص١١٧.

(٢) ينظر، اللغة والإبداع، شكرى عياد ص٥٣.

(٣) ينظر: البيان في روائع القرآن، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ص٣٤٧.

الفنية - قد حرصوا على العكس من النحاة واللغويين - على تأكيد صفة مخالفة لا بد من تحققها في الاستخدام الفني للغة، هذه الصفة هي المغايرة أو الانزياح - على نحو معين- عن القواعد والمعايير التي تحكم اللغة العادية، أي أن النقاد والبلاغيين لا يلتفتون إلى ما يحرص عليه النحاة واللغويون من إبراز الكلام في صورة مثالية، تلتزم بالقواعد في صرامة ودقة، بل إنهم يسرون في اتجاه آخر يقوم على تجاوز هذه المثالية و الانزياحية عنها في الأداء والاستعمال.

غير أن هذا لا يعني انصراف النقاد والبلاغيين أو جهلهم بمثالية المستوى العادي من اللغة الذي أقامه النحاة واللغويون، بل إن هذا المستوى لم يغب عن أذهانهم لحظة واحدة، لسبب بسيط هو أنهم جعلوا منه مرآة ينعكس عليها انزياح المستوى الفني، ومعياراً يقيسون إليه مقدار هذا الانزياح، ومن هنا كان وعيهم به وحرصهم على تبيينه والتذكير به والتنبيه إليه في مثل قولهم: " أصل المعنى " و"رعاية للأصل"، لكن اعتدادهم بهذا الأصل لا يتجاوز مجرد الإشارة إليه لأنه يخلو- في نظرهم- من أي قيمة فنية، فإذا كان النحوي يهتم بما يفيد أصل المعنى، فإن البلاغي يبدأ منطقة حركته فيما يلي هذه الإفادة من عناصر جمالية^(١)، ولذلك فقد دارت مباحث علم المعاني في كثير من جوانبها حول العدول عن النمط المؤلف على حسب مفهوم أهل اللغة وتقاليدهم في صناعة الكلام، وهذا العدول يمثل الطاقات الإيحائية في الأسلوب.

ومن هنا يمكن القول إن معرفة أصل المعنى تبدو مهمة بالنسبة للبلاغي في ظل الكلام عن الكيفيات التي يطابق بها اللفظ مقتضى الحال، لأنه من خلالها يستطيع أن يكشف عن المزايا الفنية في التركيب، ويستطيع أن يحدد مواطن الصواب أو الخطأ البلاغي، وفق ما تمليه نظرية مطابقة الكلام لمقتضى الحال^(٢).

وفي دراستنا هذه اخترنا العدول الخاص بالبناء اللغوي والشكل الأسلوبي لتراكيب الجملة، لذلك سنقتصر في دراستنا على لغة النص وعلى علم المعاني لأن صور العدول فيه يمكن تحديد الأصل الذي تم العدول عنه بصورة شبه قاطعة، ولهذا نجد أن العدول "كان محوراً رئيساً في الكثير من مباحث علم المعاني ومنبهاً أسلوبياً في بنيتها لقيمتها التعبيرية ودقته في الأداء اللغوي كما في: التقديم

(١) ينظر: نظرية اللغة في النقد العربي، راضي عبد الحكيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٢١١.

(٢) مقياس البلاغة بين الأدباء والعلماء، صالح خلف الربيعي، سلسلة بحوث اللغة العربية، السعودية، ١٩٩٦ م ص ٥٨٣

والتأخير، والتعريف والتنكير، والذكر والحذف، والوصل والفصل والإيجاز والإطناب...^(١)

ومهما يكن من أمر، فإنّ الباحثين الأسلوبيين قد بذلوا جهوداً كبيرة في البحث عن المعيار الذي يتحدّد به الانزياح، وذلك من منظور قائم على أنّ مقولة الانزياح تفترض أصلاً مسبقاً استقرار ورسخ في اللغة ليكون هو المقياس الذي يتحدّد به الانزياح، وتعرف به درجته، وعلى الرغم من ذلك فإنّ كلّ ما مرّ بنا من معايير ما هي إلاّ منطلقات عامة وغير نهائية يستأنس الباحث الأسلوبي بها في تبيان الانزياح، إذ إنّ الانزياح يقوم على المفاجأة والتحول وعدم الثبات، ومن البديهي أن يعجز معيار واحد في تعيينه دائماً، ولا مناص إذن من أن تتعاور مختلف المعايير في ذلك، وحسبما تفتضيه تركيبية النص وملاساته.

(١) ينظر البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ص ٧

٦- العدول والنص القرآني:

إن العرب أمة جبلت على ذكاء القرائح و فطنة الأفهام، فعلى دعامة فطنتهم وذكائهم أقيمت أساليب كلامهم ، وبخاصة كلام بلغائهم ، ولذلك كان الإيجاز عمود بلاغتهم لاعتماد المتكلمين على أفهام السامعين، وملاك ذلك كله توفير المعاني ، وأداء ما في نفس المتكلم بأوضح عبارة وأخصرها ليسهل التصاقها بالأذهان ؛ و كان القرآن وحيا من الحق سبحانه وتعالى، وقد أراد أن يجعله آية على صدق رسوله وتحدى بلغاء العرب بمعارضة أقصر سورة منه ، فقد نسج نظمه نسجا بالغا منتهى ما تسمح به اللغة العربية من الدقائق واللطائف لفظا ومعنى بما يفني بأقصى ما يراد بلاغة إلى المرسل إليهم .

فجاء القرآن على أسلوب أبدع مما كانوا يعهدون وأعجب ، فأعجز بلغاء المعاندين عن معارضته ولم يسعهم إلا الإذعان ، سواء في ذلك من آمن منهم مثل لبيد ابن ربيعة وكعب ابن زهير ، ومن استمر على كفره عنادا مثل الوليد بن المغيرة ، فلئن جاء القرآن الكريم بلغة عربية مبينة فإنه لم يأت بها موافقة تمام الموافقة لما عليه العرب، بل كانت له طريقة جديدة في استعمال اللغة استعمالا يخرج بها كثيرا عما هي عليه عندهم، فهي كما يقول مالك بن نبي (١٣٩٣هـ) وكأما قد استحضر ثروته اللفظية الخاصة، وأنشأها إنشاء بطريقة فجائية وغريبة"^(١)، تقتضيها طبيعة الرسالة الإسلامية، وفي هذا يقول في موطن آخر " لقد كان حتما على القرآن - إذا ما أراد أن يدخل في اللغة العربية فكرته الدينية ومفاهيمه التوحيدية - أن يتجاوز الحدود التقليدية للأدب الجاهلي، والحق أنه قد أحدث انقلابا هائلا في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير: فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظمة في موضع البيت الموزون، وجاء من ناحية أخرى بفكرة جديدة أدخل بها مفاهيم وموضوعات جديدة لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد"^(٢).

ويظهر لنا من قول مالك ابن النبي أنّ عدول القرآن كان في الأداة اللغوية الفنية، وفي الفكرة الجديدة، وبهذا حدث الانقلاب الهائل في الأدب العربي الذي كان الشعر عماده، فإذا جاز اعتبار الشعر - في عمومه- انزياحا عن لغة الحديث فإنّ القرآن الكريم انزياح على الانزياح.

(١) الظاهرة القرآنية، مالك ابن النبي، دار الفكر - دمشق سورية الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ، ص ١٩١.

(٢) نفسه، ص ١٩٢.

والناظر في الدراسات القرآنية يلمس إشارات متعددة إلى خروج النص القرآني وانزياحه عمّا هو مألوف، فإذا كان العدول أو الخروج عن المألوف قد حظى باهتمام رجال البلاغة والنقد، فكان هو الفيصل بين المستوى الفني وغير الفني من الكلام، فإنه قد لقي رواجاً واحتل مكانة بارزة في كتب الإعجاز والدراسات القرآنية منذ وقت مبكر، ولعل أول إشارة إلى انزياح النص القرآني وخروجه عمّا هو مألوف وردت في كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة (٢١٠هـ)، حيث قال: " ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر، ومجاز ما حذف، ومجاز ما كفّ عن خبره، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين،.... ومجاز المقدم والمؤخر" ^(١)، إلا أن مفهوم المجاز فيه بقي عاماً تتحدد به مدلولات متعددة في النص نفسه أوضحها وأكثرها استعمالاً يُوافق ما جاء عند خلفه ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) عندما عرّف المجاز قائلاً: "وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول وما أخذها" ^(٢).

فهو يقصد بالمجاز العدول عمّا ألفه الناس من أساليب التعبير وأنماط الصياغة، والاتجاه إلى أساليب وعادات لم تجر بها الأنماط اللغوية، مما يكسب الكلام مزية من غيره، وصلت في القرآن الكريم إلى مستوى الإعجاز، وعلى أساس هذا العدول أو الانتقال من تعبير قريب إلى تعبير بعيد غير معهود لغير العربي الأصيل، يرى أبو عبيدة أنّ في أسلوب القرآن مجازاً، وانتقالاً على طريقة العرب في الانتقال، والرخصة في التعبير.

ومن ملامح العدول التي يمكن أن نجدها في كتابه أيضاً نجد عدم التناسب بين العدد والمعدود يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّاتِ حَمَلُهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ ^(٣) " والعرب إذا بدأت بالأسماء قبل الفعل جعلت أفعالها على العدد فهذا المستعمل، وقد يجوز أن يكون الفعل على لفظ الواحد كأنه مقدم ومؤخر، كقولك: وتفيض أعينهم، كما قال [الأعشى]:

(١) مجاز القرآن، أبو عبيدة، علق عليه: محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨١، ١/١٨/١٩
 (٢) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان (ص: ٢٢)
 (٣) التوبة: ٩٢.

فَإِنْ تَعَهَّدِينِي وَلِي لِمَّةٌ فَإِنَّ الْحَوَادِثَ أودى بِهَا

و وجه الكلام أن يقول : أو دين بها ، فلما توسع للقافية جاز على التّكس ، كأنه قال : فإنه أودى الحوادث بها. ^(١)

فكتاب " مجاز القرآن " لأبي عبيدة من أول القراءات المميزة للنص القرآني، إنّه قراءة جديدة تتماشى والطرق التعبيرية لهذا النص، وقد تنبه القدماء إلى هذا، وقد اعتنى به تفسيراً وتأويلاً، ولخدمة هذا الهدف، فإنّه كان حريصاً على الكشف عمّا في الآيات القرآنية من تشبيه واستعارة وكناية وتقديم وتأخير وحذف وتكرار، للوصول إلى الانزياحات المميزة للنص القرآني، فمجاز القرآن جاء ليحسّد هذه الخاصية الأسلوبية وليقف على مستويات هذه السمة في نماذج متعددة من الآيات القرآنية، ولعل هذا الموقف هو الذي فتح آفاق هذه المعالجة، التي تلقفها الدارسون فيما بعد - وخاصة البلاغيون- ليطوروا هذا المبحث بالإسهام النظري، وبالإجراء التطبيقي.

ويرى أحمد غالب أن أول محاولة منهجية لجمع أنواع العدول في النص القرآني، ودراستها في باب واحد يجمع شتاتها، وتحت مصطلح واحد يجمع سماتها العامة، جاءت في كتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة (٢٧٦هـ) حيث خصّص لها باباً عنوانه " باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ^(٢) " تحدّث فيه عن المعاني السياقية لبعض الأساليب الإنشائية، والجزاء عن الفعل بمثل لفظه والمعنيان مختلفان(المشكلة)، والعام يراد به الخاص، والجمع يراد به الواحد و الاثنان، والواحد يراد به الجمع، ووصف الجمع بصفة واحدة، ووصف الواحد بصفة الجمع، واجتماع الشئيين فيجعل الفعل لأحدهما، ومخاطبة الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب (الالتفات في الضمير)، وأمر الواحد والاثنين والثلاثة فما فوق بأمر الاثنين(الالتفات في الزمن)، ومجيء المفعول به على لفظ الفاعل، وفعيل بمعنى مفعول، وفعيل يراد به فاعل، والفاعل على لفظ المفعول به وغيرها من المباحث، ودراسة ابن قتيبة لهذه الأساليب دراسة مهمة لسببين، الأول: تصريحه بأنّ هذه الأساليب تحالف مقتضى الظاهر، أي أنّ البنية العميقة في تلك التشكيلات البلاغية تحالف البنية السطحية الظاهرة، والثاني: إيراد أمثلة من النص القرآني على هذه الفنون العدولية مما يؤكد لنا انزياح لغة

^(١) مجاز القرآن . (١/ ٢٦٧)

^(٢) أسلوبية الانزياح في النص القرآني، أحمد غالب الخرشة، الأكاديميون للنشر ، عمان، الاردن، ط١، ٢٠١٤، ص ٤٥

القرآن عن اللغة المألوفة والمتعارف عليها.

إنّ انزياح النص القرآني وخروجه عن المألوف من كلام العرب هو المقياس المشترك بين كل من تحدثوا عن نظم القرآن وإعجازه، فمثلا الرماني (٣٨٦هـ) يتخذ منه دليلا على تفوق القرآن الكريم على جميع ضروب الكلام، ويطلق عليه **نقض العادة**، ويقول: "وأما نقض العادة، فإنّ العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام المعروفة، منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل، ومنها المثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة من الحسن تفوق به كلّ طريقة"^(١)، فالقرآن الكريم على هذا يعدّ ضربا من ضروب الكلام، لكنه يختص بدرجة رفيعة من الحسن لا توجد في غيره من ضروب الكلام الأخرى، وتلك الدرجة من الحسن هي مظهر كونه ناقضا للعادة، متجاوزا لها، بالغا بحسنه وبيانه درجة الإعجاز.

أمّا الباقلاني (٤٠٣هـ) فقد كان من الموقنين كثيرا في الوقوف عند مستويات العدول في هذا النص الذي كان سببا في ظهور الدراسات العربية التي كانت تهدف إلى تمرين الألسنة على قراءته، والعقول على التمعّن والتدبّر في أسمى معانيه، ومن هنا أراد هذا الناقد أن يبين عن هذا الأسلوب المنفرد الفذ، الذي جاء في نظم كلامي خارج المعهود من كلام العرب، ومباين للمألوف منه، يقول: "إنّ نظم القرآن على تصرّف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميّز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.... وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميّز حاصل في جميعه"^(٢)، وإذا كان ذلك حقا- وهولا ريب كذلك - فما الجديد الذي جاء به النص القرآني حتى وصف بهذا الوصف؟ لقد استخدم هذا النص أساليب فنية جديدة للربط بين المفردات والتراكيب، وإنتاج دلالات جديدة تتماشى وأغراضه الإعجازية، ولذلك ذهب الباقلاني إلى التأكيد على أنّ العدول القرآني لا يكمن -مثلا- في مجرد توظيف الاستعارة والكنائية، لأنها تشكل انزياحا في حد ذاتها، ولكن في تلك

(١) النكت في إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، أبو الحسن الرماني، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨، ص١١١.

(٢) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب المحقق: السيد أحمد صقر، دار المعارف - مصر، ط الخامسة، ١٩٩٧م ص٣٥.

الطريقة الفدّة التي وظّفت بها في النص القرآني، ووجودها في المكان المناسب، ومدى قدرتها على إيصال المعنى دونما تكلف.

وفي العصر الحديث نجد المفسر رشيد رضا (١٣٥٤هـ) قد ساق كلاما طويلا يوضح فيه تفاوت القرآن الكريم عن كلام العرب في لغتهم وأدبهم، والذي يتمحور حول أسلوبه ونظمه.

جاء فيه: "القرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة في الطول والقصر، من السبع الطول التي تزيد السورة فيه على المائة وعلى المائتين من الآيات، إلى السور المثني، إلى الوسطى من المفصل، إلى ما دونها من العشرات فالآحاد كالثلاث الآيات فما فوقها، وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتلحين، المعين على الفهم المفيد للتأثير، على اختلافها في الفواصل، وتفاوت آياتها في الطول والقصر... وهي على ما فيها متشابه وغير متشابه في النظم، متشابهة كلها في مزج المعاني العالية بعضها ببعض، من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، وآياته في الأنفس والآفاق، والحكم والمواعظ والأمثال، وبيان البعث والمآل...." (١)

لكن كلام المفسر هنا يدفعنا إلى التساؤل: إن أساليب جميع الفصحاء والبلغاء متفاوتة كذلك، لا يشبه أسلوب منها أسلوبا، ولا يستويان منظوما ولا منشورا، فمجرد اختلاف الأسلوب والنظم لا يصح أن يعد معجزا.

ويجيب رشيد رضا عن مثل هذا التساؤل بقوله: "فمهما تختلف منظومات الشعراء فلن تعدو بحور الشعر المنقولة عن المتقدمين، والتوشیحات والأزجال المعروفة عند المولدين، ومهما تختلف خطب الخطباء والمترسلين من الكتاب والمؤلفين في العلوم والشرائع والآداب فلن تعدو أنواع الكلام الأربعة التي بدأنا القول بها، ولا يشبه شيء من هذه ولا تلك نظم سورة من سور القرآن ولا أكثرها، ولكل منهم نظم وأسلوب خاص" (٢)

يفهم من كلام صاحب تفسير المنار أن الأغراض والأوزان الشعرية عند الأدباء متفاوتة لكنها متفق عليها، ومعروفة عندهم كالممدح والهجاء والنسيب والفخر... وأوزان شعرهم كالطويل والبسيط والكامل... كل هذا لا يقارن بنظم سورة من سور القرآن الكريم.

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م (١/ ١٦٦)

(٢) تفسير المنار، (١/ ١٦٦)

ثم يحيلنا رشيد رضا إلى طريقة يمكن بها تذوق الفرق بين نظم الكلام البشري ونظم الكلام الإلهي بضرب مثال عن ذلك يعتمد فيه على الحس الذوقي والأثر النفسي الذي يتركهما في وجدان المتلقي، والمثال الذي أورده هو الاستعانة بقارئ حسن الصوت يسمع بعض أشعار المفلقين، وخطب المصاقع المفوهين، المتقدمين والمتأخرين، بكل ما يستطيع من نغم وتحسين، ثم يتلوا عليك بعد ذلك بعض سور القرآن المختلفة النظم والأسلوب كسورة النجم أو القمر - مثلا - ثم حكم ذوقك ووجدانك في الفرق بينها في أنفسها... وتحكم بهذا الضرب من الإعجاز حكما ضروريا وجدانيا لا تستطيع أن تدفعه عن نفسك، وإن عجزت عن بيانه بقولك. (١)

كما نبه في تفسيره إلى ظاهرة لغوية جاءت في النص القرآني وهي أسلوب القطع ومخالفة النسق الإعرابي، والذي نلمس فيه مفهوم وشروط العدول من حيث خروج هذا الأسلوب عن النمط المعياري المتعارف عليه، ومن حيث الوظيفة المتمثلة في جلب الانتباه والمفاجأة، ومن حيث الفائدة الجمالية والدلالية التي يوقعها، فعند حديثه عن نصب كلمة المقيمين في قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ (٢)

يقول: "والتقدير: أعني أو أخص المقيمين الصلاة منهم الذين يؤدونها على وجه الكمال، فإنهم أجدر المؤمنين بالرسوخ في الإيمان، والنصب على المدح أو العناية لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة، والنكتة هنا ما ذكرنا آنفا من مزية الصلاة، وكون إقامتها آية كمال الإيمان. على أن تغيير الإعراب في كلمة بين أمثالها ينبه الذهن إلى التأمل فيها، ويهدي الفكر إلى استخراج مزيتها، وهو من أركان البلاغة، ونظيره في النطق أن يغير المتكلم جرس صوته وكيفية أدائه للكلمة التي يريد تنبيه المخاطب لها؛ كرفع الصوت أو خفضه أو مده بها" (٣)

ولا بد من التنبيه - في هذا المقام - إلى أن الإعجازيين ومفسري القرآن بقدر ما كانوا حريصين على تأكيد صفة التميّز في أسلوب القرآن وانزياحه عن المؤلف، بقدر ما كانوا حريصين - أيضا -

(١) ينظر: تفسير المنار، ج ١ / ص ١٦٧

(٢) النساء: ١٦٢.

(٣) تفسير المنار، (٦/ ٥٣)

على تأكيد التزام القرآن الكريم بقواعد العربية وسننها في الكلام، وقد تجلّى ذلك في كلّ ما من شأنه أن يكون غريبا خارجا عن العادة خروجا قد يشجّع على الظن بأنّ القرآن الكريم ليس من العربية في شيء، فبذل المفسرون - وهم من أعلم الناس باللغة العربية - جهودا كبيرة لربط الصلة بين ما بدا - في أسلوب القرآن - غريبا، وبين أساليب العرب في مخاطبتهم، واستشهدوا عليه من واقع اللغة بأشعار العرب وأمثالهم وأقوالهم وقواعد لغتهم حتى يثبتوا بذلك عربية القرآن، وهذه الشواهد نجدها بغزارة في التفاسير القرآنية.

ويقودنا هذا الحديث إلى طرح السؤال الآتي: كيف يمكن التوفيق بين القول بإعجاز القرآن وبين القول بجريانه على أساليب العربية؟ وبعبارة أخرى كيف يمكن تصوّر أسلوب القرآن جاريا على سنن العربية - أي مع النمط المثالي - مع وصفه بالبلاغة التي تعني - وفقا لنظرتهم - الانزياح عن هذه السنن؟

وعلى الرغم من أنّ هذا السؤال يحمل شيئا من التناقض، فإننا نستطيع القول إنّه لا تناقض على الإطلاق، فعبارة القرآن جارية على أساليب العربية، وهي بليغة ومعجزة وخارجة عن المؤلف، بشرط أن نفهم أنّ المقصود بالخروج عن المؤلف أو العدول هو القدرة على استخدام المفردات والتراكيب استخداما مميزا وجديدا ولكنه يتناسب وقوانين اللغة العربية، فنظم القرآن نظم مخصوص داخل دائرة الفصاحة العربية، وهذا دليل على إعجازه وأنه من عند الله، " فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت أن القرآن لم يتميز ببلاغة إلا لأنّ قائله هو الله سبحانه وتعالى، مادته ليست من جنس أعلى من مادة البشر، بل هي من جنس كلام البشر الحروف هي الحروف، والكلمات هي التي تنطقون بها هي نفس الكلمات المستخدمة"^(١).

ورأيت لابن عاشور كلاما يجيب فيه على مثل هذا التساؤل، في قوله: "وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجع إلى:

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيد أصل وضع

(١) ينظر: معجزة القرآن، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، مصر، ص ٤٢.

اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.
 الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة" (١).
 إن في لغة القرآن الكريم قدرة فريدة في وضع وتشكيل مفردات وتراكيب اللغة العربية متناسبة مع قوانينها وقواعدها لمقاصد ودلالات مختلفة يؤديها قد تكون إبلاغية أو تكون جمالية حسب المقام الذي ترد فيه، وهذه قدرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم، ومن جهة أخرى لما فيه من فنون جديدة ومبتكرة لم تكن معهودة في أساليب العرب.

٧- صور العدول عند الألويسي:

من أكثر المصطلحات التي استخدمها الألويسي في تفسيره للدلالة على الانزياح، نجد مصطلح **العدول**، كما أتى ببعض المصطلحات القريبة منه، مثل الانحراف يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٢) قال الألويسي: " أتى بالفعل ماضياً وانحرف عن ذلك عند ذكر الغضب إلى الغيبة تأدباً ولأن من طلب منه الهداية ونسب الإنعام إليه (٣)."

كما لم يفرق بين العدول والالتفات واستعملهما في موضع واحد، نحو ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤) الضمير للناس والعدول عن الخطاب إلى الغيبة للتنبيه على أنهم لفرط جهلهم وحمقهم ليسوا أهلاً للخطاب بل ينبغي أن يصرف عنهم إلى من يعقله (٥)

وعن وظيفة العدول يقول الألويسي: " أن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعاني وصرفه عن سننه

(١) التحرير والتنوير (١ / ١٠٤).

(٢) الفاتحة: ٧.

(٣) روح المعاني (١ / ٩٩).

(٤) البقرة: ١٧٠.

(٥) روح المعاني (١ / ٤٣٨).

المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع" (١) فالعدول كإجراء لغوي بلاغي يستخدم لإبراز الاهتمام بالقضية المطروحة كما يحرك رغبة السامع في الاهتمام بالنص باعتبار أن التلقي يحمل في جوانبه نشاطا عاطفيا يتمثل أحيانا في تشوق المتلقي أو حبه لقضية ما أو كرهه لها ولا شك أن هذا الجانب جزء مهم في شخصية الإنسان يراعيها النص القرآني، ويمكن القول أيضا أن المبدأ الذي طرحه الألوسي يمثل بيانا للعلاقة بين قضيتين أسلوبيتين مختلفتين هما العدول والتلقي إذ اعتبر التلقي الحسن هدفا للعدول ونتيجة له.

تعددت صور وأنماط العدول في النص القرآني، ومن خلال قراءتنا لتفسير الألوسي، يمكن حصرها في ثلاثة صور وهي:

• العدول الدلالي:

من الملاحظ في النص القرآني تعبيره عن بعض معانيه بطريقة غير مباشرة، إذ نجده يريد إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، بل يلجأ إلى لفظ آخر موضوع لمعنى آخر، ولكنه تابع للمعنى الذي يريده، فيعبر بهذا اللفظ عما يريد، لعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المراد، وهذه الطريقة التي يوظفها النص القرآني في التعبير عن المعاني تندرج تحت ما يسمى بالانزياح الدلالي الذي يعني الانتقال من المعنى الأساسي أو المعجمي للفظة إلى المعنى السياقي التي تأخذ الكلمة حينما توضع في سياق معين يحدد معنى الجملة بأكملها، حيث تنزاح الدوال عن مدلولاتها فتختفي -نتيجة لذلك - الدلالات المألوفة للألفاظ لتحل مكانها دلالات جديدة غير معهودة يسعى إليها المتكلم.

معنى هذا أن العدول الدلالي يقوم على استبدال المعنى الحقيقي أو السطحي للفظة بالمعنى المجازي العميق، حيث يتم الانتقال من المعنى الثاني، أو كما يقول جان كوهن " من المعنى المفهومي إلى المعنى الانفعالي" (٢) ، ومن أهم صورته:

(١) روح المعاني . (٩ / ٣٩١)

(٢) بنية اللغة الشعرية، ص ٢٠٥

* العدول من كلمة إلى أخرى:

تشارك بعض الألفاظ في معنى أساسي عام، ثم ينفرد كل لفظ ببعض الخصوصيات التعبيرية أو الطاقات الإيحائية التي تحول دون اتفاهه التام مع غيره من الألفاظ، فنجد طرفا العدول في هذا المجال هما لفظان يشتركان فيما يطلق عليه الدلالة المعجمية.

نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرٌ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾^(١) أي براشد أو بذى رشد، والرشد ضد الغي وإسناده إلى الأمر مجازي وكأن في العدول عن وأمر فرعون غي وضلال إلى ما في النظم الكريم زيادة في تقييح فعلهم وتحسيراً لهم على فوات ما فيه صلاح الدارين أعني الرشد^(٢).

والمقصود أن أمر فرعون سغه وضلال إذ لا واسطة بين الرشد والسفه. ولكن عدل عن وصف أمره بالسفيه إلى نفي الرشد عنه تجهيلاً للذين اتبعوا أمره وتقيحاً لفعلهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ جُؤَاهُمْ إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٣)

ولعل نكتة العدول عن يأمر إلى ﴿ يَفْعَلْ ﴾ حينئذ الإشارة إلى أن التسبب لفعل الغير الصدقة والإصلاح والمعروف بأي وجه كان كاف في ترتب الثواب، ولا يتوقف ذلك على اللفظ^(٤)

ففي هذه الآية عبر عن الأمر بالفعل، وهذا لفائدة اقتضاها النظم القرآني بينها الألوسي في تفسيره.

* العدول من حرف إلى آخر:

نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَةَ فَلُوْبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرْمِينَ ﴾^(٥)

(١) هود : ٩٧

(٢) روح المعاني (٦ / ٣٢٨).

(٣) النساء: ١١٤.

(٤) روح المعاني. (٣ / ١٤٠).

(٥) التوبة: ٦٠

جاء في تفسيره: "والعدول عن اللام إلى ﴿ في ﴾ في الأربعة الأخيرة على ما قال الزمخشري للإيدان بأنهم أرسخ في استحقاق الصدقة ممن سبق ذكره لما أن ﴿ في ﴾ للظرفية المنبئة عن إحاطتهم بها وكوئهم محلها ومركزها وعليه فاللام مجرد الاختصاص^(١)

• العدول التركيبي:

وهو ما يتعلق بتركيب اللفظة مع جاراتها في السياق الذي ترد فيه، وقد تنبه النقاد القدماء إلى قيمة هذا الجانب الأسلوبي في باب التطبيق النقدي، إذ أعلى عبد القاهر الجرجاني من قيمة التركيب في معرض حديثه عن الكلمة حيث قال: "أعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض" (٢).

وبهذا الإدراك للمستوى التركيبي يتجاوز الجرجاني حدود اللفظة المفردة، بل يكاد لا يعطيها من الأهمية إلا بمقدار دورها في خلق النظم، ذلك أن اللفظة لا تتميز بحسن ذاتي، وإنما يتحقق لها لك من خلال التركيب.

والمتكلم حين يخرج من الحدود المعيارية المطردة ويلجأ إلى العدول التركيبي فإنه يسعى إلى أن يحقق هدفا دلاليا، لا يستطيع أن ينجزه من خلال الحدود المعيارية التي وضعها المتحدثون باللغة، فتلك الحدود تحقق المستوى النفعي في حين أن الخروج إلى ما هو هامشي أو ثانوي أو استثنائي يحقق الوظيفة الإبداعية، وقد التفت الدارسون المحدثون إلى هذا البعد إذ يرى سامح الرواشدة "أن الانزياح التركيبي لا يكسر قوانين اللغة المعيارية لبحث عن قوانين بديلة، ولكنه يخرق القانون باعتناؤه بما يعد استثناء أو نادرا فيه" (٣).

وقد التفت الألوسي إلى هذا البعد قبل هؤلاء وذلك من خلال تطبيقاته وتحليلاته في تفسيره، وإدراكه للفروق بين اللغة المعيارية العادية واللغة الإبداعية وما تحمله من زخم من المعاني والدلالات، وتمثلت صور هذا الانزياح في عدة مباحث بلاغية منها:

(١) روح المعاني. (٥ / ٣١٤).

(٢) دلائل الإعجاز (١ / ٨٧)

(٣) فضاءات الشعرية "دراسة في ديوان أمل دنقل"، سامح الرواشدة، المركز القومي للنشر، إربد، الأردن، ط ١، ١٩٩٩م،

* الفصل في موضع الوصل:

نحو قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (١) يقول: "وفصل الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عما قبله استئنافاً لأن التسلية السابقة حركت منه صلى الله عليه وسلم بأن يسأل فإذا بماذا أجيبهم وما يكون قولي لهم؟ فقيل قل لهم الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم إلخ" (٢)

جاءت الجملة الثانية جواباً عن سؤال فهم من الجملة الأولى في الآية التي سبقتها، وهذا ما يعرف بالاستئناف البياني وهو أحد صور الوصل وفيه إغناء للسامع عن تكلف السؤال، وإعمال لفطنته وإغناء لعقله في تقدير السؤال وربط الكلام، بالإضافة إلى ما في هذا الأسلوب من الإيجاز والاختصار، ومواضع هذا الضرب كثيرة في القرآن الكريم.

* مخالفة القاعدة النحوية:

وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ (٣)

جاء في تفسيره: "وتقييد الأجر بقوله تعالى: ﴿ لَهُمْ ﴾ ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ من التأكيد والتشريف ما لا يخفى وكان مقتضى الظاهر أن يدخل الفاء في حيز الموصول لتضمنه معنى الشرط كما في قولك: الذي يأتيني فله درهم لكنه عدل عن ذلك إيهاماً بأن هؤلاء المنفقين مستحقون للأجر لذواتهم وما ركز في نفوسهم من نية الخير لا لوصف الإنفاق فإن الاستحقاق به استحقاق وصفي، وفيه ترغيب دقيق لا يهتدي إليه إلا بتوفيق" (٤)

ومعنى هذا أن عند ذكر (الفاء) نجد دلالة على أن الإنفاق به استحقاق الأجر، ولكنها طرحت في النظم القرآني ليعبر عن دلالة أخرى وهي كون استحقاق الأجر جاء لذواتهم.

(١) الفرقان: ٣٤

(٢) روح المعاني (١٠ / ١٨).

(٣) البقرة: ٢٦٢.

(٤) روح المعاني (٢ / ٣٤).

* العدول عن تركيب مفترض إلى ما في النظم الكريم:

يورد الألوسي في تفسيره تراكيب ذات معنى مفترض (وغالبا ما تكون تراكيب مباشرة) وما جاء في النظم الكريم لتقريب المعنى وللموازنة بينهما ولبيان الصور البلاغية التي تتحقق من خلال العدول عن هذا الأصل.

نحو ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ (١)

والمعنى "فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق متحافياً عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم وسوء معاملتكم، وإنما أوتر ما في النظم الكريم دون فإن وهبن لكم شيئاً منه عن طيب نفس إيداناً بأن العمدة في الأمر طيب النفس وتحافياً عن الموهوب بالمرّة حيث جعل ذلك مبتدأً وركناً من الكلام لا فضلة كما في التركيب المفروض." (٢)

وازن الألوسي بين كلام وتركيب مفترض والذي يمكن وضعه في خانة المستوى العادي التي تندرج فيما أطلق عليه رولان بارت "درجة الصفر في الكتابة" (٣) المتمثل في قوله: فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق متحافياً عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم وسوء معاملتكم، وبين ما جاء في النظم الكريم، ومن خلال هذا الشاهد القرآني وغيره يتبين لنا مدى إدراك الألوسي بمثالية المستوى العادي من اللغة الذي أقامه النحاة واللغويون، بل إن هذا المستوى لم يغب عن ذهنه، لسبب بسيط هو أنه جعل منه مرآة ينعكس عليها انزياح المستوى الفني، ومعياراً يقيس به مقدار هذا الانزياح، ومن هنا كان وعيه به وحرصه على تبيينه والتذكير به والتنبيه إليه في مثل قوله: (أصل المعنى) و(التركيب المفروض) و(مقتضى الظاهر)، لكن اعتداده بهذا الأصل يتجاوز مجرد الإشارة إليه لأنه يخلو- في نظره- من أي قيمة فنية، بل من خلال هذه التراكيب يستطيع أن يكشف عن المزايا الفنية والجمالية في التركيب.

مثال آخر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُمْ مِّن

(١) النساء: ٤٤

(٢) روح المعاني. (٢/٤٠٩).

(٣) ينظر: الكتابة في درجة الصفر، بارت رولان ترجمة: نعيم الحمصي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٠، (د.ط)، ص ٢٨.

دِيرِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴿١﴾

قال: " وكان مقتضى الظاهر، ثم أنتم بعد ذلك التوكيد في الميثاق نقضتم العهد فتقتلون أنفسكم الخ أي صفتكم الآن غير الصفة التي كنتم عليها، لكن أدخل (هؤلاء) وأوقع خبراً ليفيد أن الذي تغير هو الذات نفسها نعيماً عليهم لشدة وكادت الميثاق ثم تساهلهم فيه وتغيير الذات فهم من وضع اسم الإشارة الموضوع للذات موضع الصفة لا من جعل ذات واحد في خطاب واحد مخاطباً وغائباً، وإلا لفهم ذلك من نحو ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٥] " (٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٣)

قال الألوسي: " وفي مقارنة هذا الشرط مع الشرط السابق الدلالة على أن المهاجر له إحدى الحسينين إما أن يرغب أنف أعداء الله ويذلهم بسبب مفارقتهم واتصالهم بالخير والسعة ، وإما أن يدركه الموت ويصل إلى السعادة الحقيقية والنعيم الدائم ، وفي الآية ما لا يخفى من المبالغة في الترغيب فقد قيل : كان مقتضى الظاهر ومن يهاجر إلى الله ورسوله ويمت يشبه إلا أنه اختير (وَمَنْ يُخْرِجُ * مهاجراً * مِنْ بَيْتِهِ) على ومن يهاجر لما أشرنا إليه آنفاً ، ووضع ﴿ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ ﴾ موضع يمت إشعاراً بمزيد الرضا من الله تعالى ، وأن الموت كالهدي منه سبحانه له لأنه سبب للوصول إلى النعيم المقيم الذي لا ينال إلا بالموت ، وحيء بتم بدل الواو تميمياً لهذه الدقيقة ، وأن مرتبة الخروج دون هذه المرتبة ، وأقيم ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ مقام يشبه لما أنه مؤذن باللزوم والثبوت ، وأن الأجر عظيم لا يقادر قدره ولا يكتنه كنهه لأنه على الذات الأقدس المسمى بذلك الاسم الجامع (٤).

ويمكن توضيح المستوى العادي والذي ذكره الألوسي والمستوى الفني والمتمثل في النظم القرآني

(١) البقرة: ٨٥

(٢) روح المعاني . (١/ ٣١١).

(٣) النساء: ١٠٠

(٤) روح المعاني . (٣/ ١٢٤).

وجمالياته من خلال الجدول التالي:

النمط العادي	النمط الفني	الدلالة الوظيفية
ومن يهاجر إلى الله ورسوله ويمت يثبه	(وَمَنْ يُخْرِجْ * مهاجراً * مِنْ بَيْنِهِ)	ويصل إلى السعادة الحقيقية والنعيم الدائم
يمت	﴿ يَذْرُؤُ الْمَوْتُ ﴾	الموت كالهديّة منه سبحانه له لأنه سبب للوصول إلى النعيم المقيم الذي لا ينال إلا بالموت
الواو	ثم	تتميماً لهذه الدقيقة
يثبه	﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾	مؤذن باللزوم والثبوت، وأن الأجر عظيم لا يقادر قدره ولا يكتنه كنهه لأنه على الذات الأقدس

* وضع المظهر موضع المضمّر وعكسه:

لحظ البلاغيون أن دراسة وضع المظهر موضع المضمّر وعكسه، تتصل بباب المسند إليه؛ لأنها من أحواله، فألحقوها به كما لحظوا أن أساليبها مما لا تجري على مقتضى المقررات المتعارفة، وإنما هي ضروب من المخالفة، فترجموا لها بخروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر. (١)

كقوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا

(١) ينظر: خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة الطبعة: السابعة، دت. (ص:

تُخَسِّرُوا الْمِيزَانَ ﴿١﴾ ﴿١﴾

وكرر لفظ ﴿ الْمِيزَانَ ﴾ ﴿١﴾ بدون إضماره كما هو مقتضى الظاهر تشديداً للتوصية وتأكيذاً للأمر باستعماله والحث عليه، بل في الجمل الثلاث تكرر ما معنى لذلك (٢)

الأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة، وأنه إذا ذكر الاسم ثانياً أن يُذكر مضمراً؛ للاستغناء عنه بالظاهر السابق، لكن في هذه الآية كرر لفظ الميزان لفائدة ووظيفة يستدعيها السياق.

* العدول من الضمير إلى اسم الإشارة:

كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً ﴾ (٣) الإشارة إلى السماوات والأرض لما أنهما باعتبار تعلق الخلق بهما في معنى المخلوق، أو إلى الخلق على تقدير كونه بمعنى المخلوق، وقيل: إليهما باعتبار المتفكر فيه وعلى كل فأمر الإفراد والتذكير واضح والعدول عن الضمير إلى اسم الإشارة للإشارة إلى أنها مخلوقات عجيبة يجب أن يعنى بكمال تمييزها استعظاماً لها (٤)

كان مقتضى الظاهر في غير القرآن أن يأتي الضمير في موضع اسم الإشارة، فيكون التركيب كالنحو التالي (ربنا ما خلقتكما باطلا) ، لكن عدل إلى اسم الإشارة لعظمة خلق السماوات والأرض.

* العدول عن الإيجاز إلى الإطناب:

كقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَلْقَوْنَ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٥﴾ وسلك طريق الإطناب لأن هذا الاستدراك زيادة على الجواب إذ قوله: ﴿ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ ﴾ كان كافياً فيه فيكون من الأسلوب الحكيم الوارد على التخلص إلى الدعوة على وجه الترجيح المعنوي لأنه بدأ بالدعوة إلى إثبات التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى فلما أراد إثبات الرسالة لم يتمكن لما اعترضوا عليه من قولهم: ﴿ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٦﴾ فانتهاز الفرصة وأدمج مقصوده في الجواب

(١) الرحمن: ٧-٩.

(٢) ينظر: روح المعاني (١٤ / ١٠٢).

(٣) آل عمران: ١٩١

(٤) روح المعاني .. (٢ / ٣٧٠).

(٥) الأعراف: ٦١.

على أحسن وجه حيث أخرجه مخرج الملائفة والكلام المنصف يعني دعوا نسبة الضلال إلى وانظروا ما هو أهم لكم من متابعة ناصحكم وأمينكم ورسول رب العالمين ألا ترى أن صالحاً عليه السلام لما لم يعترضوا عليه عقب بإثبات الرسالة إثبات التوحيد؛ ففي هذه الآية خمسة من أنواع البديع فإذا اقتضى المقام هذا الإطناب كان الاختصار على العبارة الموجزة تقصيراً انتهى^(١).

كان يمكن أن يوجز ويكتفي بقوله: {قال يا قوم ليس بي ضلالة}، لكن استدرك بقوله {ولكني رسول من رب العالمين} لما فيه من انتفاء عن الضلالة، " لكونه رسولاً من الله مبلغاً رسالاته ناصحاً، في معنى كونه على الصراط المستقيم، فصحّ لذلك أن يكون استدراكاً^(٢)

* العدول عن الأفراد إلى الجمع:

بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا نَدَامَةً لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ وَأَسْرُوا ﴿ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس، والعدول إلى صيغة الجمع لإفادة تهويل الخطب بكون الإسرار بطريق المعية والاجتماع، وإيثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على الشخص أو لتغليب ذكور مدلوله على إناثه^(٣)

وكجمع السماوات وإفراد الأرض في آيات كثيرة، إذ جمع لنكتة سوغت العدول عن ذلك الأصل، وهي الإشارة إلى تفاوتهما في الشرف فجمع الأشرف اعتناءً بسائر أفراده وأفرد غير الأشرف. (٤)

* أسلوب الحكيم:

عرفه القزويني: "هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهم له" (٥)

(١) روح المعاني . (٤ / ٣٨٩).

(٢) ينظر: الكشاف (٢ / ١٠٨).

(٣) روح المعاني . (٦ / ١٣٠).

(٤) روح المعاني . (٤ / ٧٧).

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة، الإمام الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت،

١٩٩٨ (ص: ٧٦)

وله مواضع عديدة منها قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ

فَأَنْتَظِرُونَ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٥١﴾ ^(١)

جاء في تفسيره: " وهو جواب على ما قرره الطيبي على الأسلوب الحكيم فإنهم حين طلبوا ما طلبوا مع وجود الآيات المتكاثرة دل على أن سؤالهم للتعنت ... فأجيبوا بما أجيبوا ليؤذن بأن سؤالهم سؤال المقترحين يستحقون به نعمة الله تعالى وحلول عقابه ، يعني أنه لا بد أن يستأصل شأفتكم لكن لا أعلم متى يكون وأنتم كذلك لأن ذلك من الغيب وهو مختص به تعالى لا يعلمه أحد غيره جل شأنه وإذا كان كذلك فانتظروا ما يوجبه اقتراحكم إني معكم من المنتظرين إياه" ^(٢)

أسلوب الحكيم في هذه الآية يتجلى في الجواب الذي تلقاه هؤلاء الكفار والتي جاءت بغير ما يطلبون وما يتوقعون، ولم يكتف النظم الكريم بقوله (إنما الغيب لله) بل كانت هناك في الإجابة في قوله: (فانتظروا...) وهي أيضا جملة من أسلوب الحكيم أي: انتظروا ما يفعل الله بكم، وما سيحل بكم من العذاب جزاء تعنتكم وعنادكم وجحودكم للآيات.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ

﴿٥٢﴾ ^(٣)

جاء في تفسيره: "فكان مقتضى الظاهر أن يقال: بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل لكن عدل إلى ما يشعر بتكذيبهم ليكون أهول وفي التقرير أدخل، وهو وارد على الأسلوب الحكيم" ^(٤).

فمقتضى الظاهر في الجواب العادي حين الإجابة عن سؤالهم: من بعثنا؟ أن يقال لهم: الذي بعثكم هو الله، ولكن عدل عن ذلك الجواب بطريق الأسلوب الحكيم، فأجيبوا بخلاف مرادهم وبغير ما يتطلبون، وبهذا صرف الجواب عما يطلبون فلم يجابوا عن الذي بعثهم، وإنما أجيبوا عن البعث ذاته الذي توعدهم الله به.

^(١) يونس: ٢٠.

^(٢) روح المعاني (٦ / ٨٨)

^(٣) يس: ٥٢

^(٤) روح المعاني. (١٢ / ٣٢).

• العدول الصرفي:

إن المتأمل في مباحث علم الصرف يجد أن فكرة العدول واضحة أتم الوضوح فيها، ذلك أن عملية التغيير أو التحويل التي يقوم عليها علم الصرف لا تنحصر علاقتها بالكلمة نفسها، وبما يطرأ عليها من تغييرات في حروفها وحركتها، وإنما تتسع دائرتها ليشمل التحويل الأبنية والصيغ الصرفية، كأن يتم التحويل من اسم الفاعل إلى اسم المفعول، أو من اسم المفعول إلى صيغة المبالغة... وهكذا، والعدول الصرفي من الظواهر البارزة في النص القرآني، والمتأمل للنص القرآني يجد كثيرا ما يغير بين المصادر والمشتقات في السياق نفسه، ومن أمثلة ذلك ومن خلال تفسير الألوسي نجد:

* العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية:

منه قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١)

قال الألوسي: " وإيثار ما عليه النظم الكريم للإيدان بأن كذبه في هذه المادة يستلزم انتظامه في سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه فإن مساق هذه الأقاويل الملفقة مع ترتيب أنيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداق أصلاً لا سيما بين يدي نبي عظيم تخشى سطوته لا يكاد يصدر إلا عمن رسخت قدمه في الكذب والإفك وصار سحياً له حتى لا يملك نفسه عنه في أي موطن كان (٢)

كان مقتضى الظاهر (أم كذبت) لكن حسب الألوسي فإن جملة (من الكاذبين) أبلغ في النسبة إلى الكذب بالانخراط في سلك الكاذبين بأن يكون الكذب عادة له. وفي ذلك إيدان بتوضيح تهمته بالكذب ليتخلص من العقاب، وإيدان بالتوبيخ والتهديد وإدخال الروع عليه، وهذا ما لا يفيد المعنى لو قيل: (أم كذبت).

ونحو قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَظِيمِ الْعَبْثِ وَالْعَافِيَةِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) ورد في تفسيره: " والعدول إلى صيغة الفاعل هنا للدلالة على

(١) النمل الآية ٦٧

(٢) روح المعاني . (١٠ / ١٨٨) .

(٣) آل عمران: ١٣٤ .

الاستمرار، وأما الإنفاق فحيث كان أمراً متجدداً عبر عنه بما يفيد التجدد و الحدوث" (١).

فالألوسي هنا استقى كلامه من الشيخ عبد القاهر الجرجاني والبلاغيين في أن صيغة الفعل تدل على التجدد وأما صيغة اسم الفاعل فإنها دالة على الثبات والاستمرار.

* العدول من صيغة إلى أخرى:

مثل العدول عن الصفة المشبهة إلى اسم الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَايَاُ رَبِّهِ لِيُبَيِّنَ لَكَ آيَاتِهِ وَيُعَلِّمَكَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ ﴾ (٢)

وبين الألوسي الدلالة التي يحملها هذا العدول بقوله: "وعدل عن ضيق الصفة المشبهة إلى - ضائق - اسم الفاعل ليدل على أن الضيق مما يعرض له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحيانا ، وكذا كل صفة مشبهة إذا قصد بها الحدوث تحول إلى فاعل فتقول في سيد وجواد وسمين مثلا : سائد وجائد وسامن" (٣)

وخاتمة لما أسلفنا نقول إن النص القرآني عند نزوله عدّ خروجاً عن المتعارف عليه، بل إنّه كان في طريقة نظمه عدولا عن اللغة المألوفة، ولكنه عدول معجز لا يمكن -بأي حال من الأحوال - مقارنته بالعدول في كلام البشر بصفة عامة أو عدول المبدعين بصفة خاصة، إنّه عدول يأخذ جماليته من القدرة على مفاجأة المتلقي وإثارته، فبالقدر الذي يكون فيه النص القرآني قريبا من النص البشري من حيث انتمائه إلى اللغة العربية، بالقدر نفسه يكون مميزا عنه بتلك القدرة الإعجازية، وقد وجد الدارسون لإعجاز القرآن الكريم في فنون البلاغة العربية من استعارة وتشبيه ومجاز وتقديم وتأخير والفصل والوصل والحذف والالتفات وغيرها من الفنون البلاغية مجالا للكشف عن خصوصية النص القرآني في العدول عن المستوى الإبداعي، وهذا ما يهدف الباحث إلى دراسته في الصفحات القادمة.

(١) روح المعاني

(٢) هود: ١٢.

(٣) روح المعاني. (٦/ ٢٢١)

الفصل الثاني المفردة القرآنية

✓ سمة الاختيار في الألفاظ

✓ العَدول العَددي

✓ الأفعال والأبنية

✓ التعريف والتنكير

- توطئة:

اعتنى المفسرون بالمفردة القرآنية لكونها الأساس والأصل، ولما تتميز به من خصائص وسمات أسلوبية معجزة، كدقة اختيارها، وقوة إيجائها، وأثرها الصوتي، وجمال إيقاعها كل ذلك مكَّنها من إصابة المعنى المراد، وتأدية الغرض القرآني الذي سبقت من أجله في أكمل صورة وأجلى بيان .

والألوسي بدوره وفي تناوله للمفردة القرآنية بين الخصائص والأسباب الدلالية لاختيارها في النص القرآني، وأبرز أهم مظاهر العدول للكلمة من حيث العدد كالانتقال من المفرد إلى المثنى أو إلى الجمع، والعدول من جهة صيغتها وبنائها، وتعريفها وتنكيرها.

أولاً_سمة الاختيار في الألفاظ:

يذهب علماء الأسلوب إلى أن مبدأ الاختيار مقتصر على الكلمات أو الألفاظ أكثر من التركيب ، وأن ابداع أي نص ينطلق من الاختيار أولاً ثم يكون بعده التركيب، وهو أحد أهم مبادئ الأسلوبية، حتى أنهم في تعريفهم للأسلوب من جهة المرسل ربطوا بينهما يقول سعد مصلوح : " الأسلوب يمكن تعريفه بأنه اختيار أو انتقاء يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين"^١ .

ويحدد أحمد الشايب الأسلوب بأنه: "طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير عن المعاني قصد

الإيضاح والتأثير أو الضرب من النظم والطريقة فيه"^٢

أما عبد السلام المسدي فيرى أنه: "اختيار واع يسلمه المؤلف على ما توفره اللغة من سعة وطاقت، وإلحاح هذا المنحى على أن الأسلوب عملية واعية تقوم على اختيار تسهم في تحديد ماهية الأسلوب تمتزج في بعض الأحيان بكل مقتضيات عملية الإبداع اللساني"^٣

من خلال ما سبق ذكره يتبين لنا أن الاختيار يعد من أهم محددات الأسلوب، لأنه يقوم عليه تحليل الأسلوب عند المبدع، ويقصد به العملية التي يقوم بها المبدع عندما يستخدم لفظاً من بين العديد من البدائل الموجودة في معجمه، فاستخدام هذه اللفظة من بين سائر الألفاظ هو ما يسمى "اختياراً" لأنه وقع فيه استبدال بالكلمة القريبة منه بغيرها مناسبة للمقام أو الموقف.

فالاختيار يعتمد بالأساس على ثروة المنشئ المعجمية وقدرته على الانتقاء من بين الإمكانيات اللغوية المتاحة لديه، إذ تكون عملية الاختيار واعية ومقصودة لأن العملية لا تعنى فقط اختيار الكلمات أو المفردات من المعجم بقدر ما تتصل أيضاً بعملية التركيب وتشكيل السياق.

^١ الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، سعد مصلوح

^٢ الأسلوب ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة: الثانية عشرة ٢٠٠٣ (ص: ٤٤).

^٣ الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي،

وفي جهود العلماء العرب وكلامهم حول أسرار إعجاز القرآن الكريم اتفقوا على أنه أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها.

ففي اختيار اللفظة المناسبة التي لا يشركها فيها مرادفها لا تكون إلا في أركان الفصاحة والبلاغة، أو في نافذة الإعجاز البياني للقرآن الكريم، قال ابن الأثير: " ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحدٍ، وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على وزن واحد، وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه وجلّ نظره"^(١)

فالتعبير القرآني تعبير في مقصود، كل لفظة بل كل حرف فيه وضع وضعاً فنياً مقصوداً، ولم ترع في هذا الوضع الآية وحدها، ولا السورة وحدها، بل روعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله، ومما يدل على ذلك الإحصاءات التي أظهرتها الدراسات الحديثة، والتي بينت بوضوح أن القرآن الكريم إنما حسب لكل حرفٍ فيه حسابه، وأنه لا يمكن أن يزداد فيه أو يحذف منه حرف واحد^(٢)

يتبين مما سبق إلى أن دقة المفردة القرآنية يرجع لعدة خصائص لأجل التعبير عن غرض معين وبشكل واضح، حيث لا يمكن لغيرها من المترادفات أن تحل محلّها، وذلك لا يكون إلا للكلام المعجز، ويمكن أن نرصد تلك الخصائص والدلالة في اختيار المفردة في النظم الكريم من خلال تفسير الألوسي في الأوجه التالية:

• التصوير القرآني:

لا شك أن الكلمة وصيغتها وصوتها، وما تحويه من خيال وموسيقى، تعمل على نقل المعنى الذهني إلى واقع يشاهده المتلقي ويعيش معه بمشاعره وأحاسيسه، ثم يتفاعل معه، ويخضع لتأثيراته. " وقد يستقل لفظ واحد - لا عبارة كاملة - برسم صورة شاخصة - لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة - وهذه خطوة أخرى في تنسيق التصوير، أبعد من الخطوة الأولى، وأقرب إلى قمة جديدة في التناسق. خطوة يزيد من قيمتها أن لفظاً مفرداً هو الذي يرسم الصورة"^(٣) ومن

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت

١٩٩٥ م. ج ١ ص ١٥٠

(٢) ينظر: التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الأردن، ط ٤، ٢٠٠٦ م، ص ٢.

(٣) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط ١٧، دت (ص: ٩١)

بين هذه الألفاظ ما رآه الألوسي في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوِيلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَتْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١)،

يقول الألوسي: "وقبله بالقساوة مع أن مقتضى المقابلة أن يعبر بالضيق لأن القساوة كما في الصخرة الصماء تقتضي عدم قبول شيء بخلاف الضيق فإنه مشعر بقبول شيء قليل" (٢)

فكان مقتضى الحال أن يقابل ويطلق الشرح بالضيق، ولكن جاء في مقابلة القساوة التي تعطينا صورة الشيء الصلب كالحجارة أو غيرها، وهم الذين لم يشرح الله صدورهم للإسلام فكانت لقلوبهم قساوة كالسحجة فيهم فلا تسلك دعوة الخير إلى قلوبهم، بخلاف لفظة الضيق فإنه مشعر بقبول شيء قليل.

والقرآن الكريم عند المبالغة في تصوير الكافرين وإعراضهم لسماع ما ينفعهم، عدل عن (كانوا صما) إلى (لا يستطيعون سماعاً) في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا ﴾ (٣)

جاء في تفسيره: "(لا يَسْمَعُونَ سَمْعًا) نفى لسماعهم على أتم وجه ولذا عدل عن وكانوا صماً الأخصر إليه. والمراد أنهم مع ذلك كفاقد حاسة السمع بالكلية وهو مبالغة في تصوير إعراضهم عن سماع ما يرشدهم إلى ما ينفعهم بعد تصوير تعاميمهم عن الآيات المشاهدة بالإبصار." (٤)

وهذا تصوير لإعراضهم عن الأدلة السمعية يعني وكانوا صماً عنه، إلا أنه عدل إلى ما في النظم لكونه أبلغ؛ لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صح به، وهؤلاء كأنهم أصمّت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع.

ومثله قوله تعالى: ﴿ تَرَى قَسَمَ قُلُوبِكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِّن

(١) الزمر: ٢٢.

(٢) روح المعاني (١/ ٣٦٥)

(٣) الكهف: ١٠١

(٤) روح المعاني. (١/ ٢٩٥).

الْحِجَارَةُ لَمَّا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ﴿١﴾

فللمبالغة في التصوير عدل عن أقسى وقيل: أشد قسوة، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب، لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة. ووجه آخر: وهو ألا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدّة، كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشدّ قسوة. يقول المفسر: "وإنما لم يقل سبحانه وتعالى أقسى مع أن فعل القسوة مما يصاغ منه أفعل وهو أخصر ووارد في الفصيح كقول الشاعر:

كُلُّ خَمَصَانَةٍ أَرْقُ مِنْ الخَمِّ رِ بِقَلْبِ أَقْسَى مِنَ الْجَلْمُودِ ٢

لما في (أشد) المبالغة لأنه يدل على الزيادة بجوهره وهيئته بخلاف أقسى فإن دلالة بالهيئة فقط ، وفيه دلالة على اشتداد القسوتين ولو كان أقسى لكان دالاً على اشتراك القلوب والحجارة في القسوة ، واشتمال القلوب على زيادة القسوة لا في شدة القسوة" (٣)

وقد يؤتى بالفعل في موضع الاسم للزيادة في المبالغة والتصوير، حيث جاء الفعل (مد) في موضع الاسم (مداد)، فأضاف معنى جديداً وأكثر مبالغة. في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤)

جاء في روح المعاني: "وكان الظاهر بعد جعل ما في الأرض من شجرة أقلام أن يقال : والبحر مداد لكن جيء بما في النظم الجليل لأن يمدده يغني عن ذكر المداد لأنه من قولك : مد الدواة وأمدّها أي جعلها ذات مداد وزاد في مدادها ففيه دلالة على المداد مع ما يزيد في المبالغة وهو تصوير الإمداد المستمر حالاً بعد حال كما تؤذّن به صيغة المضارع فأفاد النظم الجليل جعل البحر

(١) البقرة: ٧٤

٢ اللامع العزيري شرح ديوان المتنبي، أبو العلاء المعري، تحقيق: محمد سعيد المولوي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م، ص ٣٩١

(٣) روح المعاني (١١/ ٩٧)

(٤) لقمان: ٢٧

المحيط بمنزلة الدواة وجعل أبحر سبعة مثله مملوءة مداداً فهي تصب فيه مدادها أبداً صبا لا ينقطع" (١)

• الظلال والإيحاء:

وترد المفردة في التعبير القرآني لتحمل إيحاءات ومعاني جديدة مع المعنى المراد، وفي الوقت نفسه يكون لها مقابل على المستوى الدلالي توحى به إلى جنب المعنى الذي أدته أساساً ففي قوله: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۗ ﴾ [التكاثر: ٢] يقول الألوسي مبينا الدلالة الجانبية للفعل (زرتم): "وفي ذلك إشارة إلى تحقيق البعث . يحكى أن أعرابياً سمع ذلك فقال بعث القوم للقيامة ورب الكعبة فإن الزائر منصرف لا مقيم وعن مر بن عبد العزيز أنه قال لا بد لمن زار أن يرجع إلى جنة أو نار وفيه أيضاً إشارة إلى قصر زمن البعث" (٢)

فإن لفظة (زرتم) تمثل لفظة لها مقابل دلالي هو الرجوع فكل زائر لاشك وستنتهي به زيارته فاستعمال الزيارة بهذا المعنى صريح الإيحاء بأن الإقامة في القبر ليست إقامة دائمة، ودلالة على قصر مدتها وسوف تنتهي الزيارة حتماً إلى بعث وحساب وجزاء، وهذا الإيحاء ينفرد به لفظ زرتم دون غيره فلا يمكن أن يؤديه لفظ آخر كأن يقال (قبرتم ، أو دفنتم، أو سكنتم المقابر...) بل إنها زيارة أي إقامة مؤقتة ويعقبها بعث ونشور، كما رأى الألوسي ملمحا آخر في هذه الكلمة وهو أنها تفيد قصر مدة البعث في القبر لأن من شأن الزائر أن لا يطيل الإقامة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَيِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ۗ ﴾ (٣)

قال الألوسي: "وفي التعبير بالإدراك إشعار بأن القوم لشدة تباعدهم عن أسباب الموت وقرب وقت حلوله إليهم بمر الأنفاس والآفات كأنهم في الهرب منه وهو مجد في طلبهم لا يفتر نفسا واحدا في التوجه إليهم" (٤)

فبين تعالى أنه لا خلاص لهم من الموت وهذا ماتوحيه لفظة الإدراك التي تشعر بأنهم في حالة

(١) روح المعاني (١١ / ٩٧)

(٢) روح المعاني (١٥ / ٤٥٢)

(٣) النساء: ٧٨.

(٤) روح المعاني (٣ / ٨٤)

هرب من الموت وهو مجد في طلبهم، لأن كلمة الإدراك تحمل معنى الاتباع واللاحق فنقول مثلاً أدركت الرجل إذا سبقك ثم اتبعته فلحقته، "وأصل الإدراك في اللغة بلوغ الشيء وتمامه ومنه إدراك الثمرة وإدراك الغلام وإدراكك من تطلب يرجع إلى هذا لأنه مبلغ مرادك" (١)

ويقف الألوسي عند أصل كلمة (الوفد) وما تحمله من إيحاء وظلال، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٢) يقول: "الوفد هم القوم يجتمعون ويردون البلاد واحدهم وafd وكذلك الذين يقصدون الأمراء لزيارة واسترفاد وانتجاع وغير ذلك، ومن هنا قيل: إن لفظة الوفد مشعرة بالإكرام والتبجيل حيث آذنت بتشبيه حالة المتقين بحالة وفود الملوك" (٣)

الوفد والوفود هم الذين يقدمون على الملوك مستنجدين الحوائج، أي بجمعهم {إلى الرحمن} إلى ربهم الذي يغمرهم برحمته الواسعة وافرين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم.

والعدول عن استعمال الفعل رأيت إلى الفعل وجدت يحمل إيحاءات ومعاني إضافية، وهذا في

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٤)

جاء في تفسيره: "وإيثار {وجدت} على رأيت لما أشير إليه فيما سبق من الإيدان لكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه السلام بإبراز نفسه في معرض من يتفقد أحوالها ويتعرفها كأنها طلبته وضالته ليعرضها على سليمان عليه السلام، وقيل: للإشعار بأن ما ظفر به أمر غير معلوم أولاً لأن الوجدان بعد الفقد وفيه رمز بغرابة الحال." (٥)

فكلمة {وجدت} توحى بأن الهدهد كان في مهمة يؤديها لسليمان عليه السلام، وأن غيابه لم يكن عصياناً أو تمرداً، أو خروجاً بلا غاية. وهذا المعنى لانجده في رأيت أو شاهدت وغيرهما من الأفعال.

(١) الفروق اللغوية، ابو هلال العسكري، حققه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر، القاهرة - مصر (ص: ٩١)

(٢) مريم: ٨٥

(٣) روح المعاني (٨/ ٤٥١).

(٤) النمل: ٢٣.

(٥) روح المعاني. (١٠/ ١٨٥).

• أصل الكلمة وتطور دلالتها:

لبعض الكلمات معنى أصلي وجدت له فتطور دلاليًا، "وهو التغيير الذي يطرأ على اللغة سواء في أصواتها أو دلالة مفرداتها، أو في الزيادة التي تكتسبها اللغة أو النقصان الذي يصيبها، وذلك كله نتيجة عوامل مختلفة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بحياة الأمم في كافة مجالاتها. وليس من شك أن التطور اللغوي مرتبط بسنن التطور العام في حياة الإنسان" (١)

ويستفيد الألويسي من المعنى المعجمي للمفردة، ومن أصل الكلمة التي وضعت له ومن تطورها الدلالي، وعلى فقه الأساليب وإدراك المقامات، ليبين علاقتها بالسياق وملاءمتها له .

من ذلك الفعل (أصر) في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ كَلَّمْنَا دَعْوَتَهُمْ لِيَتَغَفَّرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْدِعَهُمْ فِي

ءَأْذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَارًا ۝ ﴿٧﴾ (٢)

"وأصروا أي أكبوا على الكفر والمعاصي وانهمكوا وجدوا فيها مستعار من أصر الحمار على العانة إذا صر أذنيه أي رفعها ونصبها مستويين وأقبل عليها يكدمها ويطردها وفي ذلك غاية الدم لهم ثم صار الإصرار حقيقة عرفية في الملازمة والانهماك" (٣)

ويقصد الألويسي بقوله (غاية الدم)، لما فيه تشبيه بالحمار وفي أسوء أحواله وهو حال رفع الأذنين وكدمها، ولعل هذا هو السبب في اختيار هذه المفردة هنا دون المفردات الأخرى القريبة من هذا المعنى.

ومن هذا أيضا اختيار كلمة (الثرب) في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَأْنِيبَ لَكَ مِنْ يَوْمٍ يُغْفَرُ

اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ ﴿١٦﴾ (٤) " أي لا تأنيب ولا لوم (عَلَيْكُمْ) وأصله من الثرب

وهو الشحم الرقيق في الجوف وعلى الكرش، وصيغة التفعيل للسلب أي إزالة الثرب كالتجريد والتفريع بمعنى إزالة الجلد والقرع، واستعير للوم الذي يمزق الأعراض ويذهب بهاء الوجه لأنه بإزالة

(١) التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، عودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار الاردن، ط١ ، ١٩٨٥م،

ص٤٥

(٢) نوح: ٧

(٣) روح المعاني (١٥ / ٨٠)

(٤) يوسف: ٩٢

الشحم يبدو الهزال وما لا يرضى كما أنه باللوم تظهر العيوب فالجامع بينهما طريان النقص بعد الكمال وإزالة ما به الكمال والجمال" (١)

وأصل التشريب من الشرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش، ثم تطورت دلالة الكلمة لتأخذ معنى: اللوم و التأنيب، وبين الألوسي العلاقة الجامعة بين المعنى الأصلي والمعنى الثاني المتمثلة في طريان النقص بعد الكمال وإزالة ما به الكمال والجمال.

ومنه أيضا كلمة الكظم في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) يقول شهاب الدين الألوسي: "أصل الكظم شدّ رأس القربة عند امتلائها ، ويقال : فلان كظيم أي ممتلئ حزناً ، والغیظ هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر والمراد والمتجرعين للغیظ المسكين عليه عند امتلاء نفوسهم منه فلا ينقمون ممن يدخل الضرر عليهم ولا يبدون له ما يكره بل يصبرون على ذلك مع قدرتهم على الإنفاذ والانتقام وهذا هو الممدوح" (٣)

والملاحظ أن أغلبية هذه المفردات مأخوذة من أمور حسية فتطورت دلالتها إلى معاني مجردة. وقد أجمع الباحثون في نشأة الدلالة أنها بدأت بالمحسوسات، ثم تطورت إلى الدلالات المجردة بتطور العقل الإنساني ورفيقه. فكلما ارتقى التفكير العقلي جنح إلى استخراج الدلالات المجردة وتوليدها والاعتماد عليها في الاستعمال" (٤).

ومن لطائف الاختيار في القرآن الكريم أن تأتي الكلمات بحسب حاجة السياق أو النظم لا بحسب مطلب شكلي مسبق يُفرض على السياق كأن يكون متوافقاً صوتاً ودلالةً معه، وهذا ما رآه الألوسي في اختيار أليم بدل شديد الموافقة لفاصلة الآيات السابقة (حميد) وما بعدها (بعيد). في قوله تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

(١) روح المعاني (٧/ ٤٨)

(٢) آل عمران: ١٣٤

(٣) روح المعاني (٢/ ٢٧٣).

(٤) ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو، مصر، ط٥، ١٩٨٤، ص ١٦١

وَدُوْ عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ (١)

يقول المفسر: "واختيار (أليم) على شديد مع أنه أنسب بالفواصل للإيماء إلى أن نظم القرآن ليس كالأسجاع والخطب وأن حسنه ذاتي والنظر فيه إلى المعاني دون الألفاظ، ويحسن وصف العقاب به هنا كون العقاب جزاء التكذيب المؤمن." (٢)

ويمكن أن يقال أن وصف العقاب ب أليم دون وصف آخر للإشارة إلى أنه مناسب لما عوقبوا لأجله فإنهم ألموا نفس النبي صلى الله عليه وسلم بما عصوا وآذوا (٣). فشاكل اللفظ المعنى السابق لهذه الآية.

وقد يرجع الألوسي سر اختيار الكلمة للجانب الحسي أو النفسي، ويربط بين هذا المدلول وبين المراد منها، حيث استخدم فعل الظن موضع العلم في قوله تعالى: ﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (٤) ﴿٢٥﴾ جاء في (روح المعاني): "وجيء بفعل الظن ههنا، دلالة على أن ما هم فيه، وإن كان غاية الشر يتوقع بعده أشد منه وهكذا أبداً... وإذا كان ظاناً كان أشد عليه مما إذا كان عالماً موطناً نفسه على الأمر" (٥)

فالظان لا يعلم نوع العقوبة، ولا مقدارها فيبقى رجلاً أشد الوجل، خائفاً أعظم الخوف من هذا الأمر الذي لا يعلم ما هو ولا مداه ولا كيف يتقيه، أما الإنسان الذي يعلم ما سيحل به يكون موطناً نفسه على ذلك الأمر بخلاف الذي لا يعلم ماذا يتقي، وما مداه وما نوع تلك الفاقرة.

● مراعاة الجانب المعنوي واللفظي:

ومن جمالية المفردة القرآنية مراعاتها للجانب المعنوي والجانب اللفظي معاً، وهذا من أعلى درجات البلاغة، وقد ورد بكثرة في الذكر الحكيم منه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن

(١) فصلت: ٤٣

(٢) روح المعاني (١٢/٣٨٠).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ م (٢٤/٣١١)

(٤) القيامة: ٢٥

(٥) روح المعاني (١٥/١٦٢)

يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ
وَكَتَرْتُمْ فَسَيْفُونَ ﴿٨﴾ ﴿١﴾

جاء في تفسيره: " (لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً) أي لم يراعوا في شأنكم ذلك ، وأصل الرقوب النظر بطريق الحفظ والرعاية ومنه الرقيب ثم استعمل في مطلق الرعاية، والمراقبة أبلغ منه للمراعاة ، وفي نفي الرقوب من المبالغة ما ليس في نفيهما ، وما ألفت ذكر الرقوب مع الظهور" (٢)

ففي هذه الآية نجد دقة اختيار المفردة القرآنية، إذا أبدل مكانها غيرها جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ولهذا لفظة (الرقوب) هنا تراعي:

الجانب المعنوي: لأن الرقوب أبلغ من الكلمة القريبة منها دلاليا وهي المراعاة

الجانب اللفظي والجمالي: يتبين في طباق السلب بين يظهروا ولا يرقبوا

ونحو هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١١﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١٢﴾ ﴾ (٣) يقول علامة بغداد عند تفسيره لهذه الآية: " (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) الاقتحام الدخول بسرعة وضغط وشدة ويقال قحم في الأمر قحوماً رمى نفسه فيه من غير روية والعقبة الطريق الوعر في الجبل وفي البحر هي ما صعب منه وكان صعوداً والجمع عقب وعقاب وهي هنا استعارة لما فسرت به من الأعمال الشاقة المرتفعة القدر عند الله تعالى والقرينة ظاهرة وإثبات الاقتحام والمراد به الفعل والكسب ترشيح ويجوز أن يكون قد جعل فعل ما ذكر اقتحاماً وصعوداً شاقاً وذكره بعد النجدين جعل الاستعارة في الذروة العليا من البلاغة" (٤)

فألفاظ الآيتين يجمعها معجم دلالي واحد وهو معجم الشدة و المشقة:

الاقتحام: الدخول بسرعة وضغط وشدة.

(١) التوبة: ٨

(٢) روح المعاني (٥/ ٢٥٠)

(٣) البلد: ١٠، ١١

(٤) روح المعاني (١٥/ ٣٥٣)

العقبة: الطريق الوعر في الجبل وفي البحر.

النجد: وهو الطريق العالي المرتفع المؤدي إلى العقبة.

فكل لفظة وقعت في مكانها المناسب، وجاءت على نسق بنائي واحد يجمعها ترابط لفظي ومعنوي.

ويقف عند استبدال لفظة الصواع بالمتاع ومناسبتها لفعل الأخذ في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَعَاذَ

اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا أَظْلَمُوا ﴾ (١)

جاء في تفسيره: "المتاع اسم لما ينتفع به وأريد به الصواع، وما أطف استعماله مع الأخذ المراد به الاسترقاق والاستخدام وكأنه لهذا أثر على الصواع، والظاهر أن الأخذ في كلامهم محمول على هذا المعنى أيضا حقيقة" (٢).

فاختيار لفظة (المتاع) بدل من لفظة الصواع في هذه الآية يرجع لما تحمله من معنى الأخذ المراد به الاسترقاق الذي كان عقوبة السارق في عهدهم فأصبح في حكم المتاع.

• الفروق اللغوية بين المفردات:

اعتمدت كتب الفروق اللغوية اتباع الطرق التصنيفية للمعنى، وتعد أنجح طريقة لدراسة الفروق؛ وذلك لأن مدار الحديث في الفروق على تلك العلاقات الدلالية بين الألفاظ، فكانت طريقة الحقل الدلالي من الطرائق التي ركّز في اتباعها عند دراسة الفروق القدماء والمحدثون، ولعل ذلك يكمن في قيمة النظرية نفسها؛ إذ تتمثل أهميتها في "الكشف عن العلاقات وأوجه الشبه . والخلاف بين الكلمات التي تنضوي تحت حقل معين، وبينها وبين المصطلح العام الذي يجمعها" (٣)

ومفهوم الحقل الدلالي في ضوء الدرس الحديث " هو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها ، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها... وتقول هذه النظرية : إنه لكي تفهم معنى كلمة يجب أن

(١) يوسف: ٧٩

(٢) روح المعاني . (٧ / ٣٣).

(٣) علم الدلالة، لأحمد مختار، عالم الكتب، القاهرة، ط ٥، ١٩٩٨م ص ١١٠

تفهم كذلك مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليًا" (١)

وإن هذه النظرية تحاول الكشف عن كثير من الألفاظ التي يظن ترادفها في اللغات؛ إذ أن تحديد الكلمة داخل كل حقل وصلتها بأقرب الكلمات إليها يقرر معنى الكلمة بدقة ولا يسمح بمماثلاتها أن تحل محلها، ولعل أوضح طريقة لكشف الفرق في ألفاظ المجال الدلالي الواحد هي طريقة الاستبدال أو التعويض ، ووضع ((سوسير)) تمييزًا بين العلاقات الاستبدالية، فجعل الوحدة اللغوية أساساً للموازنة أو التعويض في استعمال خاص مع وحدات متشابهة أخرى (٢)

أما علماء العربية فقد سبقوا الغرب بتأليف كتب المعاني والفروق اللغوية، وللمفسرين إشارات متناثرة في كتبهم في هذا المجال، وهذا ما نجده عند الألووسي الذي حرص على إظهار الفروق الدقيقة بين الألفاظ القرآنية، وحاول إزالة المشكل بين الألفاظ المتشابهة تشابهاً يلبس فيه أحدهما بالآخر

ويقف الألووسي موقف المنكر لمسألة الترادف في اللغة والقرآن الكريم، ويتجلى ذلك واضحاً من بداية تفسيره وفي معرض تفريجه بين الحمد والمدح في فاتحة الكتاب، حيث عارض ما أورده الزمخشري في تفسيره والذي يفهم من كلامه من وجود ترادف بينهما، "الحمد والمدح أخوان وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها تقول حمدت الرجل على إنعامه وحمدته على حسبه وشجاعته" (٣)

وبين الألووسي الفرق بين الحمد والمدح والشكر بقوله: " أن المدح يكون على غير الاختياري وكأنه لذلك لم يقل عز شأنه المدح لله كما قالوا إظهاراً لأن الله تعالى فاعل مختار وفي ذلك من الترغيب والترهيب المناسبين لمقام البعثة والتبليغ ما لا يخفى . وأما الشكر : فهو أيضاً مغاير للحمد إلا أن بعضهم خصه بالعمل والحمد بالقول ، وبعض جعله على النعم الظاهرة ، والآخر على النعم الباطنة وادعى آخرون اختصاصه بفعل اللسان كالحمد في المشهور إلا أنه على النعمة وإليه يشير كلام الراغب" (٤)

(١) المرجع السابق / ٧٩

(٢) ينظر: علم الدلالة / ، أف ، آر بالمر ، ترجمة : مجيد المشاطة ، مطبعة العمال المركزية بغداد ١٩٨١ م ، ص ٧٨

(٣) ينظر: الكشاف، الزمخشري، (١ / ٥١)

(٤) روح المعاني (١ / ٧٣)

ومنه أيضا العدول عن لفظة السنة إلى لفظة العام في قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١) وكل من الكلمتين يدل على الحول.

ولفت هذا العدول أنظار الكثير من المفسرين واتفق -معظمهم- على أن السر فيه هو تحاشي تكرار لفظة السنة "لأنّ تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد تحقيق بالاجتناب في البلاغة ، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك" (٢)، والحقيقة أننا لا نميل إلى هذا الرأي الذي يقف عند المستوى السطحي للسياغة دون أي إشارة للظلال الدلالية العميقة التي يتضمنها هذا العدول.

ولهذا فإن الذي نميل إليه في سر هذا العدول يكمن في خصوصية كل من هاتين اللفظتين في الدلالة على معنى الحول، وقد بين الألوسي ذلك بقوله: "والنكته في اختيار السنة أولاً لأنها تطلق على الشدة والجدب بخلاف العام فناسب اختيار السنة لزمان الدعوة الذي قاسى عليه السلام فيه ما قاسى من قومه" (٣)

كما فرق بينهما عند تفسيره لقوله: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤)

حيث قال " (عام) هو كالسنة لكن كثيراً ما يستعمل فيما فيه الرخاء والخصب ، والسنة فيما فيه الشدة والجدب ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة ، وكأنه تحاشياً عن ذلك وتنبهاً من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق عبر به دون السنة " (٥)

فالقرآن الكريم إذن يستعمل العام ليدل على الخير والرخاء، ويستعمل السنة لتدل على الشر و الجدب.

(١) العنكبوت: ١٤

(٢) الكشاف، الزمخشري (٣/ ٤٥٠).

(٣) روح المعاني (١٠/ ٣٤٨)

(٤) يوسف: ٤٧

(٥) روح المعاني (٦/ ٤٤٥)

ويذكر الألويسي ألفاظا متقاربة دلالة وصوتا وهي التلقي والتلقف والتلقن عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ ﴾^(١) وبين الفرق بينها بقوله: "والتلقي والتلقف والتلقن متقاربة المعاني إلا أن في التلقي معنى الاستقبال وفي التلقف معنى الخطف والأخذ بسرعة وفي التلقن معنى الحدق والمهارة"^(٢). فلا توجد لفظة تؤدي المعنى المطلوب من بين هذه الكلمات الثلاثة إلا لفظة التلقن.

كما فرق الألويسي بين الباري و الخالق بعدما فسر معناهما اللغوي، ورأى أن الباري أخص من الخالق ، وسر اختيارها هنا هو مناسبتها لمقام التقرير والتوبيخ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَيْدِيكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ بِيَدَيْكُمْ فَأَتُّوهُم بِأَعْيُنِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٥٤ ﴾^(٣) يقول: "الباري هو الذي خلق الخلق برياً من التفاوت وعدم تناسب الأعضاء وتلائم الأجزاء بأن تكون إحدى اليدين في غاية الصغر والرقّة ، والأخرى بخلافه؛ ومتميزاً بعضه عن بعض بالخواص والإشكال والحسن والقبح فهو أخص من الخالق...." وفي ذكره في هذا المقام تقرير بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله تعالى ونزول أمره بأن يفك ما ركبهم من خلقهم ، وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم حين لم يشكروا النعمة في ذلك وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها وهو مثل في العباوة والبلادة"^(٤)

وورد ذكر النصب و اللغوب في القرآن الكريم منفردين، وجاءا في سياق واحدٍ متعاطفين ووقف الألويسي على سياق العطف؛ لأنه يقتضي المغايرة، وبين الفرق بينهما، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ أَحَلَّتْنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ٢٥ ﴾^(٥)

(١) النور: ١٥

(٢) روح المعاني . (٩ / ٣١٥).

(٣) البقرة: ٥٤

(٤) روح المعاني (١ / ٢٥٩)

(٥) فاطر: ٣٥

يقول: " (لَا يَمْسُنَا فِيهَا نَصَبٌ) أي تعب (وَلَا يَمْسُنَا فِيهَا لُغُوبٌ) كلال وفتور وهو نتيجة النصب، وضمه إليه وتكرير الفعل المنفي للمبالغة في بيان انتفاء كل منهما كذا قال جمع من الأجلة، وقال بعضهم: النصب التعب الجسماني واللغوب التعب النفساني ^(١) ."

فعطف اللغوب على النصب لأنه من نتيجته، إذ هو الفتور والكلال الذي يصيب الإنسان من النصب والتعب، فاللغوب ناتج عن النصب.

وبين الألوسي دقة وضع المفردة القرآنية في سياقها المناسب، حيث لا يمكن أن يحل محلها إحدى مرادفاتهما عندما فرق بين الإعطاء والإيتاء مستشهدا بالاستعمال القرآني لهما، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ ﴾ ^(٢)

جاء في تفسيره: "وفي إسناد الإعطاء إليه دون الإيتاء إشارة إلى أن ذلك إيتاء على جهة التملك فإن الإعطاء دونه كثيرا ما يستعمل في ذلك ومنه قوله تعالى لسليمان عليه السلام: { هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك } [ص : ٣٩] بعد قوله { هب لي * ملكا } [ص : ٣٥] وقيل فيه إشارة إلى أن المعطي وإن كان كثيرا في نفسه قليل بالنسبة إلى شأنه عليه الصلاة والسلام بناء على أن الإيتاء لا يستعمل إلا في الشيء العظيم كقوله تعالى: { وآتاه الله الملك } [البقرة : ٢٥١] { ولقد آتينا داود منا فضلا } [سبأ : ١٠] { ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم } [الحجر : ٨٧] والإعطاء يستعمل في القليل والكثير كما قال تعالى { أعطي قليلا وأكدى } [النجم : ٣٤] ففيه من تعظيمه عليه الصلاة والسلام ما فيه وقيل التعبير بذلك لأنه بالفضل أشبه بخلاف الإيتاء فإنه قد يكون واجبا ففيه إشارة إلى الدوام والتزايد أبدا لأن التفضل نتيجة كرم الله تعالى الغير المتناهي ^(٣)"

من خلال استقراء الألوسي لمواضع ورود لفظة (الإيتاء) ولفظة (الإعطاء) في القرآن الكريم يتبين أن :

في الإعطاء دليل التملك دون الإيتاء.

(١) روح المعاني (١١ / ٣٧٢).

(٢) الكوثر: ١.

(٣) روح المعاني (١٥ / ٤٨٠).

الإعطاء يستعمل في القليل والكثير أما الإيتاء لا يستعمل إلا في الشيء العظيم وهو في أكثر مواضع القرآن فيما له ثبات وقرار كالحكمة والسبع المثاني والملك الذي لا يؤتى إلا لذي قوة

الإيتاء يحتمل أن يكون واجباً، وأن يكون تفضلاً، أما الإعطاء فإنه بالتفضل أشبه، نحو ما جاء في هذه الآية، فهذا العطاء عطاء تفضل، بدليل أن الله سبحانه أمره بالصلاة، والنحر عقب ذلك، فقال جل جلاله: (فصل لربك وانحر)، ولو كان واجباً، لما أمره بذلك.

ولكون العطاء أشبه بالتفضل، خص دفع الصدقة في القرآن الكريم بالإيتاء، دون الإعطاء، لكونها واجبة، نحو:

قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَكَانُوا لَنَا عِدِينَ﴾^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾^(٢)

فهذا من الإيتاء الواجب، وهو في المال.

● الانسجام الصوتي:

وهذا جانب اهتمت به الدراسات الأسلوبية الحديثة، حيث ركزت في معالجتها للنصوص الأدبية على القيم التعبيرية والجمالية لأصوات اللغة في الكلمة، وحدد إبراهيم أنيس مفهوم الانسجام الصوتي بقوله: "تتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض في المتصل من الكلام، فحين ينطق المرء بلغته نطقاً طبيعياً لا تكلف فيه، نلاحظ أن أصوات الكلمة الواحدة قد يؤثر بعضها في البعض الآخر كما نلاحظ أن اتصال الكلمات في النطق المتواصل قد يخضع أيضاً لهذا التأثير، والأصوات في تأثرها تهدف إلى نوع من المماثلة أو المشابهة بينها، يزداد مع مجاورتها قربها في الصفات أو المخارج ويسمى هذا التأثير بالانسجام الصوتي بين أصوات اللغة"^(٣).

وتطرق الألوسي إلى بعض المسائل الصوتية للمفردات في تفسيره، فربط بين المنحى الصوتي والمعنى اللغوي أو الدلالي للكلمة، فالصوت له أثر في المعنى، كما اهتم بمخارج الحروف وصفاتها،

(١) الأنبياء: ٧٣.

(٢) البقرة: ٢٧٧.

(٣) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس مكتبة الانجلو المصرية، ط ٤، سنة ١٩٧١، ص: ١٧٩.

وله أيضا نظرات خاصة ومتفردة حول الحركات الإعرابية.

ووقف عند الجانب الصوتي لكلمة القصم في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (١) يقول المفسر: " (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ) وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها بالكلية كما يشعر به الإتيان بالقاف الشديدة من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط ما لا يخفى " (٢)

ولعل الألوسي قد استوحى هذا الكلام من ابن جني حينما فرق بين القصم والقسم في باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني. (٣)

وقد تكرر حرف الميم ثلاثة عشر مرة في آية واحدة، ولم يؤدي ذلك إلى إخلال في الفصاحة ولا ثقل في النطق، كما في قوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَنْوُحْ أَمِيطْ إِيَّاهُمْ مِنْ أَرْضِكَ وَأَنْتَ لِمَنْ تَأْمُرُ بِهَا لَسْتَ أَتَمٌّ وَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٤)

جاء في تفسيره: "وهي لطيفة وهي أنه قد تكرر في هذه الآية حرف واحد مرات مع غاية الخفة ولم تتكرر الراء مثله في قوله:

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

ومع ما ترى فيه من غاية الثقل وعسر النطق، والله تعالى شأن التنزيل ما أكثر لطائفه" (٥)

والشاهد الشعري الذي أورده الألوسي من الأبيات المشهورة في هذا الباب، فكل كلماته فصيحة لكن لَمَّا ضُمَّ بعض الكلمات إلى بعض في هذا الموضع صار فيها ثقل على اللسان، فعند قوله: وليس قرب قبر حرب قبر، هنا القافات متتالية ثم الراءات فصار هناك ثقل في اللسان، و تنافر بين الكلمات.

ويعدل القرآن الكريم عن بعض الحركات الإعرابية في الكلمة، فتتناسق وتتلاءم مع المقام والمعنى

(١) الأنبياء: ١١

(٢) روح المعاني . (١٥ / ٩).

(٣) ينظر: الخصائص، ابن جني، (٢ / ١٥٤).

(٤) هود: ٤٨

(٥) روح المعاني (٦ / ٢٧٢)

الذي وردت فيه نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١٠ ﴾^(١) فضمت الهاء في (عليه) مع أن المشهور في نحو هذا كسرهما، ويرجع الألوسي ذلك بقوله: "وقرأ الجمهور «عليه» بكسر الهاء كما هو الشائع وضمها حفص هنا وحسن الضم في الآية التوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام، وأيضا إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نقضه"^(٢)

فلفظ الجلالة ينطق مفخما مع الضم، عكس الكسرة التي ينطق معها لفظ الجلالة بترقيق اللام، فكان التناسب بين تفخيم الصوت وتفخيم العهد.

ونحو هذا وفي موطن آخر من القرآن نجد قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسِينِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ٣١ ﴾^(٣) بضم آخر كلمة (أنسانيه)، ويعلق الألوسي على هذا العدول بقوله: "وضم حفص الهاء في «أنسانيه» وهو قليل في مثل هذا التركيب قلة النسيان في مثل هذه الواقعة"^(٤)

فهذا المشهد لا ينسى على مرّ الزمان فكيف ينسى بعد لحظات فإن هذا من أقوى مواطن النسيان وأغربها وأعجبها، فعدل في التعبير من الكسر إلى أقوى الحركات وهي الضمة للإشارة إلى ندرة مثل هذا النسيان وقوته، فناسب بين قوة النسيان وقوة التعبير، وندرة مثل هذا النسيان وندرة مثل هذا التعبير.^(٥)

(١) الفتح: ١٠

(٢) روح المعاني (١٣/ ٢٥٢)

(٣) الكهف: ٦٣

(٤) روح المعاني (١/ ٣٠٠)

(٥) ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي. شركة العاتك للنشر القاهرة - مصر ط ٢٠٠٦. ص ١٠٦.

ثانياً - العدول العددي:

في مفهومه وأقسامه يقول بهاء الدين السبكي: " هو الانتقال من التعبير بصيغة الإفراد، أو التثنية، أو الجمع، إلى التعبير بصيغة أخرى منه، مع بقاء المعنى المراد لكل صيغة على وضعها الأصلي، والثاني: هو التعبير بإحدى صيغ المفرد، أو المثنى، أو الجمع، والمراد معنى الصيغة الأخرى".^(١)

والملاحظ أن النوع الأول يتوافر فيه معنى الالتفات والعدول، وهو الانتقال من صيغة إلى أخرى، ولكن لا يبرز فيه عنصر المفاجأة كثيراً، أو التوغل في مخالفة مقتضى الظاهر، لأن كل صيغة تظل ثابتة في معناها اللغوي، وبذلك يقترب تشكيل البنية من بنية تلوين الخطاب والتفنن فيه، أما النوع الثاني، فلا انتقال فيه من صيغة إلى أخرى، وإنما يعبر فيه بصيغة مكان صيغة أخرى، فيتحقق بذلك عنصر المفاجأة الصياغية التي تخالف مقتضى الظاهر.

ونحن في دراستنا للعدول في العدد نحاول المزج بين شواهد النوعين التي بينها الألوسي في تفسيره، ولا نكتفي عند ظاهر التركيب وسطحية العبارة، بل نقف عند دلالاته، وأبعاده البلاغية . والألوسي لم يخف عليه هذا العدول، فبين مواضعه ودلالاته، وعند استعراض مواطنه في القرآن الكريم نجد أمامنا ستة صور:

أ - العدول عن صيغة المثنى إلى صيغة المفرد:

نحو قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)

فقد عدل السياق الكريم عن المثنى (الله ورسوله) إلى الضمير المفرد في قوله (يرضوه) ويقتضي السياق أن يطابق الضمير العائد عليه فيكون (الله ورسوله أحق أن يرضوهما)، وفي هذا يقول الألوسي: "وتوحيد الضمير في (يُرْضُوهُ) مع أن الظاهر بعد العطف بالواو التثنية لأن إرضاء الرسول عليه الصلاة والسلام لا ينفك عن إرضاء الله تعالى و (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) [النساء : ٨٠] فلتلازمهما جعلاً كشيء واحد فعاد إليهما الضمير المفرد ، أو لأن الضمير مستعار

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي (١/ ٢٩٣)

(٢) التوبة: ٦٢.

لاسم الإشارة الذي يشار به إلى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور ، وإنما لم يثن تأدباً لئلا يجمع بين الله تعالى وغيره في ضمير تثنية" (١)

فقد أرجع الألوسي العدول من المثنى إلى المفرد في هذه الآية، لتلازمهما لأن طاعة ما أتى به الرسول من طاعة الله سبحانه وتعالى، أو تأدبا لكي لا يجمع بين الله وغيره. وهناك فرق بين ما جاء في النظم القرآني وبين لو قال: (يرضوهما) لما أفاد هذا المعنى؛ إذ يجوز في نفس العبارة أن يكون إرضاء كل منهما في غير ما يكون به إرضاء الآخر، وهو خلاف المراد هنا، وكذلك لو قيل : (والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه) لا يفيد هذا المعنى أيضا، وفيه ما فيه من الركاكة والتطويل.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٢)

ويتجلى العدول في هذه الآية بعودة الضمير المفرد ((إليها)) على المثنى (التجارة و اللهو)، وكان السياق يقتضي أن يطابق الضمير ويعود عليهما.

جاء في روح المعاني: "ووجد الضمير لأن العطف بأو واختير ضمير التجارة دون اللهو لأنها الأهم المقصود أو لأن الانفضاض للتجارة مع الحاجة إليها والانتفاع بها إذا كان مذموما فما ظنك بالانفضاض إلى اللهو وهو مذموم في نفسه؟" (٣)

والباحث يرى أن رأي الألوسي أولى لأن الضمير (إليها) عائد إلى التجارة وهي أهم عندهم من اللهو.

أما الذي ذكره بعض المفسرين ففيه تقديرات وحذف لا فائدة منها، فقيل تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهوا انفضوا إليه فحذف الثاني لدلالة الأول عليه.. (٤)

(١) روح المعاني . (٥ / ٣١٧).

(٢) الجمعة: ١١.

(٣) روح المعاني . (١٤ / ٢٩٩).

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج ، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت ، الطبعة: الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، (٥ / ١٧٢) / وينظر: الكشاف، الرمخشري (٤ / ٥٣٩)

ب- العدول عن صيغة المفرد إلى صيغة المثني:

نحو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِقُّ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾^(١)

فنجد أن اليهود قالوا: أن يد الله مغلولة وذلك بإفراد كلمة (يد)، فرد الله سبحانه وتعالى عليهم خطابهم ليتبث أن يديه مبسوطتان، وذلك بتثنية الكلمة (اليدين) .

وعن دلالة هذا العدول يقول الألوسي: " (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) عطف على مقدر يقتضيه المقام أي كلا ليس الشأن كما زعموا بل في غاية ما يكون من الجود، وإليه - كما قيل - أشير بتثنية اليد ، فإن أقصى ما تنتهي إليه همم الأسخياء أن يعطوا بكلتا يديهم " ^(٢)

فالألوسي يرى أن الغرض من التثنية هو الرد على زعمهم بأبلغ رد، وهو أن العطاء والجود من الله يأتي في أقصى درجاته، ولهذا جيء باليدين.

ومن أمثلة هذا الأسلوب ما ذكره الألوسي في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَمَّا وَعَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣)

جاء في تفسيره: " والمراد بضمير المخاطبين موسى وهارون عليهما السلام ، وإنما لم يفردوا موسى عليه السلام بالخطاب هنا كما أفردوه به فيما تقدم لأنه من المشافهة لهم بالتوبيخ والإنكار تعظيماً لأمر ما هو أحد سببي الإعراض معنى ومبالغة في إغاضة موسى عليه السلام وإقنائه عن الإيمان بما جاء به " ^(٤)

فالألوسي يرى أن التثنية في توجيه الخطاب إلى موسى وهارون، جاء للتوبيخ والإنكار لأحد أسباب الإعراض عن دعوتهما، وهو أن يكون لهما الكبرياء في الأرض، أما الإفراد فجاء للمبالغة في إغاضة موسى عليه السلام وإقنائه.

وهذا التوجيه الذي رآه غير واحد من المفسرين، لكن الاختلاف جاء في الإفراد، فأبو السعود

(١) المائة: ٦٤.

(٢) روح المعاني . (٣ / ٣٤٧)

(٣) يونس: ٧٨.

(٤) روح المعاني . (٦ / ١٥٥)

يرى: "تثنية الضمير في هذين الموضوعين بعد إفراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام، واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر وأما اللفت والمجيء له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصة" (١)

ولابن عاشور كلام قريب مما جاء به الألوسي يقول فيه: "بنوا إنكارهم على تخطئة موسى فيما جاء به، وعلى سوء ظنهم به وبهارون في الغاية التي يتطلبونها مما جاء به موسى. وإنما واجهوا موسى بالخطاب لما تقدم من أنه الذي باشر الدعوة وأظهر المعجزة، ثم أشركاه مع أخيه هارون في سوء ظنهم بهما في الغاية من عملهما." (٢)

ومنه أيضا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ (٣) فالداعي موسى عليه السلام، حيث ابتدأت الآية بقوله ودعائه، فتم الانتقال من المفرد إلى المثني: موسى وهارون عليهما السلام .

ويرى الألوسي: " أن هارون عليه السلام دعا بمثل ما دعا موسى عليه السلام حقيقة لكن اكتفي بنقل دعاء موسى عليه السلام لكونه الرسول بالاستقلال عن نقل دعائه وأشرك بالبشارة إظهارا لشرفه عليه السلام ، ويحتمل أنه لم يدع حقيقة لكن أضيفت الدعوة إليه أيضا بناء على أن دعوة موسى في حكم دعوته لمكان كونه تابعا ووزيرا له " (٤)

فالعدول من المفرد إلى المثني يدل على وحدة الحال وعلى الاشتراك في الهم وفي الدعوة إلى الله، فالاثنتان أرسلتا لغرض واحد، فلا غرو أن يكون الدعاء من أحدهما والاستجابة للآخرين تشريفا لهما، ولكون هارون تابعا ووزيرا له.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود محمد بن محمد العمادي (ت ٩٥١ هـ) دار إحياء التراث

العربي ، بيروت . (٤ / ١٦٩)

(٢) التحرير والتنوير (١١ / ٢٥١)

(٣) يونس: ٨٨-٨٩.

(٤) روح المعاني . (٦ / ١٦٣)

ت - العدول عن صيغة المفرد إلى صيغة الجمع:

نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾^(١) ، فالخطاب في أول الآية كان موجهاً للنبي عليه الصلاة والسلام (يا أيها النبي)، ثم عدل بعد ذلك للخطاب بصيغة الجمع: (طلقتم، طلقوهن، احصوا...) وهي أفعال أمر جاءت على صيغة الجمع، وكان مقتضى السياق أن يكون (يا أيها النبي اذا طلقت...)، وعن هذا التلويح الخطابي يقول الألوسي: "خص النداء به صلى الله تعالى عليه وسلم وعم الخطاب بالحكم لأن النبي عليه الصلاة والسلام إمام أمته كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه، وأنه المتكلم عنهم والذي يصدر عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه فكان هو وحده في حكمهم كلهم وسادا مسد جميعهم، وفي ذلك من إظهار جلاله منصبه عليه الصلاة والسلام ما فيه"^(٢)

فجاء العدول للدلالة على أمرين وهما:

- دلالة التعظيم والتفخيم للمتلقي الخاص، وهو النبي الكريم.
- دلالة العموم بالنسبة للمتلقي العام فالخطاب للنبي وحده، والمعنى له وللمؤمنين جميعاً.

ث - العدول عن صيغة الجمع إلى صيغة المفرد:

نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾^(٣)

فالعدول يتمثل في قوله تعالى (يستمعون) فقد جاء بصيغة الجمع، ثم عدل بعد ذلك إلى صيغة المفرد في قوله (ينظر)، فجمع في الاستماع وأفرد في النظر، والضمير في كلا الفعلين يعود إلى المتحدث عنهم ذاتهم.

وقد بين الألوسي سر هذا التغير، فقال: وجمع الضمير الراجع إليه رعاية لجانب المعنى كما أفرد فيما بعد رعاية لجانب اللفظ، ولعل ذلك للإيماء إلى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع

(١) الطلاق: ١ .

(٢) روح المعاني (١٤ / ٣٢٤)

(٣) يونس: ٤٢-٤٣ .

على ما يتوقف عليه النظر من الشروط العادية أو العقلية" (١)

فقد راعى في الأول المعنى لأن كلمة «مَنْ» تطلق وقد يراد بها المفرد، وقد يراد بها المثني، وقد يراد بها الجمع، ومرة يطابق اللفظ مثل قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ) [الأنعام: ٢٥]. ومرة يقصد المعنى كما في الآية التي نحن في صددها، اذن (مَنْ) صالحة للموقعين، ثم راعى اللفظ في (ينظر) فجاء الفعل مفردا.

وما ذكره الألووسي وما أفاده سياق الكلام يبين أنهم يستمعون إليه وينظرون إليه ولا ينتفعون، فهم كالصم في عدم سماعهم، و النظرة هي واحدة، ومعينة دلائل النبوة لا يختلف عليها، وبالرغم من ذلك مستمرين في عنادهم وكفرهم.

وذكر صاحب التحرير والتنوير ملحظا بلاغيا آخر لهذا التغير الأدائي والتفنن فقال: والوجه أن كلا الاستعمالين سواء في مراعاة لفظ (من) ومعناها، فلعل الابتداء بالجمع في صلة (من) الأولى الإشارة إلى أن المراد ب (من) غير واحد معين وأن العدول عن الجمع في صلة (من) الثانية هو التفنن وكرامية إعادة صيغة الجمع لثقلها لا سيما بعد أن حصل فهم المراد، أو لعل اختلاف الصيغتين للمناسبة مع مادة فعلي (يستمع) و (ينظر) . ففعل (ينظر) لا تلائمه صيغة الجمع لأن حروفه أثقل من حروف (يستمع) فيكون العدول استقصاء لمقتضى الفصاحة." (٢)

ولا شك أن القرآن قد راعى هذه الخصائص الصوتية وجرس الكلمة والتي لها تأثير كبير في نفسية المتلقي، لكن ليس على حساب المعنى والدلالة، فاجتمعت المحاسن كلها في هذا التعبير القرآني.

ومن هذا الضرب أيضا ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١١﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ

﴿١١﴾ (٣)

فذكر الألووسي آراء مجموعة من العلماء حول العدول من الجمع إلى المفرد في هذه الآية

(١) روح المعاني (٦/ ١١٩)

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ١٧٩) وما بعدها.

(٣) الشعراء: ١٠٠-١٠١.

الكريمة، حيث خولف بين اسمي هذين الجنسين في حكاية كلامهم إذ جيء بشافعين جمعا، وبصديق مفردا، ثم بيدي وجهته فيقول: "والذي أميل إليه أن الأفراد على الأصل والجمع وإن أدى مؤداه على سنن ما كانوا يقولونه ويزعمونه في الدنيا من تعدد الشفعاء ولا يضر في ذلك كون المنفي هنا أعم من المثبت هناك من حيث شموله للأصنام . والكبراء . والملائكة . والأنبياء عليهم السلام كما هو المتبادر إلى الفهم" (١)

فهو يرى أن الأفراد في الصديق جاء على أصله لأن المراد جنسه دون عدد أفراده إذ لم يعنوا عددا معينا فبقي على أصل نفي الجنس، أما جمع الشافعين لأنهم أرادوا الآلهة الباطلة وكانوا يعهدونهم عديدين فجرى على كلامهم ما هو مرتسم في تصورهم. ولا يمنع هذا أن يكونوا أيضا من الملائكة والكبراء والأنبياء.

وقد يعدل القرآن الكريم عن جمع الكثرة إلى جمع القلة، ليؤدي معنى ووظيفة يحتاجها السياق ففي تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (٢)

يقول الألوسي "وفي إيثار جمع القلة إيدان بأن كفران نعم قليلة أوجبت هذا العذاب فما ظنك بكفران نعم كثيرة" (٣)

وقد يأتي جمع القلة تنبيها على أن ثمار الدنيا بكثرتها وتنوعها فهي قليلة بالنسبة لثمار الجنة أو للإشارة إلى جنسها، يقول تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۗ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤)

جاء في تفسيره: "وأتى بجمع القلة مع أن الموضع موضع الكثرة فكان المناسب لذلك من الثمار للإيماء إلى أن ما برز في رياض الوجود بفيض مياه الجود كالقليل بل أقل قليل بالنسبة لثمار

(١) روح المعاني . (١٠ / ١٠٣).

(٢) النحل: ١١٢.

(٣) روح المعاني . (٧ / ٤٧٧).

(٤) البقرة: ٢٢.

الجنة ، ولما ادخر في ممالك الغيب أو للإشارة إلى أن أجناسها من حيث إن بعضها يؤكل كله وبعضها ظاهره فقط وبعضها باطنه فقط ، المشير ذلك إلى ما يشير قليلة لم تبلغ حد الكثرة" (١)

رأى الألوسي أن الثمر المخرج بماء السماء كثير و قيل الثمرات دون الثمر أو الثمار تنبيهاً على قلة ثمار الدنيا وإشعاراً بتعظيم أمر الآخرة.

وفي قوله تعالى: ﴿ تُو سَوْنُهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ۝١﴾ (٢)

جاء السمع مصدراً مفرداً بين صيغ جمع جاءت أسماء، فبيّن الألوسي سر ذلك مستنداً إلى حقائق علمية، حيث "أفرد السمع لأنه مصدر وللإيماء إلى أن مدركه نوع واحد وهو الصوت بخلاف البصر فإنه يدرك الضوء واللون والشكل والحركة والسكون وبخلاف الفؤاد فإنه يدرك مدركات الحواس بواسطتها" (٣)

وكما ذكر الألوسي السر في أفراد المصدر، ذكر كذلك السر في جمعه، وإن كان يخالف القاعدة النحوية، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝٤﴾ (٤) يقول: "والظنون جمع الظن وهو مصدر شامل للقليل والكثير ، وإنما جمع للدلالة على تعدد أنواعه ، وقد جاء كذلك في أشعارهم أنشد أبو عمرو في كتاب الألمان :

إِذَا الْجَوْزَاءُ أَرْدَقَتِ الثَّرِيًّا ظَنَنْتُ بِآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا°

أي تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة" (٦)

فالجمع جاء لكثرة الهواجس والأفكار التي تدور في رؤوسهم وتعدد أنواعها.

(١) روح المعاني . (١ / ١٩١)

(٢) السجدة: ٩.

(٣) روح المعاني . (١١ / ١٢٢).

(٤) الأحزاب: ١٠.

° البيت لخزعة القضاعي، ينظر: المعجم المفصل في شواهد العربية، اميل بديع يعقوب، ج ٨ ص ٥٣

(٦) روح المعاني . (١١ / ١٥٤).

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ** ﴾ (١)

قال الألوسي: " وإيراد ضمير العقلاء مع أن الأصنام مما لا يعقل إنما هو بحسب اعتقادهم فيها وإجرائهم لها مجرى العقلاء وتسميتهم لها آلهة ". (٢)
في هذه الآية جمع مالا يعقل جمع مذكر سالم بناء على ما يعتقده المشركون من أن أصنامهم تعقل وتميز.

منه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (٣)

وجمع الخبر في قوله "أمانيتهم" مع أن ما أشير إليه أمنية واحدة ليدل على تردد الأمنية في نفوسهم وتكررها فيها وأيضا فقائله متعدد وهو باعتبار لكل قائل أمنية" (٤)

والجمع باعتبار صدوره عن الجميع، أو وقولهم: «لن يدخل الجنة» أمنية واحدة أشير بها إلى الأمانى وهو أمانيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأمانيتهم أن يردوهم كفاراً ، وأمانيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم : أي تلك الأمانى الباطلة أمانيتهم (٥)

وقد نجد في القرآن الكريم بعض المفردات لا تستعمل إلا مفردة أو جمعا، وأرجع الألوسي ذلك للعرف اللغوي، أي تعارف العرب في استعمالها بصيغة معينة، ولكن المتأمل والمدقق في هذه المفردات لا بد أن يعرف السر وراء ذلك، ومن هذه الكلمات: العم والخال والتي لا تأتي إلا مفردة، وجمعت العمه والخالة نحو قوله تعالى: ﴿ **يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ اللَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ** ﴾ (٦) يقول الألوسي مستشهدا بأشعار العرب على صحة ما ذهب إليه: " أن ما ذكر

(١) الأعراف: ١٩١.

(٢) روح المعاني . (٥/ ١٣٣).

(٣) البقرة: ١١١.

(٤) روح المعاني . (١/ ٣٥٨).

(٥) ينظر: الكشاف (١/ ٢٠٣).

(٦) الأحزاب: ٥٠.

عرف لغوي على معنى أنه جرى عرف اللغويين في مثل ذلك على أفراد العم والحال وجمع العمه والحالة ، ونحن قد تتبعنا كثيراً من أشعار العرب فلم نر العم مضافاً إليه ابن أو بنت بالإفراد أو الجمع إلا مفرداً نحو قوله :

جاء شقيق عارضاً رحمه ... إن بني عمك فيهم رماح

وقوله:

يا بنت عما لا تلومي واهجعي ... فليس يخلو عنك يوماً مضجعي" (١)

ويرجع السر في هذا الاستعمال إلى " أن يكون الداعي لإفراد العم والحال الرجوع إلى أصل واحد مع ما بين الذكور من جهة العمومة والخؤولة في حق الشخص المدلى بهما من التناصر والتساعد فلذلك ترى الشخص يهرع لدفع بليته إلى ذكور عمومته وخؤولته، وذلك التعاضد يجعل المتعدد في حكم الواحد" (٢)

ومن دقة التعبير في اللغة العربية، وجود ألفاظ يستوي فيها المفرد والجمع مثل كلمة الضيف والتي لم ترد إلا مفردة في مقام الجمع وذلك في خمسة مواضع من التنزيل الحكيم، وارجع الألوסי ذلك من باب الفصاحة، وهو في الأصل مصدر والأفصح أن لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث للمثنى والجمع والمؤنث" (٣).

ومن هذا الباب أيضا نجد كلمة **الطفل** التي وردت في قوله تعالى: ﴿ **أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي** **الْإِزْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ** ﴾ (٤) ، نلاحظ هنا أن الطفل مفرد، لكن وُصِفَ بالجمع (الذين لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .)، وارجع ذلك لكونه مصدرا يصح فيه الإفراد والجمع (٥)

والحق أن رأي الألوسي لا يعدوا أن يكون مجرد تحريجات أو تبريرات لغوية للظاهرة، ولم يلتفت

(١) روح المعاني (١١ / ٢٣٤)،

(٢) المصدر نفسه (١١ / ٢٣٤)

(٣) المصدر نفسه (٧ / ٣٠٤).

(٤) النور: ٣١.

(٥) ينظر: روح المعاني . (٩ / ٣٤٠).

للجانِب الدلالي، أو دوره التعبيري المتناغم مع سياقها الذي وردت فيه .

ويرى الشيخ الشعراوي رأياً وجيهاً في تعليل هذا العدول فجاء في تفسيره: " هذه سِمَة من سمات اللغة، وهي الدقة في التعبير، حيث تستخدم اللفظ المفرد للدلالة على المثنى وعلى الجمع.... كذلك الحال في (الطفل . .) [النور : ٣١] مع أن المراد الأطفال، لكن قال (الطفل) لأن غرائزه مشتركة مع الكل، وليس له هوى، فكل الأطفال - إذن - كأنهم طفل واحد حيث لم يتكوّن لكل منهم فكره الخاص به، الجميع يحب اللهو واللعب، ولا شيء وراء ذلك، فالجمعية هنا غير واضحة لوجود التوحيد في الغرائز وفي الميول .

بدليل أنه إذا كَبِرَ الأطفال وانتقلوا إلى مرحلة البلوغ وتكوّن لديهم هوى وفكر وميل يقول القرآن عنهم: (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ . .) [النور : ٥٩] فنظر هنا إلى الجمع لعدم التوحد في مرحلة الطفولة المبكرة.^(١)

ففي هذه الآية جاءت كلمة الطفل بالمفرد والمقصود به في التعبير القرآني هو توجيه النظر إلى الإنسان الطفل ببراءته الذي ليس له هوى ولا ميول، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ) [الذاريات : ٢٤] فوصف ضيف وهي مفرد بالجمع (مكرمين)، وهذا للتنبية على أن معاملة سيدنا إبراهيم للملائكة أو الضيوف كان مثل معاملة واستقبال الضيف الواحد فلا يفرق بين أحد منهم.

(١) خواطر الشعراوي (١٦ / ١٠٢٥٩).

ثالثا - الأفعال والأبنية:

(١) معاني الأبنية الصرفية ودلالاتها:

للصيغ و الأبنية دور مهم؛ كونها هي التي تعطي معنى لمادة الكلمة، وهي التي تعطي لها أشكالها أو صورها، وهي التي تحدد لها دلالاتها الصرفية والسياقية فلكل من الأسماء المشتقة كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، واسم التفضيل، واسمي الزمان والمكان دلالة ومعاني مختلفة، وكذلك لأبنية الأفعال بمختلف أنماطها دلالات متنوعة.

والملاحظ في الأبنية القرآنية أنها استعملت على وفق أمرين:

الأمر الأول أنها استعملت على وفق الدلالات المشهورة المعروفة من معاني الأبنية من المصادر وصيغ المبالغة والجموع وغيرها مما هو مقرر في كتب اللغة.

والأمر الآخر أنه خص أبنية بدلالات خاصة كالأعين والعيون، والقعود والقاعدین، والصوم والصيام وغيرها. إذ القرآن لا يستعمل بناءين مختلفين من مادة لغوية واحدة بدلالة متماثلة بل لا بد أن يخص بناء أو لفظا باستعمال معين أو دلالة خاصة" (١).

وقد كانت للألوسي نظرات وآراء لطيفة حول الأبنية القرآنية، حاولت تتبعها في تفسيره وإبرازها ومعرفة الإضافات الدلالية التي أتى بها.

فنجد مثلا أن القرآن عبر عن شدة الاهتمام والتكلف، بالفعل الذي يأتي على وزن **تفعل**، لأن هذه الصيغة تضيف إلى الفعل معنى زائدا. يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ (٢) "و- القبول - مصدر مؤكد للفعل السابق بحذف الزوائد أي قبلها قبولا حسنا، وعدل عن الظاهر للإيذان بمقارنة التقبل لكمال الرضا وموافقته للعناية الذاتية فان صيغة التفعل مشعرة بحسب أصل الوضع بالتكلف وكون الفعل على خلاف طبع الفاعل وإن كان المراد بها في حقه تعالى ما يترتب عليه من كمال قوة الفعل وكثرته" (٣)

(١) من أسرار البيان القرآني، فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان - الأردن الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٩م ص ٧

(٢) آل عمران: ٣٧.

(٣) روح المعاني. (٢/ ١٣٣) وما بعدها

عدل النظم القرآني عن الفعل قبل إلى تقبل وهو من باب التفعّل الذي يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار ذلك الفعل كالتصبر والتجلد ونحوهما فإنهما يفيدان الجهد في إظهار الصبر والجلادة، فكذا ههنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول .

ومنه أيضا الفعل (تخلت) في قوله تعالى: ﴿ وَالْقَتِّ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ (١)

يقول أبو الثناء: "وَتَخَلَّتْ أَي وَخَلَّتْ عَمَّا فِيهَا غَايَةَ الْخُلُوِّ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ كَأَنَّهَا تَكَلَّفَتْ فِي ذَلِكَ أَقْصَى جَهْدِهَا فَصِيغَةُ التَّفَعُّلِ لِلتَّكْلُفِ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ الْمُبَالَغَةُ كَمَا فِي قَوْلِكَ : تَحَلَّمَ الْحَلِيمُ ، وَتَكْرَمَ الْكَرِيمُ" (٢)

وعن السر في اختيار صيغة التفعّل في قوله تعالى: ﴿ وَفَلَكُم مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ (٣) يقول: "وفي التعبير بـيتخَيرون دون يَخْتارون وإن تقاربا معنى إشارة لمكان صيغة التفعّل إلى أنهم يأخذون ما يكون منها في نهاية الكمال وأنهم في غاية الغنى عنها" (٤)
ففعّل يتخَيرون يفيد قوة الاختيار.

وعند نهي الله سبحانه وتعالى نبيه بعدم الحزن لم يرد بصيغة الأمر، فلم يقل له _لا تحزن_ بل جاء بصيغة أخرى للمبالغة في النهي وهي _وَلَا يَحْزُنْكَ_ ، حيث وردت في ستة مواضع من القرآن الكريم وعن الدلالة التي تحملها هذه الصيغة يقول الألوسي: " (وَلَا يَحْزُنْكَ) من أحزن وهو في الحقيقة نهي له صلى الله عليه وسلم عن الحزن كأنه قيل : لا تحزن بقولهم ولا تبال بكل ما يتفوهون به في شأنك مما لا خير فيه ، وإنما عدل عنه إلى ما في النظم الجليل للمبالغة في النهي عن الحزن لما أن النهي عن التأثير نهي عن التأثير بأصله ونفى له بالمرّة ، ونظير ذلك كما مر غير مرّة قولهم لا أرينك ههنا ولا يأكلك السبع ونحوه" (٥)

والمقصود من مثل هذا التركيب نهي النبي عليه الصلاة والسلام عن أن يتأثر بما شأنه أن يحزن

(١) الانشقاق: ٤ .

(٢) روح المعاني . (١٥ / ٢٨٧)

(٣) الواقعة: ٢٠ .

(٤) روح المعاني . (١٤ / ١٣٧)

(٥) روح المعاني . (٦ / ١٤٤) .

الناس من أقوالهم ، فلما وجه الخطاب إليه بالنهي عن عمل هو من عمل غيره تعين أن المراد بذلك الكناية عن نهيه هو عن حصول ذلك الحزن في نفسه فيؤول إلى معنى لا تترك أقوالهم تُحزنك، مبالغة في النهي عن الحزن.

ويعدل القرآن عن اسم المفعول إلى اسم المصدر كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَظَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَظَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (١)

يقول الألوسي: " (مِنْ عَظَاءِ رَبِّكَ) أي من معطاه الواسع الذي لا تنتهي له فهو اسم مصدر واقع موقع اسم المفعول متعلق بنمد مغن عن ذكر ما به الإمداد ومنبه على أن الإمداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعي والعمل به بمحض التفضل كما قيل : (وَمَا كَانَ عَظَاءُ رَبِّكَ) أي دنيوياً كان أو أخروياً " (٢). فتفيد هذه الصيغة التوسع في المعنى.

وقد يعدل القرآن الكريم عن الفعل إلى اسم المفعول كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ (٣) ، وعن سر هذا العدول يقول الألوسي: " وعدل في الفعل وكان الظاهر ليدل الكلام على ثبوت معنى الجمع وتحقق وقوعه لا محالة وأن الناس لا ينفكون عنه فهو أبلغ من قوله تعالى : (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ) [التغابن : ٩] وإيضاحه أن في هذا دلالة على لزوم الوصف ولزوم الإسناد، وفي ذلك على حدوث تعلق الجمع بالمخاطبين واختصاصه باليوم " (٤)

فاختيار اسم المفعول والذي هو (مجموع) بدل من فعل المستقبل والذي هو (يجمع) لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه الموصوف بهذه الصفة.

ويعدل القرآن الكريم عن الصفة المشبهة إلى اسم الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ (٥)

(١) الإسراء: ٢٠.

(٢) روح المعاني . (٨ / ٤٦)

(٣) هود: ١٠٣.

(٤) روح المعاني . (٦ / ٣٣٢).

(٥) هود: ١٢.

وثمة فرق واضح بينهما "فاسم الفاعل أدوم واثبت من الفعل ولكنه لا يرقى إلى تبوُّث الصفة المشبهة فإن كلمة (قائم) أدوم و أثبت من قام أو يقوم ولكن ليس تبوُّثها مثل تبوُّث طويل أو دميم أو قصير فإنه يمكن الانفكاك عن القيام إلى الجلوس أو غيره ولكن لا يمكن الانفكاك عن الطول أو الدمامة أو القصر.

وقد تكون هناك صفات مشبهة يمكن الانفكاك عنها كعطشان وصديان ولكن يبقى الخلاف بينها وبين اسم الفاعل واضحا^(١)

وبين الألووسي الدلالة التي يحملها هذا العدول بقوله: "وعدل عن ضيق الصفة المشبهة إلى - ضائق - اسم الفاعل ليدل على أن الضيق مما يعرض له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحيانا ، وكذا كل صفة مشبهة إذا قصد بها الحدوث تحول إلى فاعل فتقول في سيد وجواد وسمين مثلا : سائد وجائد وسامن"^(٢)

فالقرآن الكريم جاء باسم الفاعل ليصف حالة عارضة في صفات وأخلاق الرسول عليه السلام، الذي كان افسح الناس صدرا، ولم تكن صفة دائمة فيه.

ويعدل القرآن الكريم عن مصدر مشهور إلى مصدر آخر لوجود خاصية ومعنى لا تجده في غيره، وهذا نحو مصدر الفعل حصد ،يقول الألووسي في قوله تعالى: ﴿وَعَاثُوا حَقَّهُ وَيَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٣) "وعدل عن حصده وهو المصدر المشهور لحصد إليه لدلالته على حصد خاص وهو حصد الزرع إذا انتهى وجاء زمانه"^(٤)

والحصاد هو مصدر على وزن الفاعل . من المصادر التي تدل على انتهاء الزمان على مثال الصرام والجزاز والجداد والقطاع والحصاد، فإذا أرادوا الفعل على فعلت قالوا حصدته حصدا وقطعته قطعاً إنما تريد العمل لا انتهاء الغاية^(٥)

(١) ينظر: معاني الأبنية، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الاردن، ط٢، ٢٠٠٧ م، ص ٤١ وما بعدها

(٢) روح المعاني . (٦ / ٢٢١)

(٣) الأنعام: ١٤١ .

(٤) روح المعاني . (٤ / ٢٨٢).

(٥) ينظر: الكتاب لسيبويه (٤ / ١٢)

٢) صيغ الأفعال وأزمنتها:

وفي هذا المطلب نقوم بدراسة عدول الأفعال في السياق القرآني وهو التحول الحاصل من إعادة ذكر الفعل على نسق مخالف لما سبق ذكره في السياق نفسه، وهذه الظاهرة من أبرز الظواهر الأسلوبية في التعبير القرآني، وقد توقف علماءنا عند هذا النوع من التحول وعدّوه ضرباً من البلاغة، يقول ابن الأثير: "واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان، أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارها، وفتش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكال ضروب علم البيان، وأدقها فهما، وأغمضها طريقاً" (١).

وهذه التحولات في السياق القرآني، تفاجئ المتلقي وتثير دهشته؛ لخروجها عن المتوقع لديه من اطراد السياق على نمط واحد من المطابقة والمشاكلة، مما يدعو ذلك المتلقي البحث عن مثيراتها السياقية، وأبعادها الدلالية.

ومن ذلك التحول من الفعل المبني للفاعل إلى الفعل المبني للمفعول في سياق واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٥١﴾﴾ (٢)

جاء في تفسير الألوسي: "وبنى فعله للمفعول إشعاراً بأنهم لا يتعاطون ذلك بأنفسهم وإنما يفعله الخدم كما قال الشاعر:

غَرَائِرُ فِي كَنٍّ وَصَوْنٍ وَنِعْمَةٌ يُحَلِّينَ يَاقوتاً وَشَدراً مُفَقَّراً^٣

وكذلك سائر الملوك في الدنيا يلبسهم التيجان ونحوها من العلامات المرصعة بالجواهر خدمهم، وأسند اللبس إليهم لأن الإنسان يتعاطى ذلك بنفسه خصوصاً إذا كان فيه ستر العورة" (٤)

يرى الألوسي أن التحلية هنا للزينة، وليست من الضروريات، فجاء الفعل {يُحَلَّوْنَ} أي:

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير (٢/ ١٤٥)

(٢) الكهف: ٣١.

^٣ البيت لامرئ القيس، ينظر: المعجم المفصل في شواهد العربية، إميل يعقوب، ج ٣ ص ١٣٥

(٤) روح المعاني. (٨/ ٢٥٩)

حلالهم غيرهم ولم يقل يتحلون؛ لذلك لما تكلم بعدها عن الملبس، وهو من الضروريات قال: {وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ} فأتى بالفعل مبنياً للمعلوم؛ لأن الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل.

ويعدل القرآن الكريم عن صيغة الماضي إلى صيغة المستقبل للدلالة على التجدد والاستمرار ولاستحضار صورة ماضية كأنها مشاهدة، وأكثر ما تكون هذه الصورة غريبة أو بديعة.

كقوله تعالى: ﴿وَمَا نُزِينُكَ بِعَظْمِ الَّذِينَ نَعَدُهُمْ أَوْ تُؤَفِّيَنَّاكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (١)

والمراد من (نَعَدُهُمْ) وعدناهم في الماضي إلا أنه عدل إلى صيغة الاستقبال "لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار أن نعدهم وعداً متجدداً حسبما تقتضيه الحكمة من إنذار عقب إنذار" (٢)

وقد يعطف الفعل المضارع على الفعل الماضي لاستحضار الحالة الماضية والتجدد ولرعاية الفاصلة كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (٣)

جاء في روح المعاني: "والتعبير بيقتلون مع أن الظاهر قتلوا ككذبوا لاستحضار الحال الماضية من أسلافهم للتعجيب منها ولم يقصد ذلك في التكذيب لمزيد الاهتمام بالقتل، وفي ذلك أيضا رعاية الفواصل، وعلل بعضهم التعبير بصيغة المضارع فيه، بالتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر فهم بعد يحومون حول قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم" (٤)

ففي هذه الآية نجد توافق وانسجام الدلالة الزمنية للسياق الداخلي من خلال الإخبار عن سبق من بني إسرائيل بصيغة ضمير الغائب (إليهم، جاءهم، أنفسهم) مع السياق الخارجي للزمن الماضي، وبناءً على ذلك فتتصرف دلالة الفعل المضارع "يقتلون"، في الحالة هذه إلى استحضار

(١) يونس: ٤٦.

(٢) روح المعاني. (٦/ ١٢٣).

(٣) المائة: ٧٠.

(٤) روح المعاني. (٣/ ٣٧٠).

الصورة لا غير، وفيه دلالة استمرار الحدث وتجدده، يقول الزمخشري: "جاء "يقتلون" على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحالة الشنيعة للتعجيب منها"^(١).

ومما سبق ذكره يمكننا الجمع بين دلالات هذه السياقات المختلفة، لنقول: إن دلالة الفعل "يقتلون" تفيد استحضار صورة قتل الأجداد للأنبياء تبشيعاً لقبح فعلتهم، وذلك من سياق الإخبار عنهم بضمير الغائب، وفيه دلالة على استمرار الحدث وتجدد حصوله من الأبناء والأحفاد وذلك من سياق الخطاب، وفيه تبييس من تحقق ذلك وحصوله في حق هذا النبي صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى المحسن اللفظي والذي يتمثل في رعاية الفاصلة.

وهذا يعد من بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، فقد تم توظيف القيمة الزمنية في صياغة الفعل للحصول على مساحة تتعدد فيها الدلالات للنص وتتسع.

ومن المضارع إلى الماضي، نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ﴾^(٢) فجاء بالفعل (يولج) مضارعاً لأن ذلك يتجدد في كل لحظة، وجاء بالفعل (سخر) ماضياً لأن ذلك لا يتجدد بتجدد الايلاج.

يقول الألوسي: "وعطف قوله سبحانه سَخَّرَ على قوله تعالى يُولِجُ والاختلاف بينهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوك في الآخر متجدد في كل حين وأما التسخير فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد"^(٣) وللتحول من الماضي إلى المضارع دلالات تخرج عن دلالة استحضار الصورة إلى معانٍ أخرى يوحى بها السياق القرآني الكريم، من ذلك دلالة التلطف في الخطاب، وكثرة وقوع الفعل وتكراره، أو تجدده واستمراره، فمن دلالة التلطف في الخطاب قوله تعالى: (قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ)^(٤).

لقد كان من المتوقع لدى المتلقي أن يجري السياق على نمط واحد فيكون (قل لا تسألون عما

(١) الكشاف. (١/ ٦٩٤).

(٢) لقمان: ٢٩.

(٣) روح المعاني. (١١/ ١٠٠).

(٤) سبأ، ٢٥.

أجرمنا ولا نسأل عما أجرمتكم)، ولكن السياق القرآني تحول عن الظاهر والمتوقع تحولين، تحولاً معجمياً عن لفظة "أجرم" إلى لفظة "عمل"، وتحولاً نحوياً عن الماضي أجرمنا إلى المضارع تعملون.

وعلى ذلك الألوسي قائلاً: "وهذا أبلغ في الإنصاف، حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو منها مؤمن بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس، وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبر عن الهفوات، وأسند للمخاطبين، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجماع المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك" (١).

وهذا أسلوب غاية في الكسب للخصم إلى جانب المتحدث، وطريق بارع في التغاضي عن هفوات الخصم، ووسيلة لتحريك دوافع التفكير في المقول، مما يشير إلى وعي الداعية إلى الله في الأسلوب الذي يدعو به الناس (٢).

كما يعدل القرآن الكريم عن اسم الفاعل إلى الفعل، نحو قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا﴾ (٣) حيث عطف الفعل (ذلت) على اسم الفعل (دانية) وجاء هذا العدول لمعنى دلالي بينه الألوسي بقوله: "ونكتة التخالف أن استدامة الظل مطلوبة هنالك والتحدد في تذليل القُطُوف على حسب الحاجة" (٤).

ويأتي الفعل المضارع في القرآن الكريم للتصوير ولاستحضار صورة معينة، وللاعتناء بمضمون الفعل وفي مواضع لا يصلح التعبير فيها إلا بالفعل المضارع دون الصيغ الفعلية أو الاسمية الأخرى، نحو قوله تعالى: ﴿* إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالتَّوَيُّ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ نُوْفُكُوتِ﴾ (٥).

كان الأصل أن يؤتى بصيغة اسم الفاعل أسوة بأمثاله (فالق/ مخرج) في الآية إلا أنه عدل

(١) روح المعاني. (١١/ ٣١٥).

(٢) ينظر: التعبير القرآني والدلالة النفسية، عبد الله الجيوسي، رسالة دكتوراه الجامعة الإسلامية، ماليزيا، ٢٠٠١م. ص ١٩٩

(٣) الإنسان: ١٤.

(٤) روح المعاني. (١٥/ ١٧٦).

(٥) الأنعام: ٩٥.

عن ذلك إلى المضارع (يخرج) وفائدة هذا العدول هو إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع وذلك إنما يتأتى بالمضارع دون اسم الفاعل والماضي، ومثله قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) [الحج: ٦٣] عدل فيه عن الماضي المطابق لأنزل إلى المضارع، ومنه شعرا قول امرئ القيس:

بَأْنِي قَدْ لَقِيتُ الْعَوْلَ تَهْوِي بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهْشٍ فَخَرَّتْ صَرِيحاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ^١

فإنه عدل فيه إلى المضارع إرادة لتصوير شجاعته واستحضارها لذهن السامع إلى ما لا يحصى كثرة، وهو يجيء فيما تكون العناية فيه أقوى، جاء في تفسير الألوسي "ولا شك أن إخراج الحي من الميت أشهر في القدرة من عكسه وهو أيضا أول الحالين والنظر أول ما يبدأ فيه ثم القسم الآخر ناشيء عنه فكان الأول جديراً بالتصوير والتأكيد في النفس ولذلك هو مقدم أبداً على القسم الآخر في الذكر حسب ترتيبهما في الواقع، وسهل عطف الاسم على الفعل وحسنه أن اسم الفاعل في معنى المضارع وكل منهما يقدر بالآخر فلا جناح في عطفه عليه"^(٢) وإضافة إلى سمة العدول في هذه الآية ودلالة المعنى، أشار الألوسي إلى الجاني الصربي الذي حسن هذا العدول.

وكلام الألوسي قريب مما أتى به الرازي وهو "أن لفظ الفعل يدل على أن ذلك الفاعل يعتني بذلك الفعل في كل حين وأوان وأما لفظ الاسم فإنه لا يفيد التجدد والاعتناء به ساعة فساعة... إذا ثبت هذا فنقول الحي أشرف من الميت فوجب أن يكون الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحي فلهذا المعنى وقع التعبير عن القسم الأول بصيغة الفعل وعن الثاني بصيغة الاسم تنبيهاً على أن الاعتناء بإيجاد الحي من الميت أكثر وأكمل من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي"^(٣)

ويوظف القرآن الكريم الفعل الماضي في موضع الفعل المضارع، فيدل الفعل الماضي على تحقق

^١ البيت لتأبط شرا: ينظر: الديوان، جمع وتحقيق علي ذو الغفار، دار الغرب الاسلامي، ط ١، ١٩٨٤م ص ٢٢٤
^(٢) روح المعاني. (٤/ ٢١٥).

(٣) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب المشتهر بـ (تفسير الرازي)، للأمام محمد الرازي فخر الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ٢٠٠٠ (١٣/ ٧٦) وما بعدها

الوقوع، ورأى الألوسي أنه كثيرا ما يقع في الأخبار عن أحوال وأحداث يوم القيامة نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (١)

جاء في تفسيره: "والتعبير بالماضي لتحقيق الوقوع وأكثر أحوال القيامة يعبر عنها بذلك في القرآن" (٢)

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٣)

يقول الألوسي: "وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا أي يبرزون يوم القيامة ، وإيثار الماضي لتحقيق الوقوع" (٤) ومن المواضع الأخرى في القرآن الكريم التي وصفت مشاهد يوم القيامة وأفاد الفعل الماضي تحقق الوقوع نجد:

قوله تعالى: ﴿ وَلَٰئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولَنَّ مَا يَجْسُرُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٥)

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴾ (٦)

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (٧)

وقوله تعالى: ﴿ وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٨)

(١) يونس: ٦٠.

(٢) روح المعاني . (٦ / ١٣٥)

(٣) إبراهيم: ٢١.

(٤) روح المعاني . (٧ / ١٩٤)

(٥) هود: ٨. ينظر: روح المعاني . (٦ / ٢١٥)

(٦) هود: ١٠٨. ينظر: روح المعاني . (٦ / ٣٤١)

(٧) المؤمنون: ٧٧. ينظر: روح المعاني (٩ / ٢٥٦)

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ (٨٧) ﴿ (٢)

وقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ (٥١) ﴿ (٣)

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَتَوَلَّىٰ هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٦) ﴿ (٤)

هذه أهم المواضع في القرآن الكريم التي وصفت مشاهد يوم القيامة، وهو أسلوب مطرد في النظم القرآني، حيث أفاد الفعل الماضي تحقق الوقوع.

كما يأتي الفعل المضارع لحكاية حال ماضية واستحضار صورة معينة:

قد تكون صورة فظيعة يقول الألويسي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَتَجِدَنَّهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦١) ﴿ (٥) أي بما عملوا بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة مع ما في ذلك من رعاية الفواصل" (٦)

أو لغرابتها كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) ﴿ (٧) "والتعبير عن النداء بصيغة المضارع مع تقدمه على النزول لاستحضار الصورة الماضية لغرابتها" (٨).

وهذا النداء وقع قبل نزول الآية فالتعبير بصيغة المضارع في ينادونك لاستحضار حالة ندائهم وما تحمله من غرابة.

(١) الشعراء: ٩٠. ينظر: روح المعاني (١٠ / ١٠٠)

(٢) النمل: ٨٧. ينظر: روح المعاني (١٠ / ٢٤٣)

(٣) يس: ٥١. ينظر: روح المعاني (١٢ / ٣١)

(٤) الصافات: ٢٠. ينظر: روح المعاني (١٢ / ٧٧)

(٥) البقرة: ٩٦.

(٦) (٦) روح المعاني (٣ / ٣٧١).

(٧) الحجرات: ٤.

(٨) روح المعاني (١٣ / ٢٩٣).

أو لاستحضار صورة بديعة كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ (١٦) ﴿ (١)

يقول الألوسي: " وصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية استحضاراً لصورتها البديعة" (٢)

وهنا سؤال يطرح وهو أن الفعل الماضي أيضا يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل، ويمكن الإجابة على هذا السؤال أن التخيل يقع في الفعلين معاً، لكنه في أحدهما وهو المستقبل أؤكد وأشد تخيلاً من الفعل الماضي؛ لأن المضارع يستحضر صورة الفعل، حتى كأن السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه (٣)

يتبين مما سبق أن العدول الصرفي أسلوب من أساليب إنتاج الدلالة وإثرائها، وهو يفتح الباب للصيغة على تعدد الدلالة، وخاصة العدول بين الأفعال والمشتقات حيث تجعل العبارة تقبل أكثر من قراءة انطلاقاً من تعدد المعنى في أي عدول ، وهو ما أشار إليه الألوسي في مواضع عديدة من صفحات تفسيره.

(١) النجم: ١٦

(٢) روح المعاني . (١٤ / ٥١).

(٣) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير (٢ / ١٤).

رابعاً- التعريف والتنكير:

يعد هذا المبحث أقرب إلى النحو منه إلى البلاغة، حيث توسعت كتب النحو في الحديث عن التعريف وأدواته والتنكير وما يتعلق به، إلا أن البيانين اهتموا بأغراضه في الكلام، كما درسوا الدواعي التي تقتضي التنكير.

والمعرفة هي ما دلت على شئ بعينه، والنكرة ما دلت على شئ لا بعينه^(١). وفائدة التعريف إجمالاً أن المعرفة أخص من النكرة، وكلما كانت أخص، كانت تامة وواضحة للدلالة على المراد، لكونه أقل احتمالاً لغير المراد من النكرة.

أ- التعريف ودلالاته:

١) التعريف باللام:

لقد عنى النحاة ببيان أقسام "لام" التعريف وفروعها، أما علماء البلاغة فقد التفتوا إلى مضمون "ال" وما يدل عليه التعريف بها في النص الأدبي من دلالات زائدة عن التعريف الذي هو الأصل فيها، والتعريف بها يستمد قيمته وأهميته مما يصحبه من عمليات ذهنية يقوم بها المتكلم أو المخاطب عند استعمالها في سياق بعينه دون غيرها من أدوات التعريف، و"تعمل الأداة (ال) على ربط الأسلوب بعبئه ببعض، فتجعله حياً متماسكاً، وتوقظ ذهن القارئ، وتحركه، وتشحذه"^(٢). وهي تفيد معاني ودلالات تكتسبها من السياق"^(٣). وأهم الدلالات التي وردت في القرآن الكريم نجد:

التعريف باللام للحقيقة:

فتفيد معنى القصر واستغراق جميع خصائص الأفراد في معرفتها على وجه الكمال، كما في قوله

تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾^(٤)

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٢/ ٨)

(٢) ينظر: من بلاغة النظم العربي (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني)، د. عبد العزيز عبد المعطي عرفه، عالم الكتب، بيروت. ط ٢، ١٤٠٥ هـ. ١٩٨٤ م. ١٥٤.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز ١٨٧ - ١٨٩.

(٤) البقرة: ٢.

يقول الألوسي : "واللام في الكتاب للحقيقة مثلها في أنت الرجل والمعنى ذلك هو الكتاب الكامل الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب لغاية تفوقه على بقية الأفراد في حيازة كمالات الجنس حتى كأن ما عداه من الكتب السماوية خارج منه بالنسبة إليه " (١)

ومن الشواهد للام التعريف التي أفادت معنى القصر والكمال ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ (٢) يقول الألوسي: " وَاللَّهُ الْغَنِيُّ لا غيره عز وجل وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ الكاملون في الفقر " (٣)

فقد ألمح إلى القصر بقوله "لا غيره" مما يفيد أن هذا التركيب "والله الغني" أفاد بتعريف طرفيه معنى القصر، وصرح بأن "أل" التي في المسند تفيد الكمال.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُّوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (٤)

جاء في تفسيره: «(السحر) خبر وأل فيه للجنس والتعريف لإفادة القصر إفراداً أي الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وملؤه من آيات الله تعالى سحراً وهو للجنس.» (٥)

وعارض الألوسي الفراء (ت ٢٠٧ هـ) في جعل التعريف في هذه الآية للعهد (٦)، وذلك لاشتراطه وجود اتحاد بين المتقدم والمتأخر ذاتا في تعريف العهد كما في قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ (٧)، والاتحاد منعدم في الآية السابقة لأن السحر المتأخر هو ما جاء به موسى عليه السلام، والمقدم هو ما جاء به سحرة فرعون (٨)

(١) روح المعاني. (١/ ١٠٩)

(٢) محمد: ٣٨.

(٣) روح المعاني. (١٣/ ٢٣٦)

(٤) يونس: ٨٠-٨١.

(٥) روح المعاني. (٦/ ١٥٦)

(٦) ينظر: معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط ١، دت. (١/ ٤٧٥)

(٧) المزمّل: ١٥-١٦.

(٨) ينظر: روح المعاني. (٦/ ١٥٦)

وتأتي "ال" للتعريف العهدي، ويشترط فيه اتحاد المتقدم والمتأخر كما ذكرنا سابقا، وهذا نحو ما ورد في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴾ (١)

جاء في تفسيره "واللام في الحق والباطل للعهد أي لا تخلطوا الحق المنزل في التوراة بالباطل الذي اخترعتموه وكتبتموه" (٢)

ويأتي التعريف "بال" للاستغراق:

نحو قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ (٣)

قال الألوسي: "والمراد بالسماء هنا الأفق والتعريف للاستغراق لا للعهد الذهني كما ينساق لبعض الأذهان فيفيد أن الغمام آخذ بالآفاق كلها فيشعر بقوة المصيبة مع ما فيه من تمهيد الظلمة ولهذا القصد ذكرها" (٤)

وتعريفها للإيدان بأن انبعاث الصيب ليس من أفق واحد بل لاستغراق كل أفق من آفاق السماء أي كل ما يحيط به كل أفق منها سماء.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَسْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٥) أي: "كله على أن تعريف الرزق للاستغراق" (٦)، وما كان يمكن الوصول إلى هذا هذا القصر في المعنى لو أن الرزق قد جاء على صورة النكرة فلو قيل: (ابتغوا عند الله رزقا) ما كان هذا القول حائلا دون فهم التعدد لمصادر الرزق.

ويأتي التعريف بالأداة للعهد التقديري، أو ما يسمى بالعهد الكنائسي ففي قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا

(١) البقرة: ٤٢.

(٢) روح المعاني - (١/ ٢٤٨).

(٣) البقرة: ١٩.

(٤) روح المعاني - (١/ ١٧٣).

(٥) العنكبوت: ١٧.

(٦) روح المعاني (١٠/ ٣٤٩).

وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ﴿١﴾

يقول الألوسي: " واللام في الذكر والأنثى للعهد ، أما التي في الأنثى فليسبق ذكرها صريحاً في قوله سبحانه حكاية : (إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى) وأما التي في الذكر فلقولها : (إِنِّي نَذَرْتُ) [آل عمران : ٣٥] الخ إذ هو الذي طلبته والتحرير لا يكون إلا للذكر وسمي هذا العهد التقديري وهو غير الذهني لأن قولها : (مَا فِي بَطْنِي) [آل عمران : ٣٥] صالح للصنفين" (١)

فلم يسبق ذكر لفظ الذكر صراحة، لكنه سبق ذكره على سبيل الكناية، لأنها قالت: (إني نذرت لك ما في بطني محررا) وعتق المولود لخدمة بيت المقدس لم يكن إلا للذكور، فلفظ "ما" في كلامها قد كنت به عن مولود ذكر.

وأشار الألوسي في مواضع كثيرة من تفسيره إلى أن التعريف باللام قد يكون للعهد أو للجنس، وهذا حسب المعاني المحتملة للآية الكريمة.

نحو قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢)

واللام إما للعهد ووضع الظاهر موضع المضمرة إيداناً بأن ما حكى عنهم من باب الإحسان، وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً وفيه على كلا التقديرين ترغيب للمؤمنين في تحصيل ما حكى من المناقب الجليلة " (٤).

وأشار ابن عاشور أن التعريف في هذه الآية هو للجنس المفيد معنى الاستغراق، واعتبر أن (ال) الجنسية إذا دخلت على جمع أبطلت منه معنى الجمعية، وأن الاستغراق المفاد من (ال) إذا كان مدخولها مفردا وجملة سواء (٥).

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ * لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ

(١) آل عمران: ٣٦.

(٢) روح المعاني. (٢/ ١٣٠).

(٣) آل عمران: ١٣٤.

(٤) روح المعاني. (٢/ ٢٩٩).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (٤/ ١٢١).

أَلَيَّرَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴿١﴾ تحقيق للحق بعد بيان بطلان الباطل ، و لام التعريف في البر إما للجنس فيكون القصر ادعائياً لكمال ذلك الجنس في هذا الفرد ، وإما للعهد أي ما ينبغي أن يهتم به ويعتني بشأنه ويجد في تحصيله " (٢)

ومنه أيضا في قوله تعالى: ﴿ وَسِعُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣)

" واللام إما للجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً، وإما للعهد" (٤)

ويفيد التعريف باللام العموم نحو قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ٱلْحَقُّ يَدْعُونَ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّهِمْ ﴾ (٥)

جاء في تفسيره: " وفي تعريفه باللام دون الإضافة إشعار بعمومه فإنه لو قيل سبيله أوهم أنه على التوزيع وإن لكل إنسان سبيلا يخصه وخص بعضهم هذه النكتة بالمعنى الأخير للسبيل فتدبر وعلى هذا المعنى قيل إن فيه إيماء إلى أن الدنيا طريق والمقصد غيرها لما أشعرت به الآية من أن الميسر سبيل المكلفين الذي يترتب عليه الثواب والعقاب وفيه خفاء" (٦)

بين الألوحي هنا الفرق بين التعريف بالإضافة لو قيل (سبيله) والتعريف باللام وما ينتج عن ذلك من تفاوت في دلالة المعنى، حيث يكون المعنى في الأول تخصيص السبيل لكل إنسان، أما في الثاني يفيد عموم السبيل، وهذا المعنى الأخير يومئ أن هذه الحياة مجرد طريق عبور لما هو أسمى وأبقى.

٢) التعريف بالإضافة:

ترد الإضافة للتفخيم نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا

(١) البقرة: ١٧٧.

(٢) روح المعاني - (١/ ٤٤٢).

(٣) المائة: ٦٤.

(٤) روح المعاني - (٣/ ٣٤٩).

(٥) عبس: ٢٠.

(٦) روح المعاني (١٥ / ٢٤٧).

عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴿١﴾

جاء في تفسيره " وإضافة الآيات إلى الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتحويل ما اجترؤوا عليه في حقها " (٢).

فالألوسي يرى أن إضافة الرب إلى ضمير هم لقصد التسجيل عليهم وتحويل اجترائهم وإعراضهم وعقوقهم لحق العبودية.

الإضافة للتشريف:

نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٣) يقول الألوسي: " وفي إضافة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من تشريفه عليه الصلاة والسلام ما فيه (٤)

بينما حدد ابن عاشور الإضافة، ورأى أنها جاءت لتأييد الرسول وتسليته في تفسيره: ووجه الخطاب إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وأضيف لفظ (الرب) إلى ضميره إيماء إلى أن الله مؤيده تأنيساً له، لأن قولهم: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (الزخرف: ٣١) قصدوا منه الاستخفاف به، فرفع الله شأنه بإبلاغ الإنكار عليهم بالإقبال عليه بالخطاب وبإظهار أن الله ربه، أي متولي أمره وتدييره " (٥).

ويرى الباحث أن رأي ابن عاشور أولى وأدق، لأن الإضافة هنا تفيد تأييد الرب جل وعلا لرسوله ردا على استخفافهم واستهزائهم له.

وتكون الإضافة لدفع التوهم، ففي إضافة الهاء في كلمة الضحى في قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ ﴿٦﴾

(١) الأنعام: ٤.

(٢) روح المعاني . (٤ / ٨٧).

(٣) الزخرف: ٣٢.

(٤) روح المعاني . (١٣ / ٧٨).

(٥) التحرير والتنوير . (٢٥ / ٢٠١).

(٦) النازعات: ٤٦.

يقول الألوسي: "حيث أنك إذا قلت لم يلبثوا إلا عشية أو ضحى احتمل أن تكون العشية من يوم والضحى من آخر فيتوهم الاستمرار من ذلك الزمان إلى مثله من اليوم الآخر أما إذا قلت عشيته أو ضحاها لم يحتمل ذلك البتة وفي قولك ضحى تلك العشية ما يعنى عن قولك عشية ذلك النهار أو ضحاها" (١)

فائدة الإضافة هنا هو الدلالة على أن مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوماً كاملاً ، ولكن ساعة منه عشيته أو ضحاها؛ فيندفع بذلك التوهم الاستمرار من ذلك الزمان إلى مثله من اليوم. وفي هذه الإضافة أيضاً رعاية على الفواصل التي هي على حرف الهاء المفتوحة من أيا ن مرساها وما تلتها من آيات.

وتأتي الإضافة للحصر:

نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴾ (٢)

يقول الألوسي: " (جنات النعيم) جنات ليس فيها إلا النعيم الخالص عن شائبة ما ينغصه من الكدورات وخوف الزوال وأخذ الحصر من الإضافة إلى النعيم لإفادتها التميز من جنات الدنيا والتعريض بأن جنات الدنيا لغالب عليها النغص" (٣)

إضافة جنات إلى النعيم تفيد الحصر لأنها ليس في أحوالها إلا حال نعيم أهلها، فلا يكون فيها ما يكون في جنات الدنيا من المتاعب، وليس فيها إلا التمتع الخالص، لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا .

ومن تلك الأغراض أن تكون الإضافة لقصد التهكم:

نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤) يقول الألوسي: " وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من إيهام أن لهم برهاناً وأنى لهم ذلك" (٥)

(١) روح المعاني . (١٥ / ٢٣٩).

(٢) القلم: ٣٤.

(٣) روح المعاني . (١٥ / ٣٨).

(٤) النمل: ٦٤.

(٥) روح المعاني . (١٠ / ٢١٩).

وإضافة البرهان إلى ضمير المخاطبين وهم المشركون يشير إلى أن البرهان المعجزين عليه هو برهان عدم البعث، وفي هذا تهكم بهم أي إن كنتم صادقين فهاتوه.

الإضافة للتأييد والتأكيد:

نحو قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①﴾ (١)

يقول الألوسي: " والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأکید إيجاب الامتثال به ترهيباً وترغيباً أي احذروا عقوبة مالك أمركم ومريكم " (٢)

وقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ ③﴾ (٣)

يقول الألوسي: " والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد إيجاب الامتثال لما سيأتي من الأوامر " (٤)

لكون هذا الأمر صادر من الله سبحانه وتعالى وفي هذا توكيد للآية التي جاء بها إلى بني إسرائيل، وفي الإضافة أيضا تشعر بوجوب الامتثال للأوامر.

ومن تلك الأغراض التقيح، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ⑤﴾ (٥)

جاء في تفسيره " والتعرض لعنوان الربوبية المنافية للفسق لبيان قبح ما فعله " (٦)

فالعدول (عن أمره) إلى التعريف بطريق الإضافة دون الضمير، لتقيح فعل إبليس حيث فسق عن أمر من تجب عليه طاعته لأنه مالكة .

ومن تلك الأغراض أن تكون الإضافة مفيدة ما تقيده لام التعريف العهدية:

(١) الحج: ١.

(٢) روح المعاني . (٩ / ١٠٦).

(٣) آل عمران: ٤٩.

(٤) روح المعاني . (٢ / ١٦١).

(٥) الكهف: ٥٠.

(٦) روح المعاني . (٨ / ٢٧٨).

نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ (٥٦) ^(١) والإضافة على ما قرر للعهد. ^(٢) فالألوسي يرى أن الإضافة في قوله _آياتنا_ تكون بمعنى لام التعريف المفيدة للعهد، على أن المراد بآياتنا آيات معهودة وهي الآيات التسع المختصة بموسى ^(٣)

ب- التنكير ودلالاته:

ترك المعرفة واختيار النكرة في الكلام مما تتشعب فيه أغراض البلغاء، وقد تفتق قرائح اللاحقين منهم عن أشياء لم يتنبه إليه السابقون، إذ الأمر ليس اصطلاحاً لغوياً حتى ينحصر فيما اصطلح عليه الأولون، بل هي أغراض تقصد بلاغياً من خلال استعمال لغوي قابل لدلالات كثيرة، ولا سيما حينما نلاحظ أن ذكر النكرة غير موصوفة قد يوحي بطي الصفة في اللفظ مع ملاحظة معناها ذهنياً، والنكرة قابلة لأن توصف بأشياء كثيرة جداً، فقد توصف بالشيء، وقد توصف بضده، وعند حذف الصفة يبقى لفظها محتملاً، لكن قرائن الحال أو قرائن المقال قد تشعر بطي صفة مع إرادة معناها، وقد تشعر أحياناً أخرى بطي نقيضها مع إرادة معناها، ومن هنا تتنوع الدواعي والأغراض ^(٤).

ولا يخلوا تفسير الألوسي من المواضع التي جاءت فيها المفردات القرآنية نكرة، فأشار إليها وحدد دلالات وأغراض النكرة حسب السياق الذي وردت فيه، من بينها:

التنكير لغرض التفضيم والتعظيم

كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) ^(٥)

يقول: " والتنكير للمبالغة والتعظيم أي هذا صراط بليغ في استقامته جامع لكل ما يجب أن يكون عليه واصل لمرتبة يقصر عنها التوصيف والتعريف ولذا لم يقل هذا الصراط المستقيم أو هذا

(١) طه: ٥٦.

(٢) روح المعاني. (٨/ ٥٢٧).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ناصر الدين أبي سعيد البيضاوي، تحقيق عبد القادر عرفان، دار الفكر. بيروت، ١٤١٦هـ. ١٩٩٦م. (٤/ ٥٦)

(٤) ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حبنكة، دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ (١/ ٤٠٠).

(٥) يس: ٦١.

هو الصراط المستقيم وإن كان مفيداً للحصر" (١)

عدل القرآن الكريم عن التعريف ولم يقل (هذا الصراط المستقيم)، ليفيد التنكير التعظيم أي: صراط بليغ في استقامته ولا صراط أقوم منه.

ومن التعظيم أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَئِمَّ دُؤُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢) "وتنكير حرب للتعظيم، ولذا لم يقل بحرب الله تعالى بالإضافة" (٣).

فجاء في هذا النص تنكير لفظ "حرب" للتعظيم والتهويل، أي: بحرب شديدة هائلة مخيفة، ودل على كونها شديدة مخيفة كونها من الله ورسوله، وكونها عقوبة على معصية هي من الكبائر.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴾ (٤)

والشغل هو الشأن الذي يصدر المرء ويشغله عما سواه من شأنه لكونه أهم عنده من الكل إما لإيجابه كمال المسرة أو كمال المساءة والمراد ههنا هو الأول، وتنكيره للتعظيم كأنه شغل لا يدرك كنهه، والمراد به ما هم فيه من النعيم الذي شغلهم عن كل ما يخطر بالبال (٥) فالتنكير والإبهام في هذه الآية للإيذان بارتفاعه عن رتبة البيان.

ويرى الألوسي أن النكرة تفيد الكمال في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٦) والظاهر أن الحسنه وإن كانت نكرة في الإثبات وهي لا تعم إلا أنها مطلقة فتصرف إلى الكامل والحسنه الكاملة في الدنيا ما يشمل جميع حسناتها وهو توفيق الخير وبيانها بشيء مخصوص ليس من باب تعيين المراد

(١) روح المعاني. (١٢ / ٤٠).

(٢) البقرة: ٢٧٩.

(٣) روح المعاني. (٢ / ٥٢).

(٤) يس: ٥٥.

(٥) روح المعاني (١٢ / ٣٣).

(٦) البقرة: ٢٠١.

إذ لا دلالة للمطلق على المقيد أصلاً وإنما هو من باب التمثيل" (١)

فقوله سبحانه: {آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} اختلف فيها العلماء؛ بعضهم ضيقها وقال: إن حسنة الدنيا هي المرأة الصالحة. وقال عن حسنة الآخرة إنها الجنة. ومنهم من قال: إن حسنة الدنيا هي العلم؛ لأن عليه يُبْنَى العمل، وفي حسنة الآخرة قال: إنها المغفرة؛ لأنها أم المطالب. (٢)

فالنكرة وردت في الآية في محل الإثبات فلا يتناول إلا حسنة واحدة ، فلذلك اختلف المتقدمون من المفسرين فكل واحد منهم حمل اللفظ على ما رآه أحسن أنواع الحسنة ، وقد حملها الألوسي على الحسنة الكاملة في الدنيا والتي تكون موافقة لقضائه وقدره ورضاه وحكمه وحكمته. كما تفيد التقليل، حيث يختار المتكلم النكرة قاصداً بالتنكير التقليل، وتدل القرائن على قصد التقليل، وإذ دلت القرائن عليه حسن في الكلام حذف الوصف الدال على القلة وحذف الإضافة المشعرة بالتفخيم والتعظيم، والاكتفاء بدلالة التنكير مع دلالة قرينة الحال أو قرينة المقال.

وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ (٣)

جاء في تفسيره: «ولم يقل: لمثوبة الله، مع أنه أخصر ليشعر بالتنكير بالتقليل، فيفيد أن شيئاً قليلاً من ثواب الله تعالى في الآخرة الدائمة خير من ثواب كثير في الدنيا الفانية، فكيف وثواب الله تعالى كثير دائم، وفيه من الترغيب والترهيب المناسبين للمقام ما لا يخفى» (٤)

ومثله قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ (٥)

قال الألوسي: "أي وقدر يسير من رضوانه سبحانه (أَكْبَرُ) ولقصد إفادة ذلك عدل عن رضوان الله الأخصر إلى ما في النظم الجليل" (٦)

(١) روح المعاني. (١/ ٤٨٦)

(٢) ينظر: خواطر الشعراوي (٢/ ٨٦٠).

(٣) البقرة: ١٠٣.

(٤) روح المعاني. (١/ ٣٤٧)

(٥) آل عمران: ١٥.

(٦) روح المعاني. (٥/ ٣٢٦).

ففي هذه الآية جاء لفظ رضوان نكرة، وقرينة كونه من الله مع كونه أكبر من كل ما في جنات عدن من نعيم دليل على أن المراد: ورضوان قليل من الله يفرغه على أهل جنات عدن هو أكثر عندهم وأعظم من كل ما فيها من نعيم.

ومن أغراض التنكير نجد التأكيد نحو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (١) أي: أنشأها وأبدعها مستعدة لجمالها وذلك بتعديل أعضائها وقواها الظاهرة والباطنة والتنكير للتأكيد وقيل للتفخيم على أن المراد بالنفس آدم عليه السلام والأول أنسب (٢) رأى الألوسي أن تنكير كلمة النفس في الآية الكريمة فيه دلالة التأكيد ويحمل دلالة التفخيم أيضاً، ورأى ان الأول أنسب لسياق الآية.

وقد يجتمع غرض التأكيد مع التفخيم كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٣)

جاء في تفسيره " (رُسُلًا) أي كراماً ذوي عدد كثير فالتنكير للتفخيم والتأكيد" (٤)

فتنكير {رسلا} للتفخيم ذاتا ووصفا أي رسلا كراما ذوي عدد كثير من بعد نوح وهو المقصود في الآية {من بعده} يعني هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعياً وقد يكون هنالك رسل آخرون كما قال تعالى: {ورسلا لم نقصصهم عليك} [النساء: ١٦٤]

واجتمع التحقير مع التعظيم في قوله تعالى: ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٥)

قال الألوسي: " (بِإِذْنِ اللَّهِ) أي بحكمه وتيسيره ولم يقولوا أطاقت حسبما وقع في كلام أصحابهم مبالغة في تشجيعهم وتسكين قلوبهم ، وإذا حمل التنوين في (فِئَةً) الأولى للتحقير ، وفي

(١) الشمس: ٧.

(٢) روح المعاني . (١٥ / ٣٦٠).

(٣) يونس: ٧٤.

(٤) روح المعاني . (٦ / ١٥١).

(٥) البقرة: ٢٤٩.

فئة الثانية للتعظيم كان أبلغ في التشجيع وأكمل في التسكين وقد ورد مثل ذلك في قوله :

لَهُ حَاجِبٌ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ يَشِينُهُ ... وَليْسَ لَهُ عَنْ طَالِبِ الْعُرْفِ حَاجِبٌ^(١) " (٢)

فالتنكير إذن في الأول للتحقير وفي الثاني للتعظيم ، والكلمة واحدة، والسياق العام واحد، ولكن لكل كلمة في موقعها مقام يختلف عن الأخرى.

والبيت الشعري الذي أورده الألووسي من الشواهد المشهورة في هذا الباب، وقد ذكره السكاكي^(٣) في مفتاحه، ونقله عنه القزويني^(٤) من بعده.

كما يرد التنكير لإرادة الأفراد وقد يكون نوعياً أو شخصياً كما في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ

كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ﴾^(٥)

ورد في تفسيره: " (مِنْ مَّاءٍ) هو جزء مادته وخصه بالذكر لظهور مزيد احتياج الحيوان بعد كمال تركيبه إليه وأن امتزاج الأجزاء الترابية به إلى غير ذلك أو ماء مخصوص هو النطفة فالتنكير على الأول للأفراد النوعي ، وعلى الثاني للأفراد الشخصي . " (٦)

بينما رأى ابن عاشور أن التنكير في هذه الآية يحتمل النوعية فقط، لإفادة أنه نوع خاص من أنواع المياه، وهو الماء الذي تنعقد منه الأجنة. فقال: "وتنكير ماء لإرادة النوعية تنبيها على اختلاف صفات الماء لكل نوع من الدواب إذ المقصود تنبيه الناس إلى اختلاف النطف للزيادة في الاعتبار.

(١) البيت من الطويل، وهو لأبي الطمحان القيني في ديوان المعاني ١ / ١٢٧؛ ولابن أبي السمط في معاهد التنصيص ١ /

١٢٧؛ ولمروان بن أبي حفصة في شرح شواهد المغني ص ٩٠٩ (نقلًا عن أمالي القالي)؛ وبلا نسبة في أمالي القالي ١ /

٢٣٨؛ ومغني اللبيب ص ٥٧٧. ينظر: المعجم المفصل في شواهد العربية ، اميل يعقوب (١ / ١٧٧)

(٢) روح المعاني . (١ / ٥٦٢).

(٣) ينظر: مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: الثانية، ١٤٠٧ هـ (ص: ١٩٣).

(٤) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩٨ (ص:

٤٩

(٥) النور: ٤٥.

(٦) روح المعاني . (٩ / ٣٨٤).

وهذا بخلاف قوله: وجعلنا من الماء كل شيء حي [الأنبياء: ٣٠] إذ قصد ثمة إلى أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من جنس الماء وهو جنس واحد اختلفت أنواعه، فتعريف الجنس هناك إشارة إلى ما يعرفه الناس إجمالاً ويعهدونه من أن الحيوان كله مخلوق من نطف أصوله. وهذا مناط الفرق بين التنكير كما هنا وبين تعريف الجنس كما في آية وجعلنا من الماء كل شيء حي [الأنبياء: ٣٠]". (١)

ويمكن الجمع بين كلام الألويسي وكلام ابن عاشور، فيحتملها معا أي: الأفراد والنوعية، بمعنى خلق كل نوع من أنواع الدواب من نوع خاص من الماء، أو كل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف.

كما يستفاد من التنكير البعضية، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ (٢)

وقوله تعالى: (لَيْلًا) ظرف لأسرى ، وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء وأنها بعض من أجزاء الليل... أن تنكيره لدفع توهم أن الإسراء كان في ليلال" (٣)

قوله تعالى { لَيْلًا } لإفادة قلة زمان الإسراء لما فيه من التنكير الدال على البعضية من حيث أجزاء ذلك الليل، فقول القائل: سرت ليلًا يفيد بعضية زمان سيرك من الليالي بخلاف ما إذا قلت (سرت الليل) بالتعريف فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً فيكون معياراً للسير لا ظرفاً له .

ويأتي التنكير للنوعية، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٤)

يقول: "والتنكير فيه للنوعية أي لهم في الآخرة نوع من العذاب غير متعارف في عذاب الدنيا" (٥) فالتنكير هنا يفيد أن لهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يبلغ كنهه ولا يدرك غايته.

(١) التحرير والتنوير (١٨ / ٢٦٦)

(٢) الإسراء: ١.

(٣) روح المعاني . (٦ / ٨).

(٤) البقرة: ٧.

(٥) روح المعاني . (١ / ١٤٠)

وهناك بعض المفردات القرآنية تختلف في دلالة تنكيرها، منها كلمة (حياة) في قوله تعالى: ﴿

وَلْتَجِدْنَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ﴾^(١)

يقول أبو الشاء: "وتنكير (حياة) لأنه أريد بها فرد نوعي ، وهي الحياة المتطاولة ، فالتنوين للتعظيم ، ويجوز أن يكون للتحقير فإن الحياة الحقيقية هي الأخروية و (إنِ * الدار الآخرة لهُيَ الحيوان) [العنكبوت : ٦٤] ويجوز أن يكون التنكير للإبهام"^(٢)

فالتنكير في الآية حسب الألووسي يجوز أن يكون للنوعية أو للتحقير أو للإبهام.

ومن المواضع الأخرى التي استشكل فيها التنكير، نجد الآية التي جرى فيها الحوار بين سيدنا إبراهيم وأبيه آزر، ووردت فيه كلمة (عذاب) نكرة يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾^(٣) ، ومرد الخلاف هو المقام الذي وردت فيه هذه الآية، هل هو مقام تعظيم أو تقليل؟ ولهذا أورد الألووسي كلاما مطولا حول آراء بعض البلاغيين والمفسرين حول التنكير فيها، يقول فيه: "وتنوين (عَذَابِ) على ما اختاره السعد في المطول يحتمل التعظيم والتقليل أي عذاب هائل أو أدنى شيء منه وقال لا دلالة للفظ المس وإضافة العذاب إلى الرحمن على ترجيح الثاني كما ذكره بعضهم لقوله تعالى: (لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [النور : ١٤] ولأن العقوبة من الكريم الحليم أشد.

واختار أبو السعود أنه للتعظيم ، وقال : كلمة (من) متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ، وإظهار الرحمن للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب كما في قوله عز وجل : (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) [الانفطار : ٦] انتهى ، وفي «الكشف» أن الحمل على التفخيم (في عَذَابِ) كما جوزه صاحب المفتاح مما يبابه المقام أي لأنه مقام إظهار مزيد الشفقة ومراعاة الأدب وحسن المعاملة وإنما قال (مِّنَ الرَّحْمَنِ) لقوله أولاً (كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) [مريم : ٤٤] وللدلالة على أنه ليس على وجه الانتقام بل ذلك أيضا رحمة من الله تعالى... ، وأيد الحمل على التفخيم بقوله : (فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) أي

(١) البقرة: ٩٦.

(٢) روح المعاني. (١/٣٢٩).

(٣) مريم: ٤٥.

قريناً تليه ويليك في العذاب فإن الولاية للشيطان بهذا المعنى إنما تترتب على مس العذاب العظيم .
وأجيب عن كون المقام مقام إظهار مزيد الشفقة وهو يأبى ذلك بأن القسوة أحياناً من الشفقة
أيضاً كما قيل :

فَقَسَا لِيَتَزَدَّجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلِيَقْسُ أحياناً وَحِيناً يَرْحَمُ

وقد تقدم هذا مع أبيات أخر بهذا المعنى ، ويكفى في مراعاة الأدب والمجاملة عدم الجزم
باللحوق . والمس وإن كان مشعراً بالقلة عند الأجلة لكن قالوا : إن الكثرة والعظمة باعتبار ما
يلزمه ويتبعه لا بالنظر إليه في نفسه فإنه غير مقصود بالذات وإنما هو كالذوق مقدمة للمقصود
فيصح وصفه بكل من الأمرين باعتبارين . وكأني بك تختار التفخيم لأنه أنسب بالتحوير وتدعى
أنه ههنا من معدن الشفقة فتدبر" (١)

فكل واحد من هؤلاء العلماء له رأي حول التنكير في الآية فسعد الدين التفتازاني يرى أنه
يحتمل التعظيم والتقليل، ورأى أبو السعود أنه للتعظيم فقط، ومثله السكاكي، بينما رأى صاحب
"الكشف" الإمام الطيبي، أن التنكير للتقليل لأنه مقام إظهار مزيد الشفقة ومراعاة الأدب وحسن
المعاملة مع الأب، أما الألووسي فرد على حجج الطيبي ورأى أنه من التعظيم.

يتبين لنا مما سبق من هذا الفصل جمالية الدقة في اختيار اللفظ، وروعة انتقاء الكلمات، وتفرد
استخدامها المتنوع في النظم القرآني الكريم، وحاول الألووسي عن طريق محددات الأسلوب

(١) روح المعاني . (٨ / ٤١٦) .

كالاختيار والعدول إظهار عمق مقاصدها وآثارها، ولطائف عجائبها وأسرارها، وما تختزنه من طاقة بيانية وتعبيرية، لها دلالتها وفصاحتها الخاصة، في ذلك الأسلوب الإلهي البديع، فكانت بذلك وجهها من وجوه الإعجاز القرآني، وسرا من أسرار عجائبه الدقيقة التي لا تنتهي.

الفصل الثالث الجملة القرآنية

✓ الأساليب الإنشائية

✓ التقدير والتأخير

✓ أسلوب الحذف

✓ أسلوب التوكيد

توطئة:

إن دراسة الجملة القرآنية تتصل اتصالاً مباشراً بدراسة المفردة القرآنية لأن هذه أساس الجملة، ومنها تركيبها، وإذا كان علماء البلاغة يجعلون البلاغة درجات، فإنهم مقرون دون جدل أن صياغة العبارة القرآنية هي الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز ذاته . ولالإعجاز فيها وجوه كثيرة . فمنها : ما تجده من التلاؤم والاتساق الكاملين بين كلماتها، وبين ملاحق حركاتها، وسكناتها، فالجملة في القرآن تجدها دائماً مؤلفة من كلمات وحروف، وأصوات يستريح لتألفها السمع والصوت والمنطق، ويتكون من تضامها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع، ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال.

ونسعى في هذا الفصل الكشف عن نظرات الألووسي لنظم الجملة القرآنية، من الجانب الإنشائي وخاصة الاستفهام والأمر والنهي، ونظرته حول التقديم والتأخير وما يخص أسلوب الحذف والتوكيد.

أولاً- أسلوب الاستفهام:

يعدّ أسلوب الاستفهام أحد أساليب الإنشاء الطلي في الجملة العربية سواء كان لهدف محدد ومباشر أم كان لتصور إيحائي جمالي غير مباشر عند المتكلم. فالاستفهام قد لا يبحث فيه المتكلم عن إجابة محددة؛ وإنما يهدف إلى تصور ما يتحدث عنه فيخرجه عن حقيقته إلى مقاصد شتى؛ ويكون بوساطة أدوات سميت بأدوات الاستفهام، تستعمل في أقسامه.

وفي اصطلاح البلاغيين هو " طلب حصول صورة الشيء في الذهن بأدوات مخصوصة: كالمهزة، وهل، وما، ومَنْ، وأي، وكم، وكيف، وأين، وأنى، ومتى، وأيان "¹

وهو في معناه الوضعي استخبار أو طلب للفهم، وقد قيل إنه سؤال عن حقيقة أمر أو عمل "² لكن المبدع يذهب به مذهباً آخر تخرجه من هذا الوضع عادلاً عن طلب الفهم لنفسه إلى تفهيم المخاطب أو السامع ³ لأثارته والتأثير فيه وأقناعه فهو يسمَعُ كلاماً يتبادر إلى ذهنه معنى آخر لم يعهده ، فهو أسلوب " يثير في النفس حركة ويدعو المخاطب إلى أن يشارك السائل فيما يحس ويشعر "⁴.

ومن هذا نستشف أن البنية الطلبية لأسلوب الاستفهام بنية توليدية كأسلوب الأمر مع تفرقة دقيقة بينهما "ترجع إلى اتكائها على حركة المعنى في البنيتين، والربط بين المستوى السطحي والمستوى العميق فيهما، وهذا الربط هو الذي يكشف التغيرات في حركة المعنى، إذ إن (بنية الأمر) تتجه فيها هذه الحركة من الذهن إلى الخارج، أي من العمق إلى السطح، أما (بنية الاستفهام) فإن الحركة فيها عكس ذلك، حيث تتجّه من الخارج إلى الذهن، أي من السطح إلى العمق، فالمقصود من قولنا: (هل قام محمد؟) حصول (القيام) الذي في الخارج في ذهن المتكلم، والمقصود من قولنا(قُم) حصول (القيام) الذي في الذهن في الخارج أي أن حركة المعنى في البنيتين ضدّية على النحو التالي:

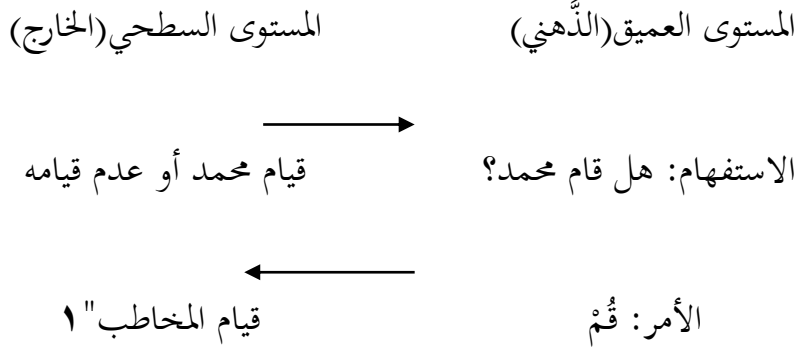
(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦ هـ ج ٢ ص ٣٠

(٢) البلاغة العربية في ثوبها الجديد : ٨٤+

(٣) ينظر مجاز القرآن : ١٨٣/١-١٨٤ ، وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، قيس اسما عيل الأوسي ، بيت الحكمة،

بغداد، ١٩٨٨. ص : ٤١١

(٤) أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ، عبد العليم السيد فودة ، مؤسسة دار الشعب ، القاهرة (د.ت) ص ٢٩٦+



ويأتي الاستفهام في الآيات القرآنية ليحقق أغراضاً بلاغية مقصودة إذ أن معظم الاستفهامات في القرآن الكريم لا تحتاج إلى جواب لأنها من عالم الغيب والشهادة وإنما يُراد بها توبيخ السامع وتقريره ٢، أو " تبينها على خطئه، وزجرًا له عن ركوب ما يؤدي به إلى التهلكة" ٣ فكثيراً ما كان المشركون ينكرون الأحكام والشرائع الدينية وإفراذه سبحانه بالوحدانية والعلم بعدد السنين والحساب، لذلك جاء الإنكار في المرتبة الأولى من بين المعاني المجازية لهذا الأسلوب ثم التقرير مع مشاركة معانٍ أخرى كالتوبيخ والاستبعاد والتعجب وغيرها من المعاني وله قسمان: حقيقي ومجازي؛ وكلاهما لقي عناية البلاغيين العرب قديماً وحديثاً وتعرضوا لأغراضهما.

و تطرق الألوسي للاستفهام الحقيقي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي

كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۗ﴾

جاء في تفسيره: "الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن شيء متقرر الوجود عند السائل والمسؤول، فالاستفهام هنا عن هيئة الإحياء المتقرر عند السائل، أي بصّرني كيفية إحيائك للموتى .. وإنما سأله عليه السلام لينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين.

فالسؤال لم يكن عن شك في أمر ديني- والعياذ بالله -ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ليحيط علماً بها ، وكيفية الإحياء لا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها فالخليل - عليه السلام -، طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة 'كيف' وموضوعها

(١) البلاغة العربية(قراءة أخرى) محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر. لوتنجان ٢٨٥+

(٢) ينظر: المقتضب، أبو يزيد المبرد، ت: عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، دت، (٣/ ٢٩٢)

(٣) أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين : ص ٤١١-٤١٢

(٤) البقرة: ٢٦٠.

السؤال عن الحال .^١

فالاستفهام الحقيقي هو السؤال عما يجمله السائل، وهو في هذه الحالة ينتظر جوابًا عن سؤاله، ونظير هذا أن يقول القائل: كيف يحكم زيد في الناس؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم، ولكنه سأل عن كيفية حكمه المعلوم بثبوته، ولو كان سائلا عن ثبوت ذلك لقال: أيجكم زيد في الناس؟. وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معاني مجازية فتؤدي معاني أخرى غير السؤال، وهذه المعاني تفهم من سياق الكلام، ومن قرائن الأحوال، منها:

الإنكار:

يرد الاستفهام للإنكار إذا وجد المستفهم نفسه أمام أمر لا يرضى عنه، فإنه - والحالة هذه - يورد كلامه على سبيل الإنكار لهذا الأمر، والإنكار إما للتوبيخ، وإما للتكذيب.^٢

ومعنى الاستفهام في هذا الغرض يحمل معنى النفي وما بعده منفي، ولذلك تصحبه لا، ويعطف عليه المنفي، ويكون معناه في الماضي معنى لم يكن، وفي المستقبل معنى لا يكون.

ولعل السر في العدول عن أسلوب النفي هو أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير، يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسؤول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي كان توجيه السؤال إليه حملا له على الإقرار بهذا النفي وهو أفضل من النفي ابتداءا.

ومن الاستفهام الإنكاري الذي جاء في الذكر الحكيم، وأشار إليه الألوسي، ما جاء في قوله

تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾^٣

يقول الألوسي: "أتأتون الفاحشة، أي أتفعلون الفعل المتناهية في القبح والسماجة؟! والاستفهام إنكاري... .. وقوله تعالى: (وأنتم تبصرون) جملة حالية من فاعل تأتون، مفيدة لتأكيد الإنكار، فإن تعاطي القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع"^٤.

قوله: { أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ } فهو على وجه التنكير وإن جاء بلفظ الاستفهام وربما كان التوبيخ

(١) روح المعاني . (٢/ ٢٦)

(٢) البلاغة الاصطلاحية، عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، مصر، ط٣، ١٩٩٢م ص ١٧٤

(٣) النمل: ٥٤

(٤) روح المعاني . (١٠/ ٢٠٩).

يمثل هذا التركيب أبلغ من غيره من التراكيب . وجملة وأنتم تبصرون في محل نصب على الحال وهي لتأكيد الإنكار.

ويقول الألوسي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتَزْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾^١ مبيناً المعنى الذي خرج إليه الاستفهام: "فيه إنكار لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة آمنين عن عذاب يوم عظيم، وكأن القوم اعتقدوا ذلك، فأنكره عليه السلام عليهم"^٢

المقصود في هذه الآية هم قوم النبي صالح عليه السلام، الذين أعرضوا عن عبادة الله تعالى، وأنكروا البعث، ونزل حالهم منزلة من يظن الخلود ودوام النعمة فخاطبهم بالاستفهام الإنكاري وهو في المعنى إنكار على اعتقادهم ذلك، بمعنى أتظنون أن نترككم في هذه النعم التي أعطاكم الله، آمنين من الموت والعذاب، باقين في الدنيا.

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾^٣

يقول الألوسي: ومن أضلّ ممن اتبع هواه، استفهام إنكاري للنفي، أي لا أضلّ ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، أي هو أضلّ من كل ضال^٤.

(ومن) اسم استفهام عن ذات مبهمه وهو استفهام الإنكار فأفاد النفي أي لا أحد أضل وهو كقوله تعالى: ومن أظلم ممن كنتم شهادة عنده من الله في سورة البقرة [١٤٠].

ومنه قوله عز وجل: ﴿ أَلَا نُفَلِّتُلُوبًا قَوْمًا زَكَّوْا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ أَخَشَوْهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^٥

جاء في روح المعاني: "ألا تقاتلون" تحريض على القتال لأن الاستفهام فيه للإنكار والاستفهام

(١) الشعراء: ١٤٣

(٢) روح المعاني. (١٠ / ١١١).

(٣) القصص: ٥٠

(٤) روح المعاني. (١٠ / ٣٠٠).

(٥) التوبة: ١٣.

الإنكاري في معنى النفي وقد دخل النفي ونفى النفي إثبات، وحيث كان الترك مستقبلاً منكرًا أفاد بطريق برهاني أن إيجاده أمر مطلوب مرغوب فيه فيفيد الحث والتحريض عليه^١

يرى الألوسي أن الهمزة الداخلة على انتفاء مقاتلتهم للإنكار وفيه تحريض على قتالهم بأوضح أساليب البيان وأسمائها ، وهو أن الاستفهام للإنكار الذي يحيل النفي إثباتا كما يحول الإثبات إلى النفي ، وقد دخل هنا على نفي القتال فكان دليلا على إثباته ووجوبه^٢

واجتمع الإنكار و التوبيخ في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا

وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾^٣

يقول علامة بغداد: " قول سبحانه : { أسحر هذا } إنكار مستأنف من جهة موسى عليه السلام لكونه سحرا وتكذيب لقولهم وتوبيخ لهم عليه إثر توبيخ وتجهيل إثر تجهيل^٤

وقد يشكل الأمر عند قراءة هذه الآيات، وهو أن القوم قد قالوا : { إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ } في الآية السابقة فكيف حكى موسى عليه السلام أنهم قالوا : { أَسِحْرٌ هَذَا } فيفهم أن هذا من كلامهم على سبيل الاستفهام؟

لكن يزول هذا الإشكال إذا عرفنا أن هناك كلام مستأنف و هو قول موسى عليه السلام، وكان موسى عليه السلام قد تساءل؛ ليعيدوا النظر في حكمهم: هل ما جاء به سحر؟ وهذا استفهام استنكاري، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس بسحر، ولكن جاء بصيغة التساؤل؛ لأنه واثق أن الإجابة الأمانة ستقول: إن ما جاء به ليس سحراً.

التقرير:

التقرير هو الإثبات مع الوضوح؛ وكذلك هو الإثبات مع التسليم، وهو لا يحتاج إلى جواب في الاستفهام المجازي؛ لأنه يقرر فكرة من الأفكار؛ يحمل المخاطب على الإقرار بها؛ وبمعنى آخر السؤال نفسه جواب ثابت. ويستعمل في هذا الأسلوب الفعل المنفي المسبوق . غالباً. بهمزة الاستفهام.

(١) روح المعاني . (٥ / ٢٥٥).

(٢) ينظر: تفسير المنار (١٠ / ١٧٤).

(٣) يونس: ٧٧.

(٤) روح المعاني . (٦ / ١٥٤).

وإيراد الكلام بأسلوب الاستفهام أقوى في تقرير الواقع من أسلوب الخبر؛ لأن الخبر يأتي من المتكلم، أما الإقرار فمن السامع، فالتكلم لا يلقي بالاستفهام إلا وهو واثق أن الجواب سيأتي وفق ما يريد ويتطلع إليه.

نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ

الظالمون ﴿٤٧﴾

يقول الألوسي: والاستفهام للتقرير، أي قل تقريراً لهم باختصاص الهلاك بهم: أخبروني إن أتاكم عذابه- جل شأنه -حسبما تستحقونه هل يهلك بذلك العذاب إلا أنتم؟ أي هل يهلك غيركم ممن لا يستحقه؟^٢

والاستفهام في قوله: هل يهلك مستعمل في الإقرار، وورد في تذييل الآية - أيضاً - على هيئة استفهام، و جاء ليؤكد المعنى، وليكون الإقرار من أفواه من يتلقون هذا الاستفهام وعن يقين منهم، وليكون الاعتراف منهم إجابة بالإقرار.

وقال الألوسي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَيْنَ نَكِّ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي

قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَصَبِرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ " (قالوا أئناك لأنك يوسف) استفهام تقرير، ولذلك أكد بيان واللام؛ لأن التأكيد يقتضي التحقق المنافي للاستفهام الحقيقي^٤

وجاء قول إخوة يوسف بأسلوب الاستفهام التقريري الذي أكدوه ب «إن» و «اللام»

لشدة تحققهم أنه يوسف- عليه السلام-، وجاء التأكيد في كلامهم لأنهم تطلبوا تأييده

لعلمهم به.

ومن التقرير أيضا ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ

(١) الأنعام: ٤٧

(٢) روح المعاني. (٤/١٤٦).

(٣) يوسف: ٩٠

(٤) روح المعاني. (٧/٤٦).

مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿١﴾

يقول الألوسي: " (أليس الله بأعلم بالشاكرين) رد لقولهم ذلك، وإشارة إلى أن مدار استحقاق ذلك الإنعام معرفة شأن النعمة، والاعتراف بحق المنعم، والاستفهام للتقرير بعلمه البالغ بذلك" ^٢

النظم الكريم يستخدم من أساليب البيان ما يخرجنا عن الغفلة وينبهنا ويجعلنا نتدبر ونفكر، فعدل عن القول: « إن الله أعلم بالشاكرين »، ولو كان قد قال ذلك لكان الأمر خبراً من المتكلم وهو الله، ولكنه يريد أن يكون الخبر من المخاطب إقراراً من العبد. ولهذا عدل إلى أسلوب الاستفهام الذي يحمل الإنسان على التفكير وليقر بما يراه مناسباً.

ومثله في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ ^٣ ورد في تفسيره: " أصله على ما قيل أهل على أن الاستفهام للتقرير أي الحمل على الإقرار بما دخلت عليه والمقرر به من ينكر البعث وقد علم أنهم يقولون نعم قد مضى على الإنسان حين لم يكن كذلك فيقال فالذي أوجده بعد أن لم يكن كيف يمتنع عليه إحيائه بعد موته وهل بمعنى قد وهي للتقريب أي تقريب الماضي من الحال" ^٤

هذا الاستفهام في مطلع السورة هو للتقرير؛ ولكن وروده في هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه: ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة؟، والتقرير يقتضي حصول العلم بما قرر به وذلك إيماء إلى استحقاق الله أن يعترف الإنسان له بالوحدانية في الربوبية، فهي إichاءات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام في هذا المقام . وهي إichاءات عميقة تثير في النفس تأملات مختلفة.

التوبيخ:

ويأتي أسلوب الاستفهامي للتوبيخ على فعل من الأفعال، أو على رأي من الآراء، نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا

(١) الأنعام: ٥٣

(٢) روح المعاني . (٤/ ١٥٤).

(٣) الإنسان: ١.

(٤) روح المعاني . (١٥/ ١٦٦).

ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

يقول الألوسي: "والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة مع علمهم بما سمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم بوخامة عاقبتها"^١.

وقد يحمل الاستفهام هنا معنى الإنكار وهذا ما رآه بعض المفسرين، إذ يستنكر الحق سبحانه وتعالى عدم علم المنافقين بقضية أعلنها الله مرات ومرات، وكان يجب أن يعلموها وألا تنزل عن خواطرهم أبداً.^٢

النفى:

ويخرج الاستفهام عن حقيقته ليفيد معنى النفي، حين يراد نفي ما بعد الأداة (المستفهم عنه) وتكون الأداة بمعنى (لا)^٤

كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٣٥﴾

قال الألوسي: " وإيراد التركيب على صيغة الإنشاء دون الإخبار بأن لم يقل وما يغفر الذنوب إلا الله تقرير لذلك المعنى وتأکید له كأنه قيل : هل تعرفون أحدا يقدر على غفر الذنوب كلها صغيرها وكبيرها سالفها وغابرها غير من وسعت رحمته كل شيء"^٦

فالاستفهام هنا خرج إلى معنى بلاغي وهو النفي، أي: لا أحد يغفر الذنوب إلا الله، وقد جعلت أداة الاستثناء قرينة قائمة على النفي في هذه الجملة القرآنية، والتركيب الإنشائي في الآية أبلغ وأؤكد من الأسلوب الخبري كما رأى الألوسي.

التهكم والسخرية

(١) التوبة: ٦٣.

(٢) روح المعاني. (٥/ ٣١٨)

(٣) ينظر: خواطر الشعراوي (٩/ ٥٢٥٧).

(٤) أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، عبد الكريم يوسف، مطبعة الشام، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ١٨.

(٥) آل عمران: ١٣٥.

(٦) روح المعاني (٢/ ٢٧٥)

ورد هذا الغرض في كلام قوم شعيب عليه السلام، يقول تعالى: ﴿ قَالُوا يَدْعُبُ أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ ﴿٨٧﴾

قال الألوسي: " بنوا استفهامهم، وأخرجوا كلامهم، وقالوا- بطريق الاستهزاء :-أصلاتك التي هي من نتائج الوسوسة، وأفاعيل المجانين تأمرك بأن نترك ما استمر على عبادته آباؤنا جيلا بعد جيل من الأوثان والتماثيل^١ -.

لما أمر شعيب قومه بعبادة الله وترك عبادة أوثانهم، وبإيفاء المكيال والميزان، ردوا عليه على سبيل الاستهزاء والهزاء بقولهم : أصلاتك، وقد كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات، وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضحكوا ، فقصدوا بقولهم : { أصلواتك تأمرك } السخرية والهزاء^٢.

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿١٢﴾ ﴾^٣

يقول الألوسي: " فقال للأصنام استهزاء : ألا تأكلون من الطعام الذي عندهم، وكان المشركون يضعون في أيام أعيادهم طعاماً لدى الأصنام لتبرك عليه"^٤

قال النبي إبراهيم عليه السلام ذلك على وجه الاستهزاء بالذين يعبدون تلك الأصنام.

الأمـر:

يخرج الاستفهام إلى أسلوب مجازي يسمى الأمر؛ فيزيده إيجاءً جمالياً، ومنه ما رآه الألوسي في

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾^٥

فقال: "أمر وارد في صورة الاستفهام لما فيه من التقرير بالإيماء إلى التقصير في الشكر والمبالغة بدلالته على أن الشكر مستحق الوقوع بدون أمر فسأل عنه هل وقع ذلك الأمر اللازم الوقوع أم

(١) هود: ٨٧

(٢) روح المعاني . (٦ / ٣١٢).

(٣) ينظر: تفسير الزمخشري (٢ / ٤١٩)

(٤) الصافات: ٩١-٩٢

(٥) روح المعاني . (١٢ / ١١٨).

(٦) الأنبياء: ٨٠.

لا^١.

كان مقتضى الظاهر أن يجيء في الكلام (اشكروا الله) لكن في الآية الأمر أخرج في صورة الاستفهام للمبالغة والتفريع و لما فيه من الإجماء إلى التقصير في الشكر.

التعجب:

كقوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۗ ﴾^٢

جاء في روح المعاني: "والهمزة للتعجب من حال ذلك الكافر والإيدان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن ترى ويقضي منها العجب"^٣

والاستفهام في أفرايت مستعمل في التعجب من كفر هذا الكافر، وأن صدور هذا الأمر منه فيه من الغرابة والشناعة.

وجاء هذا الغرض أيضا في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي ۗ ﴾^٤

قال الألوسي: " (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي) بذلك (على أن مَسَّنِيَ الْكِبَرُ) والاستفهام للتعجب... فيكون قد تعجب عليه السلام من بشارتهم إياه مع هذه الحال المنافية لذلك"^٥

والاستفهام في أبشرتموني للتعجب. إذ نجد إبراهيم عليه السلام يتعجب كيف يُبَشِّرُونَهُ بـغلام، وهو على هذه الدرجة من الكِبَر.

التعجب والتشويق:

كقوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضِرِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۗ ﴾^٦

(١) روح المعاني . (٧٤ / ٩).

(٢) مریم: ٧٧

(٣) روح المعاني . (٨ / ٤٤٥).

(٤) الحجر: ٥٤

(٥) روح المعاني . (٧ / ٣٠٥).

(٦) ص: ٢١

قال الألوسي: "استفهام يراد منه التعجب والتشويق إلى استماع ما في حيزه لإيدانه بأنه من الأنباء البديعة التي حقها أن تشيع فيما بين كل حاضر وبادي"^١

هذه الآية تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم واستفتحت بالاستفهام تعجيباً من القصة وتشويقاً لها، وكأنه قيل: هل أتاك هذا الأمر العجيب الذي هو عبرة، فكأن هذا الاستفهام إنما هو تهيئة نفس المخاطب وإعدادها للتلقي ليكون داعياً إلى الإصغاء لها والاعتبار بها.

ومثل الآية السابقة قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَجِيبَةِ ﴾^٢ وهو استفهام أريد به التعجب مما في حيزه والتشويق إلى استماع والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التي حقها أن تتناقلها الرواة ويتنافس في تلقنها الوعاة"^٣

النصح:

نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَتَادُمُ هَلْ أَتَاكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾^٤ ناداه باسمه ليكون أقبل عليه وأمكن للاستماع ثم عرض عليه ما عرض على سبيل الاستفهام الذي يشعر بالنصح"^٥

وقد رأى الدكتور عبد العزيز عتيق أن الآية من التشويق إذ قال " ومن هذا القبيل -أي التشويق- قوله تعالى على لسان إبليس عندما راح يسوس لآدم، ويغريه بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها"^٦

والأولى أن قوله (وهل أدلك) استفهام مستعمل في العرض، وهو انصب المعاني المجازية للاستفهام لقربه من حقيقته، وهذا ما يثبتته السياق.

وهكذا نجد أن الاستفهام في الآيات القرآنية قد خرج إلى غرضين أساسيين هما الإنكار والتقرير مع مصاحبة معان أخرى كالتوبيخ والتعجب والاستبعاد للإنكار، والتعظيم والتفريع للتقرير، وهذه

(١) روح المعاني . (١٢ / ١٧١).

(٢) العاشية: ١

(٣) روح المعاني . (١٥ / ٣٢٤).

(٤) طه: ١٢٠

(٥) روح المعاني . (٨ / ٥٨٢).

(٦) علم المعاني، عبد العزيز عتيق، ص ١١٦

المعاني أسهمت في تلوين الخطاب وحققت الإثارة والفعالية الأسلوبية في النصوص ، نظراً لطبيعة هذا الأسلوب الذي يراد به التأثير في النفس والوجدان ومخاطبة فكر المتلقي .

ثانيا - أسلوب الأمر :

يعدّ أسلوب الأمر أحد الأساليب البلاغية المباشرة التي تعنى الدراسة الأسلوبية والدلالية بتحليلها والوقوف على أغراضها ومراميتها^١ . ويأتي الأمر إما بمعناه الأصلي، وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وإما أن يتحول من أصل وظيفته إلى معنى بلاغي يتمّ تحديده من السياق، وقد جعلها بعض البلاغيين خمسة وعشرين معنى^٢ . ونبه هنا أن النص على معنى بلاغي واحد في الأسلوب . عند العلماء _ لا يعني أكثر من وضوح هذا المعنى وشهرته وإلا فإن أي أسلوب إنشائي سواء كان أمراً أم غيره يفيد مجموعة من المعاني المتقاربة المتداخلة يثيرها الأسلوب في النفس المتلقية، وهي معان شعورية أو نفسية ولهذا فقد نجد اختلافاً في تسمية هذا المعنى أو تعيينه بين العلماء لأنها أمور ذوقية نفسية متقاربة^٣ .

ومن بين الأغراض التي رآها الألوسي في الذكر الحكيم نجد:

الإباحة:

المقصود بالإباحة هو "ترديد الأمر بين شيئين يجوز الجمع بينهما وإذا أتى بواحد منهما كان امتثالاً للأمر كقولك (جالس الحسن أو ابن سيرين) فلا يكون إلا بين مباحين في الأصل وهي تدفع توهم الحرمة كما أن التسوية تدفع توهم الرجحان"^٤

وقد أشار الألوسي إلى هذا الغرض في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ

أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَّةَ الْأَنْعَمِ إِلَّا مَا يَتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ

(١) ينظر: الأسلوبية . جيرو، بيير ، ترجمة: منذر عياشي. حلب: دار الإنماء الحضاري ط٢ . ١٩٩٤ . ص ١٠٤

(٢) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٤٦٣).

(٣) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية، صباح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٩٨٦ ، ص١٧

(٤) الكليات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٤١٩ هـ ص٢٤

﴿١﴾ قال: وإذا حللتم من الإحرام المشار إليه بقوله سبحانه: وأنتم حرم فاصطادوا، أي فلا جناح عليكم بالاصطياد لزوال المانع، فالأمر للإباحة بعد الحظر، ومثله: لا تدخلن هذه الدار حتى تؤدي ثمنها، فإذا أدّيت فادخلها، أي إذا أدّيت أبيح لك دخولها^٢

ويقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ

رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ إن الأمر في الموضعين فامشوا، وكلوا (للإباحة^٤)

فقوله تعالى: { فامشوا في مَنَاكِبِهَا } أمر بإباحة للسعي وطلب الرزق والاكتساب، وكذلك القول في قوله: { وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ } وإباحة لالتماس نعم الله.

ورأى ابن عاشور أن الأمر في هذه الآية مستعمل في الامتنان، جاء في تفسيره: " فامشوا في مَنَاكِبِهَا فصيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة تذكيرا بما سخر الله لهم من المشي في الأرض امتنانا بذلك. ومناسبة وكلوا من رزقه أن الرزق من الأرض. والأمر مستعمل في الإدامة أيضا للامتنان"^٥

ومهما يكن من أمر فإن الامتنان قسم من أقسام الإباحة فلا تعارض بينهما، وهذا ما رآه بعض

البلاغيين^٦

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْكًا

مَرِيئًا ﴿٤﴾ قال: وكيفما كان الأمر يكون قوله سبحانه ذلك عبارة عن التحليل، والمبالغة في

(١) المائة: ١.

(٢) روح المعاني. (٣/ ٢٢٩).

(٣) الملك: ١٥.

(٤) روح المعاني. (١٧/ ١٥).

(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢).

(٦) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٤٦٧).

(٧) النساء: ٤

الإباحة، وإزالة التبعة^١

النصح والإرشاد:

وقد تناول الألوسي هذا المعنى الذي يخرج إليه الأمر في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤) في هذه الآية "إرشاد إلى طريق الفوز بما أشير إليه من المنافع الجليلة التي ينطوي عليها القرآن"^٢

لأن الاستماع والإنصات للمأمور بهما في هذه الآية هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم المقضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس^٣

التوبيخ:

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾^٤ أي خلصوها مما أنتم فيه من العذاب، والأمر للتوبيخ والتعجيز^٥

والأمر في قوله تعالى: (أخرجوا أنفسكم) حكاية لقول الملائكة لهم عند بسط أيديهم لتعذيبهم أو لقبض أرواحهم ، أي أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب إن استطعتم فهو أمر توبيخ وتعجيز

(١) روح المعاني . (٢/ ٤١٠)

(٢) الأعراف: ٢٠٤

(٣) روح المعاني . (٥/ ١٤٠).

(٤) ينظر. التحرير والتنوير (٩/ ٢٣٩)

(٥) الأنعام: ٩٣.

(٦) روح المعاني . (٤/ ٢١٢).

التعجيز:

وقد ورد عند تفسير الألوسي لقوله تعالى: ﴿ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^١ قال: " أي كتابكم الناطق بصحة دعواكم، والأمر للتعجيز"^٢

جاء الأمر بعد ادعائهم بأن الملائكة بنات الله، وإنكار أن تكون لهم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء على ادعائهم في قوله تعالى: { أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ } في الآية السابقة، فخرج الأمر عن معناه الأصلي إلى التعجيز بأن أتوا بالكتاب الذي ينطق لهم بالحجة ويشتمل عليها .

وجاء الأمر للتعجيز أيضا في قوله تعالى: ﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾^٣

(فانفذوا) فخرجوا منها وخلصوا أنفسهم من عقابه عز وجل، والأمر للتعجيز"^٤
هذا كلام يقال للجن والإنس أي: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض ونواحيهما هربا من قضاء الله وقدره فانفذوا منها وخلصوا أنفسهم والأمر بالنفوذ أمر تعجيز.

التهديد:

وقد يأتي أسلوب الأمر للتهديد ففي تفسيره كقوله تعالى: ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْجَبُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴾^٥ قال: " والمراد من الأمر في تربصوا التهديد"^٦

وقوله تعالى: { فَتَرْجَبُوا } وإن كان بصيغة الأمر ، إلا أن في ذلك تهديد لهم ووعيد وهو

(١) الصفات: ١٥٧

(٢) روح المعاني . (١٢ / ١٤٤).

(٣) الرحمن: ٣٣

(٤) روح المعاني . (١٤ / ١١١).

(٥) التوبة: ٥٢

(٦) روح المعاني . (٥ / ٣٠٧).

أحد معاني الأمر المجازية.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُّ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِم بِخَيْبِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾^١ والمراد من الأمر في واستفزز التهديد، وكذا من الأوامر التي أتت بعده، ويمنع من إرادة الحقيقة أن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء^٢

وقد اجتمعت أربعة أفعال أمر في آية واحدة وهي: (استفزز، أجب، شاركهم، عدهم)، هذه الأفعال ليست أوامر يراد تنفيذها، إن الأمر هنا لا يؤخذ على ظاهره، بل يُراد منه التهديد كما يقال: اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك .

ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ يَلْقَوْمِ ائْتَمَرُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنِ تَكُونُ لَهُ عِقَابَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^٣ قال الألوسي: " والأمر للتهديد . وإيراده بصيغة الأمر كما قال غير واحد مبالغة في الوعيد كأن المهتد يريد تعذيبه مجمعاً عازماً عليه فيحمله بالأمر على ما يؤدي إليه وتسجيل بأن المهتد لا يتأتى منه إلا الشر كالمأمور به الذي لا يقدر أن يتفصى عنه"^٤.

و في الآية قول موجه إلى الجماعة الذين عارضوا الرسول عليه الصلاة والسلام واتخذوا مواقف ضده، والأمر فيه مستعمل للتهديد والإنذار، وفيه تسجيل بأن المهتد لا يتأتى منه إلا الشر، وبأن المأمور به مما يزيد المأمور استحقاقاً للعقوبة، واقتراباً منها.

(١) الإسراء: ٦٤

(٢) روح المعاني . (٨ / ١٠٥).

(٣) الأنعام: ١٣٥.

(٤) روح المعاني . (٤ / ٢٧٥).

الإهانة والتحقير:

ومنه الإهانة حين لا يعتد بشأن المأمور، ويظهر هذا الغرض في مخاطبة الكافرين وأهل النار، تحقيراً لهم نحو قوله تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ^١ قال: اصلوها اليوم: أمر تحقير وإهانة ^٢

والأمر بقوله: اصلوها مستعمل في الإهانة والتحقير.

وأيضاً تناول الألويسي هذا الغرض في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ

أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ^٣

قال الألويسي: "فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون... ومعنى الأمر الإهانة بهم، فهو تهكم وتوبيخ، وإلا لكان تحصيلاً للحاصل" ^٤

التبكيـت:

التبكيـت في معناه اللغوي يحمل معنى التقريع والتعنيف، ورد هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿

قُلْ ءَآذِكُرِّيْنَ حَرَّ أَمِ الْآنثِيَّتِيْنَ ؕ أَمَّا أَشْتَمْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْآنثِيَّتِيْنَ نَبِيُّنِي يَعْلَمُ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿١٤٣﴾ ^٥

جاء في روح المعاني: " (قُلْ) تبكيتاً لهم وإظهاراً لعجزهم عن الجواب... (نَبِيُّنِي يَعْلَمُ) أي

أخبروني بأمر معلوم من جهته تعالى جاءت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يدل على أنه تعالى

حرم شيئاً مما ذكر أو نبؤني تنبئة متلبسة بعلم صادرة عنه... والأمر تأكيد للتبكيـت وإظهار

(١) يس: ٦٣-٦٤

(٢) روح المعاني. (١٢/٤٠).

(٣) الأحقاف: ٣٤

(٤) روح المعاني. (١٣/١٩٠).

(٥) الأنعام: ١٤٣

الانقطاع.^١

ف فعل الأمر (قُلْ) و (نَبِّئُونِي) فعلان للأمر خرجا عن المعنى الحقيقي إلى معنى يفهم من سياق الكلام وهو التبكيت.

التسوية:

وذلك في مقام توهم فيه المخاطب رجحان أحد الطرفين، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ

كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾^٢

قال الألوسي: " وصيغة (أَنْفِقُوا) وإن كانت للأمر إلا أن المراد به الخبر، وكثيراً ما يستعمل الأمر بمعنى الخبر كعكسه ، ومنه قول كثير عزة :

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةً لَدِينَا وَلَا مَقْلِبَةً إِنْ تَقَلَّتْ

وأخرج الكلام مخرج الأمر للمبالغة في تساوي الأمرين في عدم القبول"^٣

أي: أنفقوا أو لا تنفقوا سواء، كما دلت عليه أو في قوله طوعاً أو كرهاً، ويرى الألوسي أن الآية جاءت في معنى الخبر الشرطي لأنه في قوة أن يقال: لن يتقبل منكم إن أنفقتم طوعاً أو أنفقتم كرهاً.

وقد رجح الشيخ الشعراوي الأمر في هذه الآية للتهديد والوعيد، فقال: هل هذا أمر بالإففاق؟ أو هل يريد منهم أن ينفقوا فعلاً، خاصة أنه سبحانه لن يتقبل منهم؟ لا ليس هذا أمراً بالإففاق بل هو تهديد ووعيد. مثلما تقول لإنسان: اصبر، فذلك ليس أمراً بالصبر ولكن تهديد بمعنى: اصبر فسترى مني هولاً كثيراً. وهذا مثل قوله تعالى: (فاصبروا أَوْ لَا تَصْبِرُوا .) [الطور: ١٦] " ولا تعارض

(١) روح المعاني . (٤ / ٢٨٥).

(٢) التوبة: ٥٣

(٣) روح المعاني . (٥ / ٣٠٧).

(٤) ينظر: خواطر الشعراوي (٩ / ٥١٨٢)

أن يجتمع هذين الغرضين في الآية.

الاعتبار:

دعا القرآن في العديد من آياته إلى التأمل في الكون، وما يحويه من دلائل على عظمة الخالق، والاعتبار من قصص وأخبار السابقين، والواقع أن فكرة الاعتبار وإثارة التأمل أصلية في الأسلوب القرآني أداء ومنهجها وإذا جاءت على مناهج عديدة من القول وغلبت في مواد القرآن^١ ، ولهذا كثيرا ما نجد دعوة القرآن الكريم إلى السير في الأرض والنظر إليه بتأمل وتدبر.

وورد الأمر للاعتبار في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾^٢

قال الألوسي: " الأمر (بالسير والنظر) السابق وإن كان خاصاً بالمؤمنين على المختار لكن العمل بموجبه غير مختص بهم ففيه حمل للمكذبين أيضاً على أن ينظروا في عاقبة أسلافهم ليعتبروا بذلك"^٣

وقد ذكر صاحب عروس الأفراح هذا الغرض فقال: "الأمر بمعنى الاعتبار، ذكره العبادي أيضا في ترجمة غير الفارسي، ومثله بقوله تعالى: { انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ }"^٤ °

وقد وافق الألوسي ابن السبكي أن الأمر في الآية السابقة يفيد الاعتبار والاستبصار أيضا"^٥

(١) ينظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية، صباح عبيد دراز، مطبعة الأطرمان، مصر، ط ١، ١٩٨٦ ص ٣٢

(٢) آل عمران: ١٣٧

(٣) روح المعاني . (٢ / ٢٨٠).

(٤) الأنعام: ٩٩

(٥) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١ / ٤٦٨)

(٦) ينظر: روح المعاني . (٤ / ٢٢٦).

ثالثاً - أسلوب النهي:

يُعدّ النهي من أنواع الطلب ، وهو طلب الكف عن الفعل ، استعلاءً ، قال السكاكي : " للنهي حرف واحد وهو (لا) الجازم في قولك (لا تفعل) ، والنهي محذو به حذو الأمر في أنّ أصل استعمال (لا تفعل) أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور فإن صادف ذلك أفاد الوجوب وإلا أفاد طلب الترك فحسب " ١ . فالوجوب والإلزام شرطان يلازمان أسلوب النهي ويعنيان وجوب إلزام المخاطب بما ينهى عنه ، والسكاكي يوازن بين أسلوب الأمر وأسلوب النهي فيرى أنّ الأسلوبين يشتركان في اعتبار الاستعلاء والمتلقي ، لأنّ الأمر والنهي يقصدان الآخر فلا يمكن لإنسان أن ينهى نفسه وبأمرها .

أما وجه الخلاف بين الأسلوبين فهو أنّ لكل منهما صيغة خاصة به ، " الأمر دالّ على الطلب ، والنهي دالّ على المنع ، وأنّ الأمر لا بدّ من إرادة مأموره ، وأنّ النهي لا بد فيه من كراهية منهيّة " (٢) .

والنهي من أساليب الإنشاء الطلبي ، ودلالته الأصلية طلب الكف عن الفعل على جهة الإلزام ، وله صيغة واحدة هي المضارع المقترن بلا الناهية ، وهذه الصيغة تتحرك في موضعها حركة داخلية لكي تفرز دلالات متعددة تستمد قوامها من المعنى الأصلي ولكنها تشبع بطبيعة السياق والمقام ، وتعتمد على قرائن الأحوال. " ٣

وقد يرد النهي ويراد به المعنى الحقيقي للنهي وهو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء

والإلزام، وتحدّث الألويسي عن النهي الحقيقي في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا

(١) مفتاح العلوم، السكاكي ص ٣٢٠.

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العصرية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ . ١٥٧/٣ .

(٣) ينظر: جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية لوجمان، القاهرة، ط١ ، ١٩٩٥م ، ص ١٩٨ .

أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٥١﴾^١

وقد علق الألوسي على النهي في هذه الآية فقال: " ولا يخفى ما في الجمع بين التوصية بحفظ المال، والتوصية بحفظ النفس من الملاءمة؛ لما أن المال شقيق النفس من حيث إنه سبب لقوامها، وتحصيل كمالاتها، واستيفاء فضائلها، والملاءمة بين النهيين أتم، وقدم النهي الأول؛ لكثرة التعرض لما نهى عنه"^٢

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾^٣

يقول الألوسي، مبينا أن النهي في هذه الآية حقيقي " فجملة نحن... الخ استئناف مسوق لتعليل النهي، وإبطال سببية ما اتخذوه سببا لمباشرة المنهي عنه، وضمنان منه تعالى لأرزاقهم، أي نحن نرزق الفريقين لا أنتم، فلا تقدموا على ما على ما نهيتم عنه لذلك، وتعليل النهي بقربانها في قوله: (ولا تقربوا الفواحش) يتم عنه لذلك، إما للمبالغة في الزجر عنها؛ لقوة الدواعي إليها، وإما لأن قربانها داع إلى مباشرتها"^٤

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا سَهْرَهَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾^٥ يوضح الألوسي المعنى الحقيقي للنهي الذي اشتملت عليه الآية الكريمة، حيث قال: المراد من قوله

(١) النساء: ٤٩

(٢) روح المعاني . (١٧ / ٣)

(٣) الأنعام: ١٥١

(٤) روح المعاني . (٢٩٨ / ٤)

(٥) الاسراء: ٢٣

(ولا تقل لهما أف) المنع من إظهار الضجر القليل والكثير، والمراد من قوله سبحانه (ولا تنهرهم) المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليهما، والتكذيب لهما،^١

وليس المقصود من النهي عن أن يقول لهما أف خاصة، وإنما المقصود النهي عن الأذى الذي أقله الأذى باللسان بأوجز كلمة، وبأنها غير دالة على أكثر من حصول الضجر لقائلها دون شتم أو ذم، فيفهم منه النهي مما هو أشد أذى بطريق فحوى الخطاب بالأولى.

وقد يخرج النهي عن معناه الحقيقي - وهو طلب الكف عن الفعل - إلى معانٍ بلاغية أخرى، تفهم من السياق، وقرائن الأحوال، وهي كثيرة، منها:

النصح و الموعظة:

ويتخذ الأسلوب القرآني النهي وسيلةً للنصح والإرشاد، وقد تطرق الألوسي إلى هذا الضرب في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾^٢

قال الألوسي: "وفي نهيهم إياه عن نسيان نصيبه من الدنيا حضاً عظيم له على التزود من ماله للآخرة.. وفي قوله (لا تبغ الفساد في الأرض) نهي عن الاستمرار على ما هو عليه من الظلم والبغي، وهذه الموعظة بأسرها كانت من مؤمني قومه كما هو ظاهر الآية"^٣

التسلية و الايناس:

وقد أورد الألوسي ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾^٤

(١) روح المعاني . (٨ / ٥٥).

(٢) القصص: ٧٧.

(٣) روح المعاني . (١٠ / ٣١٨).

(٤) المائدة: ٤١

فقال: وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيًا للكفرة على أن يجزئوه صلى الله عليه وسلم بمسارعتهم في الكفر لكنه في الحقيقة نهي له عليه الصلاة والسلام عن التأثر من ذلك والمبالاة، والغرض منه مجرد التسلية على أبلغ وجه وأكده؛ فإن النهي عن أسباب الشيء ومبادئه المؤدية إليه نهي عليه بالطريق البرهاني، وقطع له من أصله^١

وجاء هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَتُوبُوا فَلْيَسْرُوهْ فَلَاحِقَ لَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ اللَّهَ فَاعِلٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا^٢ يقول الألوسي: لا تحزن ليس المقصود منه حقيقة النهي عن الحزن؛ فإنه من الأمور التي لا تدخل تحت التكليف، بل المقصود منه التسلية للصديق رضي الله تعالى عنه^٣

التيسيس:

أفاد النهي معنى التيسيس في قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ

طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعْدَبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

بيّن الألوسي أن النهي في الآية لم يرد بمعنى النهي الحقيقي، وإنما المراد منه مجرد التيسيس، قال:

لا تعتذروا، أي لا تشتغلوا بالاعتذار، وتستمروا عليه، فليس النهي عن أصله؛ لأنه قد وقع، وإنما نُهوا عن ذلك لأن ما يزعمونه معلوم الكذب بيّن البطلان^٤

ويقول الألوسي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾^٥ ونهيبهم عن الاعتذار؛ لأنهم لا عذر لهم؛ أو لأن العذر لا ينفعهم^٦

(١) روح المعاني . (٣/ ٣٠٥).

(٢) التوبة: ٤٠.

(٣) روح المعاني . (٥/ ٢٩٢).

(٤) التوبة: ٦٦.

(٥) روح المعاني . (٥/ ٣٢٠).

(٦) التحريم: ٧.

الإلهاب والتهيج:

ذكر العلوي أنهما "مقولان على كل كلام دال على الحث على الفعل لمن لا يتصور منه تركه وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله، ولكن يكون صدور الأمر والنهي من هذه حاله على جهة الإلهاب والتهيج له على الفعل أو الكف لا غير"^٢

وفائدة هذا الغرض إثارة الشعور والوجدان والانفعال وهز المشاعر ودغدغة العواطف حيث تكون النفس عند سماعه أحسن تلقيا وأكثر تمسكا به، ولذلك نجد هذا الفن مستعملا في المعاني الهامة التي هي أصول في هذا الدين"^٣

ورأى الألوسي هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾^٤ جاء في تفسيره: "(وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ) كثير الحلف في الحق والباطل وكفى بهذا مزجرة لمن اعتاد الحلف لأنه جعل فاتحة المثالب وأساس الباقي وهو يدل على عدم استشعار عظمة الله عز وجل وهو أم كل شر عقداً وعملاً وذكر بعضهم أن كثرة الحلف مذمومة ولو في الحق لما فيها من الجرأة على اسمه جل شأنه وهذا النهي للتهيج والإلهاب أيضاً أي دم على ما أنت عليه من عدم طاعة كل حلاف"^٥

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^٦ " أي ولا تعبد معه تعالى غيره عز وجل ، وهذا وما قبله للتهيج والإلهاب وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة والسلام إياهم وإظهار أن المنهي عنه في القبح والشربة بحيث ينهي عنه من لا يتصور وقوعه منه"^٧.

(١) روح المعاني . (١٤ / ٣٥٢).

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي (٣ / ٩٣)

(٣) ينظر: من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، محمد أبو موسى، دار الفكر العربي، القاهرة دت، ص ٧

(٤) القلم: ١٠

(٥) روح المعاني . (١٥ / ٣١).

(٦) القصص: ٨٨

(٧) روح المعاني . (١٠ / ٣٣٥).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿١٥﴾﴾^١

جاء في روح المعاني: " وفائدة النهي في الموضوعين التهيج والإلهاب نظير ما مر ، والمراد بذلك إعلام أن الامتراء والتكذيب قد بلغا في القبح والمخذورية إلى حيث ينبغي أن ينهي عنهما من لا يمكن أن يتصف بهما فكيف بمن يكن اتصافه وفيه قطع لأطماع الكفرة"^٢ .

هذا جزء بسيط من الأساليب الانشائية في القرآن الكريم له نظائر كثيرة في تفسيره، واكتفيت بذكر بعضها لأني كما قلت سابقا لا أهداف من هذه الدراسة إلى الاستقصاء الشامل إنما أتوخى بيان طريقته في دراسة أبواب علم المعاني.

(١) يونس: ٩٥

(٢) روح المعاني . (٦ / ١٧٩).

رابعاً- التقديم والتأخير:

يمكن تحديد مفهوم التقديم والتأخير في نظم الكلام وتأليفه بأنه " تبادل في مواقع الكلمات بحيث تترك الكلمة مكانها في المقدمة، لتحل محلها كلمة أخرى، وذلك لتؤدي غرضاً بلاغياً ما كانت لتؤديه لو أنها بقيت في مكانها المحدد الذي اقتضته قاعدة الانضباط اللغوي" ١، ولهذا فإن التقديم والتأخير من الأساليب التي تدل على مرونة اللغة العربية، ومن الوسائل التي يلجأ إليها الأديب أو الكاتب في تغيير صياغة الجملة، والتصرف في الرتب المحفوظة لغايات وأسرار بلاغية.

ويرى أحمد مطلوب أن التقديم والتأخير هو تغيير في بنية التراكيب الأساسية، وانزياح عن الأصل يكسبها حرية ودقة ٢، فمن المعروف أن لكل لغة نظاماً معتاداً في ترتيب عناصر الجملة، ولكن هذا النظام ليس مطرداً دائماً، ففي أحوال كثيرة يتم الانزياح عنه، والخروج على قواعده، بتحريك عنصر معين-تقدماً وتأخيراً- بناءً على أهميته في تشكيل الجملة، ولكي نحكم على لغة من اللغات بالمرونة أو التصلب، لا بد أن ننظر إلى طبيعة قواعد ترتيب العناصر فيها، وإلى مدى مخالفة هذه القواعد والانزياح عنها، "فمما يميز فصائل اللغات بعضها عن بعض نظام ترتيب العناصر من ناحية، والوان تغيير الترتيب من ناحية أخرى" ٣

ولا تكاد تخلوا السور والآيات القرآنية من أسلوب التقديم والتأخير الذي يطوع التراكيب والمعاني لأعتبارات مناسبة للسياق، وعند تتبع مواضع هذا الأسلوب في تفسيره وجدت الألوسي قد اجتهد في ذكره وتبيين أصل الكلام أو ما يسمى في الأسلوبية بالمستوى العادي للغة، عن طريق اتخاذ النحو العربي كمعيار لأي عدول، وأخرج دلالاته المختلفة والتي نسوق منها الأمثلة والشواهد التالية :

(١) ينظر: بلاغة الكلمة والجملة والجملة، سلطان منير، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٨، ص١٣٨

(٢) ينظر: بحوث لغوية، أحمد مطلوب، دار الفكر، عمان، ط١، ١٩٨٧، ص٤١.

(٣) خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ط١، ١٩٨١، ص٢٨٣

١- تقديم المسند إليه:

أ- على الخبر الفعلي: في الإثبات

والمراد بالإثبات هنا هو ألا يتقدم على المسند إليه حرف نفي نحو: أنا قمت، وان تقدم على المسند، نحو: أنا ما قمت فإنه يدخل أيضا في الإثبات، وهذا ما أقره الجرجاني^١.

وهذا القسم من التقديم له عدة مقاصد منها:

*الاختصاص:

استخدم الألويسي أيضا مصطلح الحصر بدل الاختصاص في العديد من المواضع من تفسيره، ولم يفرق بينهما، وفرق بينهما بعض البلاغيين أنه قصد المتكلم إفادة السامع خصوص شيء من غير تعرض ولا قصد لغيره بإثبات ولا نفي، وأما الحصر فمعناه نفي غير المذكور وإثبات المذكور يعبر عنه بما وإلا أو بإنما^٢

ومما جاء للاختصاص في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣١﴾ ﴾^٣

يقول الألويسي: " فتقديم المسند إليه للتخصيص يعني التسمية مني لا يشاركني فيها أحد "^٤

فقدم المسند إليه المكون من (حرف التوكيد وضمير المتكلم) على الفعل (سميتها) الذي وقع خبرا في هذه الآية لإفادة التخصيص أن هذا الأمر قامت به هي دون مشاركة.

ومنه أيضا: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾^٥

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي للاختصاص"^٦

(١) ينظر دلائل الاعجاز ص ١٣٨

(٢) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٣٨٥)

(٣) آل عمران: ٣٦.

(٤) روح المعاني . (٢/ ١٣١).

(٥) البقرة: ٣٠.

(٦) روح المعاني

فقدم المسند إليه وهو ضمير المتكلم (نحن) وهم الملائكة على المسند الفعلي (نسيح، نقس) لدلالة الاختصاص وهذا ما أفادته أيضا الجملة الإسمية من الدوام أي نحن الدائمون على التسييح والتقديس دون هذا المخلوق.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾^١ أي: لا يعلم مقادير ساعاتهما كما هي إلا الله تعالى فإن تقديم اسمه تعالى مبتدأ مبنياً عليه يقدر دال على الاختصاص على ما ذهب إليه جار الله ويؤيده قوله تعالى: (عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ) فإن الضمير لمصدر يقدر لا للقيام المفهوم من الكلام والمعنى علم أن الشأن لن تقدروا على تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات ولا يتأتى لكم حسابها بالتعديل والتسوية إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط وذلك شاق عليكم بالغ منكم^٢ تقديم المسند إليه وهو اسم الجلالة على المسند وهو الفعل (يقدر) يفيد الاختصاص أي لا يقدر على تقديرهما أحد أصلاً، فإن تقديم الاسم الجليل مبتدأ وبناء يقدر عليه موجب للاختصاص وأن العالم بمقادير أجزاء الليل والنهار ليس إلا الله تعالى، وهذا ما بينه ويوضحه الكلام الذي يأتي بعده وهو قوله تعالى: (عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ).

* تقوية الحكم والحصر:

جوز الألوسي اجتماع الاختصاص مع تقوية الحكم في مواضع كثيرة في الكتاب الحكيم ومعنى الاختصاص والتقوية، لا يتعارضان، فما يفيد الاختصاص يفيد التقوية؛ لأن الاختصاص يعتبر تأكيداً على تأكيد، وحول مفهوم تقوية الحكم يقول السبكي "بأن المبتدأ من حيث كونه مبتدأ، يستدعي أن يسند إليه شيء، فإذا جاء بعده ما يصلح أن يستند إليه، صرفه إلى نفسه، فينعقد بينهما حكم. وربما استمر ذلك، أو يتبين فساده، كقولك: زيد قام أبوه. فإن زيدا يصرف إلى نفسه قبل أن يسمع قوله أبوه. فلا شك أن المبتدأ يصرف ما بعده إلى نفسه، ثم إذا كان فيه ضميره صرفه ذلك الضمير إليه ثانياً، بمعنى أنه قوى الدلالة على صرفه إليه، وحاصله أن الضمير يعين ما كان ظاهراً^٣"

(١) المزمل: ٢٠.

(٢) روح المعاني. (١٥/ ١٢٣)

(٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٢٣٦)

وهذا المقصد البلاغي نجده في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ ﴾^١ وتقديم الضمير للتقوى أو الاختصاص أي مكرهم هو يفسد خاصة لا مكرنا بهم^٢

قدم المسند إليه في الآية وهو ضمير الفصل المتوسط بين مكر أولئك وبين الفعل (يبور) ليفيد الاختصاص بمعنى أن مكر أولئك المجرمين خاصة يبور إذ لا يحتمل غيره. كما في تقديمه دلالة على الثبات والتقوية.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنْ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^٣ (والله يَقْضِي بالحق) وتقديم المسند إليه ، وجوز أن يكون للحصر وفائدة العدول عن المضمير إلى المظهر والإتيان بالاسم الجامع عقيب ذكر الأوصاف ما أشير إليه من إرادة الموصوف بتلك الصفات .^٤

الأصل في الكلام أن يؤتى بجملة يقضي بالحق معطوفة بالواو على جملة الآية السابقة (يعلم خائنة الأعين) [غافر: ١٩] فيقال: ويقضي بالحق ولكن الألوسي رأى أن في الآية عدولا عن ذلك لما في الاسم العلم لله تعالى من الإشعار بما يقتضيه المسمى به من صفات الكمال التي منها العدل في القضاء، وليحصل من تقديم المسند إليه على المسند الفعلي تقوي المعنى أو الاختصاص أنه لا اله غيره { يقضي بالحق }، وهذه المعاني الدقيقة والدلالات لا نجد لها لو لم يخالف عن مقتضى الظاهر.

ومنه قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنََّّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾^٥ وتقديم المسند إليه لتقوية الحكم أو للحصر أي ربنا يعلم لا أنتم لانتفاء النظر في الآيات عنكم .

وفي قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾^١

(١) فاطر: ١٠.

(٢) روح المعاني. (١١/٣٤٩).

(٣) غافر: ٢٠.

(٤) روح المعاني. (١٢/٣١٤).

(٥) يس: ١٦.

يقول الألوسي: "وتقديم الاسم الجليل وبناء (يَتَوَقَّى) عليه للحصر أو للتقوى أو لهما، واعتبار الحصر أوفق بالمقام من اعتبار التقوى وحده أي الله يتوفى الأنفس حقيقة لا غيره عز وجل^٢ فرأى الألوسي أن تقديم اسم الجلالة على الخبر الفعلي لإفادة تخصيصه بمضمون الخبر أو للتقوى، واعتبر الحصر أوفق بالمقام أي الله يتوفى لا غيره فهو قصر حقيقي لإظهار فساد لإشراكهم لآلهة لا تملك تصرفا في أحوال الناس.

ب- تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي: في النفي

نص الجرجاني في كتابه أن مثل هذا التركيب يفيد الاختصاص^٣ سواء كان المسند إليه المنفي ضميرا، أو اسما ظاهرا أو نكرة.

وقد وافق الألوسي هذه القاعدة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَائِبُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^٤

فقال: "وجوز أن يكون ذلك لإفادة كونها مسخرة لا يتسهل لها إلا ما أريد بها من حيث تقدم المسند إليه على الفعل وجعله بعد حرف النفي نحو ما أنا قلت هذا وما زيد سعى في حاجتك يفيد التخصيص أي ما أنا قلت هذا بل غيري وما زيد سعى في حاجتك بل غيره على ما حققه علماء البلاغة"^٥

وصياغة الكلام بهذا الأسلوب أي: الإخبار عن المسند إليه بالمسند الفعلي وافتتاح الجملة بحرف النفي لإفادة الاختصاص، وهو أبلغ مما لو قيل: لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر. فيكون المعنى بناء على قاعدة التقديم أن الشمس لا تقدر على ذلك بل غيرها يقدر عليه وهو الله عز وجل، وما يؤيد هذا الكلام هو إثبات الجريان لها بتقديره سبحانه وتعالى في الآيات السابقة التي توحى بكونها مسخرة لا يتسهل لها إلا ما أريد بها .

(١) الزمر: ٤٢ .

(٢) روح المعاني . (١٢ / ٢٦٢) .

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز ص ١٢٤ وما بعدها

(٤) يس: ٤٠ .

(٥) روح المعاني . (١٢ / ٢١) .

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^١ قدم الضمير إشارة إلى اختصاصهم بانتفاء الحزن وأن غيرهم يحزن^٢

أما في قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾^٣ فيقول: وتقديم المسند إليه لرعاية الفاصلة والتقوى لا للحصر إذ ليس المقام مقامه ، ولذا لم يقل فلا عنهم يخفف العذاب^٤

عند تفسيره لهذه الآية خالف الألوسي ما نص عليه الجرجاني ويرى أن التقديم في هذه الآية لرعاية الفاصلة (خَالِدُونَ، مُعْرِضُونَ، تَشْهَدُونَ، تَعْمَلُونَ) وتقوية الحكم وليس للاختصاص فالمقام هو سيد الموقف في تحديد المقصد.

ج- تقديم المسند إليه على المسند المشتق:

قد يفيد التقوية نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾^٥

يقول الألوسي: "وتقديم المسند إليه في (أَفَأَنْتَ) للتقوية عند السكاكي وجعله العلامة للتخصيص . ففي تقديم الفاعل المعنوي وإيلائه همزة الإنكار الدلالة على أن نبي الله صلى الله عليه وسلم تصور في نفسه من حرصه على إيمان القوم أنه قادر على الاسماع أو نزل منزلة من تصور أنه قادر عليه وأنه تعالى شأنه نفى ذلك عنه صلى الله عليه وسلم وأثبتته لنفسه سبحانه على الاختصاص كأنه قيل : أنت لا تقدر على اسماع أولئك بل نحن القادرون عليه كذا قيل وفي القلب منه شيء ، ولذا اختير هنا مذهب السكاكي"^٦

يميل الألوسي في هذه الآية إلى كون التقديم يفيد التقوية، وهو مذهب السكاكي

(١) البقرة: ٣٦.

(٢) روح المعاني . (١/ ٢٤١).

(٣) البقرة: ٨٦.

(٤) روح المعاني . (١/ ٣١٥).

(٥) يونس: ٤٢.

(٦) روح المعاني (٦/ ١١٩).

ويكون لغرض الحصر والاختصاص، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝١١ ﴾^١ ساق العلامة الألوسي كلام السكاكي في كون التقديم جاء للحصر والاختصاص فيقول: وقد صرح السكاكي في المفتاح أنه قصد بتقديم هذا الضمير الذي هو فاعل معنوي وإن لم يكن الخبر فعلاً بل صفة مشبهة وإيلائه النفي الحصر والاختصاص أي اختصاص النفي بمعنى أن عدم العزة مقصور عليك لا يتجاوزك إلى رهطك لا بمعنى نفي الاختصاص بمعنى لست منفرداً بالعزة وهو ظاهر^٢

والزمخشري يرى في هذه الآية أنها تفيد الاختصاص، جاء في كشافه: "وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: وما انت علينا بعزير بل رهطك هم الأعزة علينا، ولذلك قال في جوابهم (أرهطي أعز عليكم من الله)، ولو قيل: وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب " ٣ فالزمخشري رأى أن التقديم في هذه الآية يفيد التخصيص وأنه قصر أفراد.

٢- تقديم المسند:

يقدم المسند لغرض القصر: كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨ ﴾^٤ وتقدم الجار والمجرور عليه للقصر أي أن إلى ربك رجوع الكل بالموت والبعث لا إلى غيره سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً^٥ جاء في الآية تقديم الخبر الواقع شبه جملة من جار ومجرور (إلى ربك) على المبتدأ (الرجعى)

(١) هود: ٩١.

(٢) روح المعاني. (٦/ ٣١٩).

(٣) - الكشاف (٢/ ٢٨٩).

(٤) العلق: ٨.

(٥) روح المعاني (١٥/ ٤٠٤).

للقصر أي: الرجعى إليه سبحانه لا إلى غيره ، وهذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان .

ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾^٨ ١

جاء في تفسيره: "أي والله تعالى الغلبة والقوة ولمن أعزه الله تعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم

والمؤمنين لا للغير ، ويعلم مما أشرنا إليه توجيه الحصر المستفاد من تقدم الخبر"^٢

وتقدم المسند (الله) على المسند إليه (العزة) لقصد القصر، أي العزة لله ولرسوله وللمؤمنين لا

لكم كما تحسبون.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْنَا لِنِ خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ**

الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴾^٣ ٥ وقدم الخبر للقصر والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم أمراً عجيباً^٤ جاء في

الآية الكريمة رفع كلمة (عجب) على أنه خبر مقدم و (فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ) مبتدأ مؤخر لافادة

القصر بمعنى لا يوجد قول أعجب من قولهم بأن يقصر عليه التعجب.

ويقدم للعناية والاهتمام كما في قوله تعالى: ﴿ **قَالَتْ إِحَدَهُمَا يَا بَتِ أَسْتَجِرُّهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ**

أَسْتَجَرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾^٥ ٦

قال الألوسي: " قدمت الخيرية للاهتمام بأمر الخيرية لأنها أم الكمال المبني عليها غيرها"^٦

أصل الكلام دون تقدم أو تأخير هو قولها: إن القوي الأمين خير من استأجرت وإنما عدل إلى

(١) المنافقون: ٨.

(٢) روح المعاني (١٤/ ٣١٠)

(٣) الرعد: ٥.

(٤) ينظر: روح المعاني (٧/ ٩٩).

(٥) القصص: ٢٦.

(٦) روح المعاني . (١٠/ ٢٧٤).

جعل { خَيْرٌ مِّنِ اسْتَأْجَرْتَ } اسماً و { القوى الأمين } خبراً مع أن العكس أولى لأن العناية هي سبب التقديم، فأوثر بالتقديم في جزأي الجملة ما هو أهم وأولى بالعناية وهو خير أجير، لأن الجملة سيقت مساق التعليل لجملة استأجره لأن وصف الأجير أهم في مقام تعليلها ونفس السامع أشد ترقباً لحاله.

ويكون تقديم المسند لغرض الاهتمام كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^١ أي "لم يكافئه أحد ولم يمثله ولم يشاكله من صاحبة وغيرها وقيل هو نفي للكفاءة المتبعة بين الأزواج وهو كما ترى، و (له) صلة كفوا على ما ذهب إليه المبرد وغيره والأصل أن يؤخر إلا أنه قدم للاهتمام لأن المقصود نفي المكافاة عن ذاته عز وجل وللاهتمام أيضاً قدم الخبر مع ما فيه من رعاية الفواصل"^٢

وتقديم المسند الذي وقع خبر (كان) على اسمها للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بذكر الكفو عقب الفعل المنفي ليكون أسبق إلى السمع.

أو التشويق نحو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^٣

أي عظيم بقتل أبطالهم وأقيالهم ، وكسر أصنامهم ، وتسفيه أحلامهم ، وإخراجهم من جزيرة العرب التي هي دار قرارهم ، ومسقط رؤوسهم ، أو بضرب الجزية على أهل الذمة منهم (وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) وهو عذاب النار لما أن سببه أيضاً ، وهو ما حكى من ظلمهم كذلك في العظم وتقديم الظرف في الموضوعين للتشويق لما يذكر بعده"^٤ .

(هُمْ) جار ومجرور خبر مقدم (خِزْيٌ) مبتدأ مؤخر (وَهُمْ) الواو عاطفة لهم خبر مقدم ، (عَذَابٌ) مبتدأ مؤخر، وتقديم الظرف في الموضوعين لتشويق إلى ما يذكر بعده من الخزي والعذاب لأن تأخير ما حقه التقديم أمر تتوق له النفس فيتمكن فيها عند وروده فضل تمكن.

(١) الإخلاص: ٤ .

(٢) روح المعاني (١٥ / ٥١٥) .

(٣) البقرة: ١١٤ .

(٤) روح المعاني (١ / ٣٦٣) .

٣- تقديم متعلقات العامل:

يشتمل هذا المبحث على تقديم معمولات العامل عليه من حال وتمييز وظرف ومجرور ومفاعيل باستثناء الفاعل فإنه يكون بالتقديم عاملاً لا معمولاً، وتقدم هذه معمولات على عاملها جار على خلاف الأصل في تأخرها عنه مما يدفع للمبحث عن أسرار تلك المخالفة.

ومن أهم دلالات تقدم تلك معمولات على عاملها إفادة الاختصاص الذي هو لازم للتقديم غالباً^١، وهذا سبب عام تتفرع منه، وتتصل به أسباب أدق، نستدل عليها من خلال السياق القرآني وأكثر ما نجد هذا المقصد عند الألويسي في تقديم المفعول به على الفعل نحو قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُحَمَّدٌ مُّخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾^٢، أي (قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ) لا غيره سبحانه لا استقلالاً ولا اشتراكاً^٣

ومثله قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾^٤ ونصب الثاني على أنه مفعول لما بعده قدم عليه للقصر أي لا أقول إلا الحق^٥

في قوله تعالى: (والحق أقول) كلام فيه معنى القصر عن طريق تقديم المفعول به على الفعل أي: لا أقول إلا الحق.

ونجد أيضاً في تقديم الجار والمجرور على الفعل نحو قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾^٦ يقول الألويسي: " (مَنْسَكًا) أي شريعة خاصة ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل للقصر لا لأمة أخرى منهم"^٧

وحاصل المعنى هنا أن الله وضع لكل أمة معينة من الأمم شريعة خاصة بحيث لا تتخطى أمة

(١) ينظر: شروح التلخيص ، سعدالدين التفتازاني، دار الكتب العلمية، بيروت، دت ج ٢ ص ١٥٠

(٢) الزمر: ١٤.

(٣) روح المعاني . (١٢ / ٢٤٠)

(٤) ص: ٨٤.

(٥) روح المعاني . (١٢ / ٢١٩).

(٦) الحج: ٦٧.

(٧) روح المعاني . (٩ / ١٨٥).

منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى لا استقلالاً ولا اشتراكاً.

وتقدم متعلقات العامل للحصر ورعاية الفاصلة القرآنية، نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^{٤٤} قال العلامة الألوسي: "وتقدم إليه" للفاصلة وللدلالة على الحصر؛ إذ المعنى إليه تعالى، لا إلى أحد غيره سبحانه لا استقلالاً ولا اشتراكاً ترجعون " ٢

بينما أضاف ابن عاشور دلالة الاهتمام: "وتقدم (إليه) على (ترجعون) للاهتمام، والتقوى وللرعاية على الفاصلة" ٣

وربما الذي دفع ابن عاشور لعدم الإشارة للحصر ما فهم سابقاً في بدء تركيب الآية القرآنية من معنى الحصر في قوله تعالى [لله الشفاعة جميعاً] فاستغنى عن إعادة معناه مرة أخرى لكون سياق الآية واحداً، ومعناها متصلاً.

ولهذا الغرض أيضاً قدم العامل على المعمول في قوله تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾^{٤٥}

جاء في روح المعاني: "وتقديم الظرف للحصر على معنى أن الأكل منها هو المعتاد المعتمد في المعاش من بين سائر الحيوانات.... ويضم إلى هذا الوجه في التقديم رعاية الفواصل" ٥

فتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للإشارة إلى أن الأكل منها هو الأصل، وغيره نادر، ورأى ابن عاشور أن التقديم للاهتمام ٦ .

ومنه الاعتناء بالمقدم والتشويق للمؤخر يقول الألوسي عن فائدة هذا الأسلوب: إن النفس عند تأخير ما حقه التقديم لا سيما عند كون المقدم منبئاً عن منفعة السامع تبقى مترتبة لورود المؤخر

(١) الزمر: ٤٤ .

(٢) - روح المعاني (١٠/ ٢٤)

(٣) - التحرير والتنوير (٢٨/٢٤)

(٤) النحل: ٥ .

(٥) روح المعاني . (٧/ ٣٤٢) .

(٦) ينظر: التحرير والتنوير ١٤ ص ١٠٥

فيتمكن فيها عند ورود فضل تمكن^١ وقد ورد بكثرة في التنزيل الحكيم منه:

قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

وَلِيًّا ۝٢﴾

جاء في تفسيره: " وتأخير المفعول عن الجارين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر ولأن فيه نوع طول بما بعده من الوصف فتأخيرها عن الكل وتوسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم"^٢

أصل الكلام: فهب وليا لي من لدنك . وإنما عدل إلى تقديم الجار والمجرور (لي) و (من لدنك) على المفعول به لأنه الأهم في غرض الداعي ولما فيه من تشويق للمؤخر.

ومنه قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ

النُّشُورُ ۝٤﴾

جاء في روح المعاني: "وتقديم لكم على مفعولي الجعل مع أن حقه التأخر عنهما للاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر لا سيما عند كون المقدم مما يدل على كون المؤخر من منافع المخاطبين تبقى النفس مترتبة لوروده فيتمكن لديها عند ذكره فضل تمكن"^٣

توسط الجار والمجرور في الآية بين الفعل والمفعول به، وأصل الكلام: هو الذي جعل الأرض ذلولا لكم، ولكن عدل عن هذا الترتيب إلى ما في النظم الكريم لكون الكلام موجه للمخاطبين وإظهار الاهتمام والاعتناء بهم، وأخر مفعولي (جعل) للتشويق وترقب وروده.

ومنه تقدم شبه الجملة على المفعول في قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا

ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾

(١) ينظر: روح المعاني . (٤ / ٣٢٦).

(٢) مریم: ٥.

(٣) روح المعاني . (٨ / ٣٨٢).

(٤) الملك: ١٥.

(٥) روح المعاني . (١٥ / ١٦).

(٦) الكهف: ١٠.

يقول الألوسي: "وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة في المؤخر وكذا الكلام في تقديم (مِنْ لَدُنْكَ) على رحمة على تقدير تعلقه بآتنا ، وتقديم المجرور الأول على الثاني للإيدان من أول الأمر بكون المسؤل مرغوباً فيه لديهم"^١

ولنفس المقصد البلاغي قدم الجار والمجرور (من لدنك.. من أمرنا) على المفعول به في الموضعين (رحمة...رشدا).

ومثل هذا الغرض ورد في آيات عديدة نحو ما جاء في سورة:يوسف ٩ الشعراء ٤ الحج ٦٥ طه ١٦ يوسف ٣٦ المائدة.

كما يقدم للإبهام ثم التفسير، تكمن فائدة وجمالية هذه الوظيفة البلاغية في كون النفس بطبيعتها تتوق إلى تطلع كل شئ مبهم ومجهول، فيكون بعد ادراكه وبيانه قبول، ويرسخ موقعه في النفس وهذا الملحظ النفسي لم يخف على الألوسي.

ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبَّتُوا عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾^٢، يقول: "وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الإبهام ثم البيان كما في قوله تعالى : (وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ) [الشرح : ٢] وفيه ما لا يخفى من ترقب النفس إلى ما سيرد وحسن قبولها له عند وروده عليها"^٣

موضع الشاهد في الآية هو قوله تعالى: (لتتلوا عليهم الذي) فقدم الجار والمجرور (عليهم) على اسم الموصول (الذي) في محل نصب مفعول به للفعل (تتلوا) لغرض الإبهام ثم التفسير.

ومثل هذا الغرض أيضا في تقديم شبه الجملة على الفاعل في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾^٤

(١) روح المعاني (٨/ ٢٠٢).

(٢) الرعد: ٣٠.

(٣) روح المعاني (٧/ ١٤٤).

(٤) الرعد: ٣١.

جاء في تفسيره : والباء في المواضع الثلاثة للسببية وجوز في الثالث منها أن تكون صلة ما عندها وتقدم الجور فيها على المرفوع لقصد الإبهام ، ثم التفسير لزيادة التقرير على ما مر غير مرة^١ .
موضع الشاهد، تقدم الجور في المواضع الثلاثة (به) على المرفوع (الجبال، الأرض ، الموتى)
قصد الإبهام ثم التفسير لزيادة التقرير لأن بتقدم ما حقه التأخير تبقى النفس مستشفرة ومتربة إلى المؤخر في معرفته وانجلائه، فيرسخ موقعه في النفس عند ادراكه.

أو رعاية الفاصلة والقصر، منه قوله تعالى: ﴿ حُدُوهُ فَغُلُوهُ ﴾^٢ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلْوُهُ ﴿٣﴾^٢

رأى الألوسي أن تقدم المعمول في الآيتين يفيد الاختصاص، ورد في تفسيره " أي لا نصلوه إلا الجحيم وهي النار العظيمة الشديدة التأجج لعظم ما أوتي به من المعصية وهي الكفر بالله تعالى العظيم"^٣

أما العلامة ابن الأثير رفض دلالة التقديم في الآية الكريمة في الموضوعين على الاختصاص، ورأى أنه للفضيلة السجعية ، أي للمحافظة على رءوس الآي، قال: " ولا مرأى في أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن من أن لو قيل خذوه فغلوهم ثم صلوه الجحيم"^٤، ويبدو للباحث أنه لا مانع من أن يجتمع التقديم للاختصاص، مع هذه الفضيلة السجعية.

ومن تقديم المعمولات على العامل نجد تقدم المفعول على الفعل وخاصة في التركيب القرآني:
(أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) والذي ورد تسع مرات في الذكر الحكيم^٥، ويرى الألوسي أن هذا التركيب في القرآن الكريم يفيد القصر مطلقا باستثناء ما جاء في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^٦

(١) روح المعاني (٧/ ١٤٦).

(٢) الحاققة: ٣٠-٣١.

(٣) روح المعاني (١٥/ ٥٦).

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/ ٣٧).

(٥) ينظر: سورة البقرة ٥٧/ال عمران ١١٧/الأعراف ١٦٠/التوبة ٧٠/يونس ٤٤/النحل ٣٣ و ١١٨/العنكبوت ٤٠/الروم ٩٠.

(٦) آل عمران: ١١٧.

جاء في تفسيره: "وتقديم (أَنْفُسِهِمْ) على الفعل للفاصلة لا للحصر وإلا لا يتطابق الكلام لأن مقتضاه وما ظلمهم الله ولكن هم يظلمون أنفسهم لا أنهم يظلمون أنفسهم لا غيرهم وهو في الحصر لازم"^١.

وهذا ما ذهب إليه أبو السعود في تفسيره لهذه الآية، ورأى أن تقدم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص لأن الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول أي ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم^٢

٤ - تقديم بعض المعمولات على بعض:

وأما هذا القسم من التقديم فإنه يجري على نسق دقيق من مراقبة المعاني، ومتابعة الأحوال هو متشعب النواحي متعدد الأصول^٣ وحسبنا هنا أن نشير إلى ما كشفه لنا الألوسي من جلال الأساليب وبديع التراكيب في هذا الباب.

• تقديم خلق السماوات على خلق الأرض:

في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَكَفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ذُنُوبًا كَمَا تَتَّبَعُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَدَرَ فِيهَا قَانُونََهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمِئِذٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٦]

يقول الألوسي: "وذكر في نكتة تقديم خلق الأرض وما فيها في الذكر ههنا وفي سورة البقرة على خلق السموات والعكس في سورة النازعات أنها يجوز أن يكون أن المقام في الأوليين مقام الامتنان وتعداد النعم فمقتضاه تقديم ما هو أقرب النعم إلى المخاطبين والمقام في الثالثة مقام بيان كمال القدرة فمقتضاه تقديم ما هو أدل على كمالها"^٤

(١) روح المعاني (٢/ ٢٥٣).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢/ ٧٥).

(٣) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني (ص: ٣٦٧)

(٤) فصلت: ٩-١١.

(٥) روح المعاني . (١٢/ ٣٦٠).

أرجع الألووسي سبب تقديم خلق السماوات على خلق الأرض وعكسه في النظم القرآني، وفق قاعدة لكل مقام مقال فيقدم خلق الأرض في مقام الامتنان والنعمة كما في هذه الآيات وفي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾^١، ويقدم خلق السماوات في مقام كمال القدرة كقوله تعالى في سورة النازعات: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَدَّلَهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾^٢

• تقديم الإسرار عن العلانية:

تقدم الإسرار أو الإخفاء عن العلانية في عدة مواضع من القرآن الكريم^٣ ويرجع الألووسي ذلك لعدة مقاصد من بينها أن "تقديم السر على العلن لبيان إحاطة علمه سبحانه بحيث أن علم السر عنده تعالى كأنه أقدم من علم العلن، وقيل: لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه مضمرة في القلب قبل ذلك ف تعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة، وقيل: للإشارة إلى الاهتمام بإصلاح الباطن فإنه ملاك الأمر ولأنه محل الاشتباه المحتاج للبيان"^٤.

فالتقديم إذن إما يكون لتقدم مرتبة السر عن مرتبة العلن أو للدليل على الإحاطة بالمعلومات كلها فمن كان يعلم السر فهو يعلم العلن من باب أولى أو للتنبيه إلى إصلاح ما في الصدور. والملاحظ أن القرآن الكريم قد قدم أيضا العلن على السر في مواضع أخرى^٥، وقد تنبه لهذا التباين الدكتور السامرائي وذكر لطيفة هنا وهي " إن تقديم الإخفاء عن الإعلان أو الإعلان عن الإخفاء انه اذا تقدم الكلام على المنافقين أو الكفار قدم الإخفاء، وإذا تقدم ذكر المؤمنين قدم الإبداء وهذا مطرد في جميع ما ورد من القرآن الكريم"^٦

(١) البقرة: ٢٩.

(٢) النازعات: ٢٧-٣٠.

(٣) ينظر: سورة النحل ١٩، النمل ٢٥، التغابن ٤، البقرة ٧٧، هود ٥٥، القصص ٦٩، يس ٧٦

(٤) روح المعاني (١٢ / ٥١).

(٥) ينظر: سورة الاعلى ٧، الانبياء ١١٠، البقرة ٢٨٤.

(٦) على طريق التفسير البياني فاضل صالح السامرائي، جامعة الشارقة للنشر العلمي، الامارات، ٢٠٠٤ م ج ٢ ص ٢٦٦

• تقديم التخلية على التحلية

والتخلية تعني أن تنفك أو تنقطع عن العمل المفسد، وبعد ذلك تدخل في العمل المصلح أو العمل الإيجابي. أو هو ضرورة التخلية من العيوب، قبل التحلية بالكمال. فأنت تدفع عن نفسك الأمر الذي يأتي بالضّرّ أولاً، ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك؛ لأن دَرءَ المفسدة مُقدّم على جلب المصلحة.^١

نحو تقديم الرأفة على الرحمة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ

عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٨﴾^٢

جاء في تفسيره: "وقد يقال: تقديم الرأفة باعتبار أن آثارها دفع المضار وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع والأول أهم من الثاني ولهذا قدمت في قوله سبحانه: (رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا) [الحديد: ٢٧] ولا يجري هنا أمر الرعاية كما لا يخفى، وكأن الرأفة على هذا مأخوذة من رفو الثوب لإصلاح شقه، فيكون في وصفه صلى الله عليه وسلم بما ذكر وصف له بدفع الضرر عنهم وجلب المصلحة لهم، ولم يجمع هذان الاسمان لغيره عليه الصلاة والسلام".^٣

والرأفة والرحمة قد تلتقيان في المعنى العام، ولكن هناك أموراً تسلب مضرة، وأموراً تجلب منافع. وسلب المضرات - دائماً - مُقدّم على جلب المنافع، فحين نواجه عملاً يضر وعملاً ينفع؛ نُقدم على العمل لدرء ما يضر، ثم ننجز العمل النافع. ومن أجل هذا المقصد البياني قدم «الراءوف» والرأفة هي سلب ما يضر من الابتلاء والمشقة، على «رحيم» هو الذي يجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء.^٤

ومنه تقديم الإنذار على التبشير في قوله تعالى: ﴿قِيمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ

الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٦﴾^٥

قال الألوسي: "وتقدم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه مع

(١) ينظر: خواطر الشعراوي (٦/ ٣٧٥٣).

(٢) التوبة: ١٢٨.

(٣) روح المعاني. (٦/ ٤٩).

(٤) ينظر تفسير الشعراوي (٩/ ٥٦١٥).

(٥) الكهف: ٢.

مراعاة تقديم التخلية على التحلية"^١

إن كلمة « الإنذار » كلمة عامة لكل الناس وهذا ما يؤكد حذف المفعول ، وفيه زجر للكفار حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، لكن البشارة تكون لمن آمن فقط ولهذا قال تعالى: (ويشير المؤمنين) ، وتقديم الإنذار يدخل في باب ضرورة التخلية من العيوب ، قبل التحلية بالكمال، ولهذا قيل: دَرءُ المفسدة مُقدِّمٌ على جلب المصلحة .

• تقديم السبب على المسبب:

ولهذا الاعتبار قدم سقي الأنعام على سقي الأناس في قوله تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا

وَلِنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْبِئِي كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾^٢

يقول عند تفسيره لهذه الآية: "ومساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة كذلك هو لتعداد أنواع النعمة فالأنعام حيث كانت قنية للإنسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بما قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها أحياء الأرض فإنه سبب حياتها وتعيشها فالتقديم من قبيل تقديم الأسباب على المسببات"^٣

ويحتمل أن يكون تقديم ما ذكر على سقي الأناسي لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقي أرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقيهم ، وحاصله أنه من باب تقديم ما هو الأهم والأصل في باب الامتنان على عباده.

التقديم في الرتبة الزمنية:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٦﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٧﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿١٨﴾﴾^٤

يرى الألوسي أن تقديم "الأعمى على البصير مع أن البصير أشرف لأنه إشارة إلى الكافر وهو موجود قبل البعثة والدعوة إلى الإيمان ، ولنحو هذا قدم الظلمات على النور فإن الباطل كان موجوداً فدمغه الحق ببعثته عليه الصلاة والسلام ، ولم يقدم الحرور على الظل ليكون على طرز ما سبق من

(١) روح المعاني . (٨ / ١٩٤).

(٢) الفرقان: ٤٩ .

(٣) روح المعاني (١٤ / ١١٤)

(٤) فاطر: ١٩-٢٢ .

تقديم غير الأشرف بل قدم الظل رعاية لمناسبته للعمى والظلمة من وجه أو لسبق الرحمة مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة^١.

في الآية ثلاثة أمثلة عن المؤمنين والكافرين، والإيمان والكفر:

شبه الكافر بالأعمى، والكفر بالظلمات والحرور، وشبه المؤمن بالبصير وشبه الإيمان بالنور والظل وقدم تشبيه حال الكافر وكفره على تشبيه حال المؤمن وإيمانه لمراعاة السبق الزمني في الوجود، فالكفر موجود قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان مقتضى الحال أن يقدم الحرور على الظل ليتناسب مع التركيب السابق، لكن عدل عن ذلك لوجود قرائن معنوية متفقة بين العمى والظلمات والظل ولرعاية الفاصلة من جهة أخرى.

ومنه تقديم الليل على النهار في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحْوَنًا آيَةً اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ۝١٢ ﴾^٢

فيرى الألوسي أن "تقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي إذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور العربية ولترتيب غاية النهار عليها بلا واسطة، ومما يزيد تقديم الليل حسناً افتتاح السورة بقوله سبحانه (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا) [الإسراء : ١]"^٣.

• تقديم القسمة على المقسم عليهم:

ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَازِرُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨ ﴾^٤

يقول الألوسي: " (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ) أي قسمة التركة بين أربابها وهي مفعول به، وقدمت لأنها المبحوث عنها ولأن في الفاعل تعدداً فلو روعي الترتيب يفوت تجاذب أطراف الكلام، أو قدمت لتكون أمام الحاضرين في اللفظ كما أنها أمامهم في الواقع، وهي نكتة للتقديم لم أر من ذكرها

(١) روح المعاني. (١١/ ٣٥٩).

(٢) الإسراء: ١٢.

(٣) روح المعاني. (٨/ ٢٥).

(٤) النساء: ٨.

من علماء المعاني.^١

قدم المفعول وهو (القسمة) على الفاعل (أولو القربى اليتامى المساكين) للعناية بالقسمة وأهميتها، كما أنه لو روعي ترتيب الجملة سيؤدي إلى نوع من سوء النظم، وبين الألووسي سرا لفظي في هذا التقديم وهو مشاكلة اللفظ للمعنى.

• تقديم التحلية على بيان حال اللباس:

﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحِطُونَ فِيهَا مِنْ آسَاورٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾^٢

وتغيير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريراً قيل للإيدان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غني عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه وإنما المحتاج إلى البيان إن لباسهم ماذا بخلاف الأساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية ولذا لا يلزم العدل بين الزوجات فيها فجعل بيان تحليتهم مقصوراً بالذات، ولعل هذا هو الباعث على تقديم التحلية على بيان حال اللباس، وقيل: إن ذلك للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة مع المحافظة على هيئة الفواصل وليس بذاك^٣.

• تقديم الإناث على الذكور:

العادة في القرآن تقدم الذكور على الإناث حيثما ذكرا في نحو (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) [الحجرات: ١٣] وقوله: (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) [القيامة: ٣٩] وقد جرى العكس في قوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾^٤ ، وقد ساق الألووسي كلاماً طويلاً في بيان تقديم الإناث على الذكور جاء فيه: " سبحانه الملك وأنه تعالى يقسم النعمة والبلاء كما شاء بحكمته تعالى البالغة لا كما شاء الإنسان بهواه، وفيه إشارة إلى أن إذاقة الرحمة ليست للفرح والبطر بل للشكر لموليتها وإصابة المحنة ليست للكفران والجزع بل للرجوع إلى مبليةها؛ وتأكيد لإنكار كفرانهم من وجهين. الأول: أن الملك ملكه سبحانه من غير منازع ومشارك يتصرف فيه كيف يشاء فليس على من هو أحقر جزء من ملكه تعالى أن يعترض ويريد أن يجري التدبير حسب هواه الفاسد. الثاني: أن هذا الملك الواسع لذلك

(١) روح المعاني. (٢/ ٤٢٢).

(٢) فاطر: ٣٣.

(٣) روح المعاني. (١١/ ٣٧١).

(٤) الشورى: ٤٩.

العزیز الحکیم جل جلاله الذي من شأنه أن يخلق ما يشاء فأنى يجوز أن يكون تصرفه إلا على وجه لا يتصور أكمل منه ولا أوفق لمقتضى الحكمة والصواب ، وعند ذلك لا يبقى إلا التسليم والشغل بتعظيم المنعم المبلي عن الكفران والإعجاب ، وناسب هذا المساق أن يدل في البيان من أول الأمر على أنه تعالى فعل محض مشيئته سبحانه لا مدخل لمشيئة العبد فيه فلذا قدمت الإناث وأخرت الذكور كأنه قيل يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء من الأناسي ما لا يهواه ويهب لمن يشاء منهم ما يهواه فقد كانت العرب تعد الإناث بلاء (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) [النحل : ٥٨] ولو قدم المؤخر لاختل النظم ، وليس التقديم مجرد رعاية مناسبة القرب من البلاء ليعارض بأن الآية السابقة ذكرت الرحمة فيها مقدمة عليه فناسب ذلك تقديم الذكور على الإناث "١

وخلاصة كلام الألويسي أن تقديم الإناث جاء لأن سياق الكلام أن الله سبحانه وتعالى فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم.

• تقديم اللهو على التجارة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ

وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾ ٢

ورد في تفسيره: " تقديم اللهو ليس من تقديم العدم على الملكة كما توهم بل لأنه أقوى مذمة، فناسب تقديمه في مقام الذم "٣

ففي هذه الآية قدمت التجارة على اللهو في الرؤية (رأوا تجارة)، وأخرت في الخيرية (ما عند الله خير من اللهو)، ويرجع الألويسي السبب في ذلك لورودها في مقام الذم ، فقدمت التجارة مع الرؤية لأنها أهم بالنسبة إلى الفئة التي انفضت إلى التجارة وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأبين أي ما عند الله خير من اللهو فضلاً عن التجارة ٤ .

(١) روح المعاني . (١٣ / ٥٣) .

(٢) الجمعة : ١١ .

(٣) روح المعاني . (١٤ / ٣٠٠) .

(٤) ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية المحقق: عبد السلام عبد الشافي الناشر: دار الكتب العلمية -

بيروت الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ، (٥ / ٣١٠)

• تقديم الإخفاء على الإعلان:

قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعَلِّمُ وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾^١

يقول الألوسي: "وتقديم (مَا تُخْفِي) على (مَا * تُعَلِّمُ) لتحقيق المساواة بينهما في تعلق العلم على أبلغ وجه فكان تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن أو لأن مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو قبل ذلك خفي فتعلق علمه تعالى بحاله الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية "

فالتقديم والتأخير لتحقيق المساواة أي: تعلم سرنا كما تعلم علننا، أو لسبق السر والخفاء على العلن والجهر، فالله يعلم سرنا قبل جهرنا.

• تقديم السماء على الأرض والعكس:

أورد ابن القيم صورة عامة لتقديم السماء على الأرض في آيات التنزيل، جاء فيها: " وأما تقديم السماء على الأرض ففيه معنى وهو أن السموات والأرض تذكر غالباً في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته وربوبيته ومعلوم أن الآيات في السموات أعظم منها في الأرض لسعتها وعظمتها وما فيها من كواكبها وشمسها وقمرها وبروجها وعلوها واستغنائها عن عمد ثقلها أو علاقة ترفعها إلى غير ذلك من عجائبها وما فيها كقطرة في سعتها ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع الناظر فيها البصر كرة بعد كرة ويتأمل استواءها واتساقها وبراءتها من الخلل والفتور فالآية فيها أعظم من الأرض"^٢.

بينما رأى الألوسي أن تقديم السماء على الأرض والعكس يكون حسب اقتضاء المقام "وتقديم السموات في الذكر على الأرض تارة والعكس أخرى بحسب اقتضاء المقام وهو أقرب إلى التحقيق"^٣ ولهذا نجد بين المقامات والسر في ذلك، واخترت بعض الآيات التي قدمت فيها الأرض على السماء، لنتبع منهج وآراء الألوسي في هذا الأسلوب.

(١) إبراهيم: ٣٨.

(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت، (١ / ٧٤)

(٣) روح المعاني . (٨ / ٤٦٧)،

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾^١

ونحو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْرِضُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ

ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾^٢

ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾^٣

والملاحظ في هذه الآيات أن تقديم الأرض على السماء جاء لقرابها منا ولكون الكلام في حال أهلها أو المخاطبين والاعتناء بشأنهم، وإقامة البرهان على إحاطة علمه سبحانه وتعالى بتفاصيلها. ٤

• تقديم النفع على الضر والعكس:

نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ

لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾﴾^٤

جاء في تفسيره: " وحيث تقدم النفع على الضر كان ذلك لسبق لفظ تضمن معني نفع كما في هذه السورة حيث تقدم أنفأ لفظ الهداية على الضلال في قوله تعالى: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ) [الأعراف : ١٧٨] الخ وفي الرعد تقدم ذكر الطوع في قوله سبحانه: (طَوْعًا وَكَرْهًا) وهو نفع ، وفي الفرقان تقدم العذاب في قوله جل وعلا: (هَذَا عَذَابٌ * قُرْآتٌ) [الفرقان : ٥٣] وهو نفع ، وفي سبأ تقدم البسط في قوله تبارك اسمه: (رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) [سبأ : ٣٦] وليقاس على هذا غيره ، وابن جريح يفسر النفع هنا بالهدى والضر بالضلال ، وبه تقوى نكتة التقديم التي اعتبرها هذا الفاضل فيما نحن فيه كما لا يخفى^٥ .

فيرجع الألوسي تقدم النفع على الضر في هذه الآية وغيرها إلى سياق الآيات السابقة وربطها

(١) إبراهيم: ٤٨.

(٢) يونس: ٦١.

(٣) آل عمران: ٥.

(٤) ينظر: روح المعاني . (٧ / ٢٤٠) . / (٦ / ١٣٧) / (٢ / ٧٦)

(٥) الأعراف: ١٨٨.

(٦) روح المعاني . (٥ / ١٢٧) .

ببعضها البعض، فحين نجد لفظ أو معنى يحمل دلالة نفع في آية كريمة سنجد لفظ النفع متقدماً كما في هذه الآية التي نحن في صددنا، حيث تقدم آنفاً لفظ الهداية على الضلال في آية سابقة، وساق الألوسي شواهد أخرى تدعم نظريته، وللإشارة أكثر ما جاء هذا الأسلوب في القرآن بتقديم لفظ الضر على النفع، لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً ثم طمعاً في ثوابه ثانياً يؤيده قوله تعالى: (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) [السجدة : ١٦].

هذه نماذج من تفسير الألوسي، عالج فيها التقديم بمنهج واسع النظرة، وتفسيره حافل بمثل هذه الصور، وكان له اهتمام بتقصي الأسرار التي يفيدها التقديم فتراه يثبت لك في الموضوع الواحد دلالات مختلفة تتوافق مع السياق. وهذه طريقة جديرة بالتقدير لفهم أسرار الكتاب الكريم وفهم مقومات الجمال الفني فيه.

خامسا - أسلوب الحذف:

عرفه الرماني بأنه: إسقاط كلمة للإجراء عنها بدلالة غيرها من الحال، أو فحوى الكلام^١ ووصفه الجرجاني بقوله: " هو بابٌ دقيقُ المسئلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيهٌ بالسَّحر، فإنك ترى به تَرَكَ الذِّكر، أَفْصَحَ من الذِّكر، والصمتَ عن الإفادة، أَزِيدَ للإفادة، وَجَدُّكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وَأَتَمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تبين^٢"

ويرجع محمد أبو موسى حسن العبارة في كثير من التراكيب إلى " ما يعمد إليه المتكلم من حذف لا يغمض به المعنى، ولا يلتوي وراءه القصد، وإنما هو تصرف تصفى به العبارة، ويشتد به أسرها، ويقوى حيكها، ويتكاثر إبحاؤها، ويتملى مبنها، وتصير أشبه بالكلام الجيد، وأقرب إلى كلام أهل الطبع، وهو من جهة أخرى دليل على قوة النفس، وقدرة البيان، وصحة الذكاء، وصدق الفطرة.

وفي طبع اللغة أن تسقط من الألفاظ ما يدل عليه غيره، وأما ما يرشد إليه سياق الكلام أو دلالة الحال، وأصل بلاغتها في هذه الوجازة التي تعتمد على ذكاء القارئ والسامع، وتعول على إثارة حسه، وبعث خياله وتنشيط نفسه، حتى يفهم بالقرينة ويدرك باللمحة، ويفطن إلى معاني الألفاظ التي طواها التعبير...^٣

وإذا كانت ظاهرة الحذف في المسند والمسند إليه تحقق معاني بلاغية، فإنها كذلك في حذف بعض قيود الجملة ومتعلقاتها، كحذف الصوت أو اللفظ أو الأداة أو الجملة، مما يشكل فسحة كبيرة للتعبير البلاغي، لا سيما تلك التي يكون فيها الحذف عدولا عن المألوف، وانزياحا عن القاعدة المعيارية المعروفة.

وهنا تتجلى القيمة البلاغية والمعنوية للسياق؛ ذلك أن المعنى " يفهم من السياق أكثر مما يفهم من الوحدات الصريحة التي تؤلفه، أي أن السياق قد يعطي المدلولات التي لا يمكن أن تعزى بشكل

(١) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص ٧٦

(٢) دلائل الإعجاز (١ / ١٤٦)

(٣) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد أبو موسى (ص: ١٥٣)

بسيط إلى وحدة معينة، أو وحدات مضمومة بطريقة آلية"^١.

وتحدث عبدالله دراز عن جمالية الحذف في القرآن فقال "القرآن يعمد -بعد حذف فضول الكلام وزوائده - إلى حذف شيء من أصوله وأركانه التي لا يتم الكلام في العادة بدونها، ولا يستقيم المعنى إلا بها، ولقد يتناول بهذا الحذف كلماتٍ وجملاً كثيرة متلاحقة ومتفرقة في القطعة الواحدة، ثم تراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ في تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح، وفي طلاوة وعدوبة، حتى يخيل إليك من سهولة مسلك المعنى في لفظه أن لفظه أوسع منه قليلاً.

فإذا ما طلبت سر ذلك رأيته قد أودع معنى الكلمات أو الجمل المطوية في كلمة هنا وحرف هناك، ثم أدار الأسلوب إدارة عجيبة وأمر عليها جندرة البيان بيد صنّاع، فأحكم بها خلقه وسواه. ثم نفخ فيه من روحه، فإذا هو مصقول أملس، وإذا هو نير مشرق، لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطي، ولا بما صار إليه من استغناء واكتفاء، إلا بعد تأمل وفحص دقيق"^٢.

١. حذف المفردات:

وقف الألوسي في تفسيره عند ظاهرة الحذف، فبين مواضعه في الذكر الحكيم وقام بتقدير هذه المحذوفات والرجوع إلى أصل الكلام ولا يكون ذلك إلا بدليل من اللفظ أو السياق وذكر مقاصده، وما أفاده هذا الحذف دون الذكر. ومن أهم أغراض الحذف نجد:

ويحذف المتعلق لنفس الغرض كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ^٣ وَحذف متعلق القضاء أيضا للعلم به ، والتقدير وقضينا إلى بني إسرائيل بفسادهم وعلوهم والله لتفسدن إلخ"^٤

وتحذف الجملة بعد الفاء الفصيحة فتفصح عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها ، ويأتي الحذف لإفادة سرعة الامتثال، أين يصور القرآن الكريم مشهدا سريعا فيتطلب سرعة في التعبير عن طريق حذف بعض عناصر الجملة كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا أُمَّمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ^٥ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا

(١) نظرية المعنى في النقد العربي ، مصطفى ناصف، دار الأندلس، القاهرة، ط٢، ١٩٨١ م ، ص ١٦١

(٢) النبأ العظيم ، عبدالله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، دمشق ، ٢٠٠٥ م (ص: ١٧٠)

(٣) الإسراء: ٤

(٤) روح المعاني . (٨/ ١٧)

عَشْرَةَ عَيْنًا ﴿١﴾

جاء في تفسيره: " فضرب فانجست وحذف المعطوف عليه لعدم الالباس وللإشارة إلى سرعة الامتثال حتى كأن الإيحاء وضربه أمر واحد وأن الانبجاس بأمر الله تعالى حتى كأن فعل موسى عليه السلام لا دخل فيه^١ .

عطف على كلام تقديره: فضرب فانجست، حذف لعدم وجود لبس في الكلام، وفيه دلالة على مسارعتة عليه السلام إلى الامتثال وإشعاراً بعدم تأثير الضرب حقيقة وتنبهها على كمال سرعة الانبجاس وهو الانفجار كأنه حصل إثر الأمر قبل تحقق الضرب.

وقوله تعالى: ﴿ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ ﴿٢٣﴾^٣

يقول الألوسي: " والفاء في قوله تعالى : (فَطَفِقَ مَسْحًا) فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيداناً بغاية سرعة الامتثال بالأمر كما في قوله تعالى : (فَكُنَّا اضْرَبُ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرْتُمْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) [البقرة : ٦٠] أي فردوها عليه فطفق الخ"^٤

في رأي الألوسي أنه يوجد جملة محذوفة بعد الفاء الفصيحة تقديرها: فردوها عليه فطفق، وحذف ما حذف بدلالة الحال عليها، وفي الحذف دلالة على سرعة الامتثال.

ومثل الآية السابقة قوله تعالى: ﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ ﴿٥﴾^٥ (فاللتقطه ءال فِرْعَوْنَ) فصيحة والتقدير ففعلت ما أمرت به من إرضاعه وإلقائه في اليم لما خافت عليه، وحذف ما حذف تعويلاً على دلالة الحال وإيداناً بكمال سرعة الامتثال"^٦ .

الحذف لصون اللسان عن الذكر:

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ﴾^٧

(١) الأعراف: ١٦٠.

(٢) روح المعاني . (٥ / ٨٣)

(٣) ص: ٣٣

(٤) روح المعاني . (١٢ / ١٨٥).

(٥) القصص: ٨

(٦) روح المعاني . (١٠ / ٢٥٦)

(٧) البقرة: ١٠٨

يقول الألوسي: " ولم يقل سبحانه : كما سأل أمة موسى عليه السلام أو اليهود للإشارة إلى أن من سأل ذلك يستحق أن يسان اللسان عن ذكره"^١

ومقتضى الظاهر أن يقال: أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل اليهود موسى، ولكن عدل إلى الفعل المبني للمجهول لأن الله لم يرد أن يشبه اليهود بالمؤمنين برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي هذا تكريم من الله للمؤمنين بأن ينزههم أن يتشبهوا باليهود، وصون للسان عن ذكرهم.

ولنفس الغرض حذف المتعلق في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَمَلُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^٢

يقول الألوسي: " أي يصدقون بما جئت به ، والجار إما متعلق بالوصفين جميعاً والمؤمنون ينتفعون بالإنذار كما ينتفعون بالتبشير وإما متعلق بالأخير ومتعلق الأول محذوف أي نذير للكافرين، وحذف ليطهر اللسان منهم"^٣

ذكر في الآية أن التبشير يكون لقوم يؤمنون، وأن متعلق النذارة المتروك ذكره في النظم هو لأضداد المؤمنين، أي المشركين، وهذا الأسلوب أحد طرق القرآن في الإيجاز، وهي من وجوه إعجازه لأن فيها استفادة معان وافرة من ألفاظ وجيزة.

أ- الاكتفاء:

عرفه الزركشي: " أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفي بأحدهما عن الآخر "٤. وذكر أن مثل هذا الحذف كثيرا ما يكون في المفردات أو الجمل المعطوفة: وغالبا ما يختص هذا الارتباط بالارتباط العطفية^٥. والمتأمل لشواهد الاكتفاء يجده كذلك في الكلام الذي حذف منه أحد الضدين لأن حكم أحد الضدين يتبث نقيضه في الآخر على طريقة الإيجاز؛ وهو أسلوب متبع في كلام العرب حيث أن ذكر أحدهما يفيد العلم بالآخر.

(١) روح المعاني . (١/ ٣٥٤)

(٢) الأعراف ١٨٨

(٣) روح المعاني . (٥/ ١٢٨)

(٤) - البرهان في علوم القرآن . الزركشي ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٣٧٦ هـ ، ج ٣ ص ١١٨ .

(٥) نفسه، ج ٣ ص ١١٨ .

نحو قول الشاعر أبو ذؤيب الهذلي :

عَصَانِي إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِنِّي لِأَمْرِهِ سَمِيعٌ فَمَا أُدْرِي أُرْشِدُ طِلَابُهَا ١

أراد: (أم غي)، فاكتفى بذكر الرشد عن ذكر الغي.

والمشهور في مثل هذا النوع قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ ٢، أي: والبرد، يقول الألويسي: خصه بالذكر كما قال المبرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر أعني البرد، ولم يخص هو بالذكر اكتفاء لأن وقاية الحر أهم عندهم. ٣

ففي ذكر أحد الضدين تنبيه على الآخر، فعندما يخطر ببالنا الحر يخطر ببالنا أيضاً البرد، وكذا القول في الفرح والحزن والليل والنهار...، فلما كان الشعور بأحدهما مستتبعا للشعور بالآخر، كان ذكر أحدها مغنياً عن ذكر الآخر، لكن لما خص الحر بالذكر دون البرد؟، يرجع الأوسي ذلك إلى كون المخاطبون بهذا الكلام هم العرب وبلادهم حارة فكانت حاجتهم إلى ما يدفع الحر فوق حاجتهم إلى ما يدفع البرد.

ومثله قوله تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ ٤، أي: والمغرب، فذكر المشارق يعني عن ذكر المغرب، إذ ذاك مفهوم من المشارق. وعن النكتة في ذكر المشارق يقول الألويسي: وكأن الاكتفاء بها لاستلزامها ذلك مع أن الشروق أدل على القدرة وأبلغ في النعمة، ولهذا استدل به إبراهيم عليه السلام عند محاجة النمرود ٥

فالشرق أقوى حالاً من الغروب وأكثر نفعاً من الغروب فذكر الشرق تنبيهاً على كثرة إحسان الله تعالى على عباده، ولهذا الدقيقة استدل إبراهيم عليه السلام بالمشرق.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ٦

(١) - خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب . عبد القادر البغدادي، تحقيق : محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية ، بيروت

١٩٩٨م، ج ١١ ص ٢٦٧.

(٢) النحل: ٨١.

(٣) روح المعاني . (٧ / ٤٤١).

(٤) الصافات: ٥.

(٥) روح المعاني . (١٢ / ٦٦).

(٦) الأنعام: ١٣.

والتقدير ما سكن فيهما وتحرك وإنما اكتفى بالسكون عن ضده دون العكس لأن السكون أكثر وجوداً وعاقبة كل متحرك السكون كما قيل:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل خافقة سكون

ولأن السكون في الغالب نعمة لكونه راحة ولا كذلك الحركة^١

ومما عده الألوسي من الاكتفاء ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^٢ وقد خص الخير بالذكر "تعليماً لمراعاة الأدب وإلا فذكر الإعزاز والإذلال يدل على أن الخير والشر كلاهما بيده سبحانه ، وكذا قوله تعالى المسوق لتعليل ما سبق وتحقيقه (إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فلا يبعد أن تكون الآية من باب الاكتفاء"^٣

وفضلاً عن الإيجاز في العبارة الذي يؤديه الاكتفاء فإن الاقتصار على ذكر أحد القسمين دون الآخر، يكون لغاية بلاغية أو لغرض معين يهدف إليه المتكلم كما رأينا في الشواهد السابقة، " فليس المراد الاكتفاء بأحدهما كيف اتفق، بل لأن فيه نكتة تقتضي الاقتصار عليه"^٤.

ب- الاحتباك:

عرف الاحتباك عند العلماء بأكثر من اسم، وعرفوه بأكثر من تعريف، وأطلق عليه الزركشي الحذف التقابلي وجاء في تعريفه له: " هو أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من كل واحدٍ منهما مقابله لدلالة الآخر عليه"^٥.

وذكر السيوطي في تعريفه: " أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول"^٦.

وعرفه أحد المحدثين " هو أن يحذف من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر، ويحذف

(١) روح المعاني . (٤ / ١٠٤)،

(٢) آل عمران: ٢٦ .

(٣) روح المعاني . (٢ / ١١٠)

(٤) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٣ / ١١٨).

(٥) - نفسه، ج ٣ ص ١٢٩ .

(٦) - الإتيان في علوم القرآن، السيوطي ج ٣ ص ٢٠٤ .

من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل " ١ .

ومن خلال تتبع هذا المصطلح في تفسير روح المعاني تبين للباحث أن الألووسي كانت له وجهة متباينة حول وقوع الاحتباك في القرآن من عدمه فهو :

*يقر بوجوده في مواضع من القرآن الكريم ويقدر المحذوف:

نحو قوله تعالى: (**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**)^٢ فيه صنعة الاحتباك ، ولا يخفى لطفه فيما بين الزوج والزوجة حيث حذف في الأول بقريئة الثاني، وفي الثاني بقريئة الأول كأنه قيل : ولهنَّ عليهم مثل الذي لهم عليهنَّ^٣

في الآية احتباك، والتقدير: ولهن على الرجال مثل الذي للرجال عليهن، فحذف من الأول لدلالة الآخر، وبالعكس.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** ﴾^٤ ، والتقدير "هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً لتتحركوا فيه لمصالحكم فحذف من كل ما ذكر في الآخر اكتفاءً بالمذكور عن المتروك؛ وفيه على هذا صنعة الاحتباك والآية شائعة في التمثيل بها لذلك"^٥

ويفهم من كلام الألووسي أنه حذف من الأول (مظلماً) لدلالة ضده عليه في الثاني (مبصراً)، وحذف من الثاني (لتنشروا فيه وتبتغوا من فضله) لدلالة ضده عليه في الأول (لتسكنوا)

ومن شواهدة أيضاً قوله تعالى : ﴿ **لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴾^٦

والتقدير "ليقيموا على النفاق فيموتوا عليه إن شاء فيعذبهم أو يتوب عليهم فيرحمهم فحذف سبب التعذيب وأثبت المسبب وهو التعذيب وأثبت سبب الرحمة والغفران وحذف المسبب وهو

(١) - البلاغة العربية (أسسها وعلومها وفنونها)، عبد الرحمن حبنكة ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) البقرة ٢٢٨

(٣) روح المعاني ج ١١ ص ٥٢٩

(٤) يونس ٦٧

(٥) روح المعاني . (٦/ ١٤٦) .

(٦) الأحزاب ٢٤

الرحمة والغفران وذلك من قبيل الاحتباك" ١

فحذف من الأول (فلا يتوب عليهم) لدلالة الثاني (أو يتوب عليهم) وحذف من الثاني (فلا يعذبهم) لدلالة الأول (ويعذب المنافقين).

*يستبعد وجوده ويرى أن في تقديره تكلف لا حاجة إليه:

نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ٢

يقول الألوسي مورداً كلامه في صيغة التضعيف: "وقيل: في الكلام حذف تقديره وأدخل يدك في جيبك تدخل وأخرجها تخرج فحذف من الأول ما أثبت مقابلة في الثاني ومن الثاني ما أثبت مقابله في الأول فيكون في الكلام صنعة الاحتباك وهو تكلف لا حاجة إليه" ٣

فدل لفظ (بيضاء) في آخر الآية على عبارة (غير بيضاء) المحذوفة من أول الآية، ودلت (وادخل) على عبارة (وأخرجها) المحذوفة.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ٤

جاء في تفسيره: "وجوز أن يكون في الكلام صنعة الاحتباك كأنه قيل: لا تقنطوا من رحمة الله ومغفرته إن الله يغفر الذنوب جميعاً ويرحم، وفيه بعد" ٥

ومن أغراض حذف الجملة أيضاً التفتيح والتسهيل كي تذهب النفس كل مذهب، وكثيراً ما نجد هذه الدلالة في جواب لو و لولا المحذوف

كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِعَايَتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٦

و (لَوْ) شرطية على أصلها وجوابها محذوف لتذهب نفس السامع كل مذهب فيكون أدخل

(١) روح المعاني. (١١) / ١٧٠

(٢) النمل: ٣.

(٣) روح المعاني. (١٠) / ١٦٨

(٤) الزمر ٥٣

(٥) روح المعاني. (١٢) / ٢٦٩ وينظر أيضاً: روح المعاني. (١٣) / ٩٠ (روح المعاني. (١٥) / ٢٤٣)

(٦) الأنعام ٢٧

في التهويل ، ونظير ذلك قوله امرىء القيس:

وَجَدَّكَ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا رَسُولُهُ سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا^١

قوله { وَلَوْ تَرَى } يقتضي جواباً وقد حذف تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن ولتذهب نفس السامع كل مذهب ، ولقصور العبارة عن تفصيله أي: تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها لرأيت ما لا يسعه التعبير.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُجْبُونَهُمْ كَحَبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾^٢ ، وجواب (لَوْ) محذوف للإيدان بخروجه عن دائرة البيان ، أي لوقعوا من الحسرة والندامة فيما لا يكاد يوصف^٣

وجواب لو محذوف لقصد التفخيم وتهويل الأمر لتذهب النفس في تصويره كل مذهب ممكن. والعدول عن الذكر إلى الحذف في مثل هاته المواضع أبلغ وأدل على المراد.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾^٤

قال علامة بغداد: " وجواب (لَوْلَا) محذوف لتهويله حتى كأنه لا توجد عبارة تحيط ببيانه، وهذا الحذف شائع في كلامهم.

قال جرير :

كَذَّبَ الْعَوَازِلُ لَوْ رَأَيْنَ مُنَاخِنَا بِحَزِيرِ رَامَةٍ وَالْمَطِيِّ سَوَامٍ

ومن أمثالهم: لو ذات سوار لطمتني فكأنه قيل : لولا تفضله تعالى عليكم ورحمته سبحانه وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم^٥

وجواب (لولا) محذوف لقصد تهويل مضمونه فيدل تهويله على تفخيم مضمون الشرط والإشعار بضيق العبارة عن حصره، وأتى الألووسي بشواهد عن هذا الأسلوب من الشعر والأمثال

(١) روح المعاني . (٤ / ١٢١).

(٢) البقرة ١٦٥

(٣) روح المعاني . (١ / ٤٣٣).

(٤) النور: ١٠

(٥) روح المعاني . (٩ / ٣٠٨).

العربية. وتقدير المحذوف عنده هو: لولا تفضله تعالى عليكم ورحمته سبحانه وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم.

٣- حذف المفعول:

إن علاقة المفعول مع فعله علاقة من وقع عليه الفعل لا من وقع منه، فهي علاقة من جهة الارتباط بالفعل أقل من سابه في الرتبة، ولكن ليست أقل منه من جهة المعنى وثرائه إن لم تكن أكثر. لعلماء البلاغة بحوث رائعة في حذف المفعول، وأولوه عناية خاصة لم يولوها غيره من المحذوفات. وقعدوا له القواعد. وذكروا الأسباب.

يقول عبد القاهر الجرجاني عن حذفه: فإن الحاجة إليه أمس، وهو بما نحن بصدده أخص، واللطائف كأنها فيه أكثر، ومما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر".^١

وبدراسة إحصائية لمواقع حذف المفعول به في القرآن الكريم تبين أنه وقع في (٣٦٦) ثلاثمائة وستة وستين موضعاً، مع التأكيد على أنه يصعب إحصاء كل مواقع الحذف للمفعول به في القرآن الكريم؛ وقع فيها الحذف في موضعين أو أكثر أو بسبب اختلاف النحويين وتوجيههم هذا الحذف^٢

وترك ذكر المفعول مع الفعل قد يكون المقصود منه تنزيل الفعل منزلة اللازم، فلا ينظر فيه إلى مفعول، ولا يلتفت إليه ولا يخطر بالبال ولا يقدر.

ومن هذا الضرب ما رآه الألويسي في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾^٣

يقول المفسر: " و (لَأُبْصِرُونَ) منزل منزلة اللازم لطرح المفعول نسياً منسياً، ولعدم القصد إلى مفعول دون مفعول فيفيد العموم وإفشاء حالهم بإطفاء الله تعالى إياها وإذهاب نورها، ويحتمل

(١) دلائل الإعجاز (١/ ١٥٣)

(٢) ينظر: ظاهرة حذف المفعول به: دراسة إحصائية تحليلية عاطف فضل، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ٩ العدد

١ صفر ١٤٣٤ هـ ص ٢٧٣

(٣) البقرة: ١٧

التشبيه وجوهاً آخر^١ .

مفعول لا يبصرون محذوف لقصد عموم نفي المبصرات أي لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ولا يرون طريقا من طرقها لأنه صرف عنايته عنهم بتركهم سنته وإهمالهم هدايته ووكلمهم إلى أنفسهم فينزل الفعل منزلة اللازم ولا يقدر له مفعول^٢

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴾^٣

ولم يذكر متعلق الشرك لتنزيله منزلة اللازم تنبيهاً على استبعاد الشرك في نفسه^٤

والفعل (تشركون) من قبيل المتروك الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال، كأن الفعل غير متعد أصلاً .

ومنه قوله تعالى: { لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }^٥ أي يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار ، فالفعل منزل منزلة اللازم^٦

ونجده أيضا في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾^٧ ومعنى (استكبروا في أنفسهم) أوقعوا الاستكبار في شأنها وعدوها كبيرة الشأن ، وفيه تنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم كما في قوله : يجرح في عراقبيها نصلي^٨

رأى الألوسي أن مفعول استكبروا متروك لأن الفعل لم يقصد تعليقه بمفعول بل قصد إثباته لفاعله فقط فنزل الفعل منزلة اللازم، وعجز البيت الذي ذكره الألوسي من أكثر الشواهد التي استخدمها في هذا الضرب من الحذف.

(١) روح المعاني . (١ / ١٧٠).

(٢) ينظر: تفسير المنار (١ / ١٤٤).

(٣) الأنعام ٦٤

(٤) روح المعاني . (٤ / ١٧٠).

(٥) النحل ١٢

(٦) روح المعاني . (١٠ / ٣٦١).

(٧) الفرقان: ٢١.

(٨) روح المعاني . (١٠ / ٥).

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾^١ من فرط جهلهم وغرورهم فيهدون ما يهدون والفعل هنا منزل منزلة اللازم فلذا لم يقدر له مفعول^٢ وفي بعض الآيات القرآنية ينزل الفعل منزلة اللازم أو يحذف مفعوله ليفيد العموم فيراد المعنيان، وهذا باب من أبواب التوسع في المعنى، وهذا في ذاته ملمح لطيف، لأنه يثري اللغة والبيان ولأنه يجعل للفعل اعتبارين، كونه متعديا وكونه لازما في الفعل ذاته، مما يدفع للقول: بأن كل فعل متعد يمكن أن يكون لازما عند البلاغيين.

وقد تنبه الألوسي لهذا الأسلوب فراه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُؤُونَ قَوْمَهُمْ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ فِي الْأَرْضِ قَالَ سَنَقْتَلُنَّ أَتْنَاهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهُونَ ﴿١٧٧﴾﴾^٣ والمراد بالإفساد ما يشمل الديني و الدنيوي، ومفعول الفعل محذوف للتعميم أو أنه منزل منزلة اللازم^٤

الفعل يفسدوا يحتمل أن يكون منزل منزلة اللام فيراد الفعل بذاته أو محذوف للتعميم والإفساد عندهم هو إبطال أصول ديانتهم وما ينشأ عن ذلك من تفريق الجماعة وحث بني إسرائيل على الحرية، ومغادرة أرض الاستعباد.^٥

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٧٨﴾﴾^٦ ، "تعجب عليه السلام من قولهم هذا بعدما شاهدوه من الآية الكبرى والبينة العظمى فوصفهم بالجهل على أتم وجه حيث لم يذكر له متعلقاً ومفعولاً لتنزيله منزلة اللازم أو لأن حذفه يدل على عمومته أي تجهلون كل شيء فدخل فيه الجهل بالربوبية بالطريق الأولى"^٧

وصفهم بالجهل المطلق غير متعلق بشيء والفعل مراد لذاته ، أو حذف للتعميم.

(١) المنافقون: ٨

(٢) روح المعاني . (١٤ / ٣١١).

(٣) الأعراف: ١٢٧

(٤) روح المعاني . (٥ / ٢٩).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (٩ / ٥٨).

(٦) الاعراف: ١٣٨

(٧) روح المعاني . (٥ / ٤٠).

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتَهُم لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾^١

جاء في تفسيره: "وترك المفعول إما لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلة اللازم أي لما فعلوا الظلم^٢

وقد يترك أحد المفعولين، فينزل الفعل منزلة ما يتعدى إلى فعل واحد، لعدم تعلق الغرض بالمفعول المحذوف، ولفت النظر إلى المفعول المذكور.

وقد رأى الألوسي أنه يمكن أن يحمل الفعل "آتينا" في أحد احتمالاته على هذا المعنى ففي قوله

تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ

النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ۝٦٥﴾^٣ قال: " (رَبَّنَا

ءَاتِنَا * في الدنيا) أي اجعل كل إيتائنا ومنحتنا فيه فالمفعول الثاني متروك ونزل الفعل بالقياس منزلة اللازم ذهاباً إلى عموم الفعل للإشارة إلى أن همته مقصورة على مطالب الدنيا " ^٤

وقوله: آتينا ترك المفعول الثاني لتنزيل الفعل منزلة ما لا يتعدى إلى المفعول الثاني لعدم تعلق

الغرض ببيانه أي أعطنا عطاء في الدنيا، وفي هذا تنبيه إلى عموم الفعل.

ومثل الآية السابقة قوله تعالى: ﴿قِيمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ

يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٦٦﴾^٥ وحذف هنا المفعول الأول واقتصر على الثاني

، وهو قوله تعالى : (بَأْسًا شَدِيدًا) إيذاناً بأن ما سيق له الكلام هو المفعول الثاني، وأن الأول ظاهر

لا حاجة إلى ذكره وهو الذين كفروا بقرينة ما بعد ، والمراد الذين كفروا بالكتاب^٦

والفعل أنذر يتعدى لمفعولين قال تعالى : (أنذرناكم عذاباً قَرِيباً)^٧ ، إلا أنه اقتصر ههنا على

أحدهما وأصله { لِّيُنذِرَ } الذين كفروا { بَأْسًا شَدِيدًا } لوجود قرينة لفظية تدل عليه وهي ما قال

(١) الكهف: ٥٩

(٢) روح المعاني . (٨ / ٢٨٩).

(٣) البقرة: ٢٠٠

(٤) روح المعاني . (١ / ٤٨٦)

(٥) الكهف: ٢

(٦) روح المعاني . (٨ / ١٩٤).

(٧) النبأ : ٤٠

في ضده : { وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ } ، وحذف هنا ليلفت المتلقي إلى المفعول الثاني لأن المقصود المنذر به وهو البأس الشديد.

وقد يحذف المفعول لشناعته ففي تفسيره لقوله تعالى: { ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ }^١ والمفعول الثاني محذوف لشناعته أي : اتخذتم العجل الذي صنعه السامري إلهاً^٢ فلم يقل: اتخذتم العجل إلهاً، بل طوى هذا المفعول الثاني استبشاعاً للتصريح به في صحبة الاله، وبيئاً لما بينهما من مفارقة.

وقد يحذف للإكرام ففي قوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾^٣ يقول الألوسي: " (وَمَا قَلَى) أي وما أبغضك وحذف المفعول لثلا يواجه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى وإن كانت في كلام منفي لطفاً به صلى الله عليه وسلم وشفقة عليه عليه الصلاة والسلام أو لنفي صدره عنه عز وجل بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم ولأحد من أصحابه ومن أحبه صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة"^٤

ففي حذف المفعول به في القلى (وما قلى) إكراماً وإجلالاً له من أن يناله الفعل. وتوجيه الألوسي أحسن مما ذكره القزويني الذي رأى أن الحذف لرعاية الفاصلة فقط^٥ وهذا الرأي مع قوته قوته ينبغي عدم التعويل عليه وحده في توجيه البيان القرآني.

(١) البقرة: ٩٢

(٢) روح المعاني . (١/ ٢٥٩).

(٣) الضحى: ٣.

(٤) روح المعاني . (١٥ / ٣٧٥).

(٥) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني (ص: ١٠٨)

سادسا- أسلوب التوكيد:

عرفه العلوي في طرازه بقوله "التأكيد تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك وإمالة الشبهات عما أنت بصدده، وهو دقيق المآخذ، كثير الفوائد"^١

وللمراعي تعريف قريب من التعريف السابق جاء فيه: "التوكيد تمكين الشيء في النفس وتقويته، لإزالة الشكوك وإمالة الشبهات عما أنت بصدد الإخبار عنه، والمراد به في هذا الباب تأكيد الحكم، لا تأكيد المسند إليه، ولا تأكيد المسند، فلو قلت: علي نفسه قائم، أو جاء علي، لا يكون مما نحن فيه"^٢.

والتوكيد القرآني كله وحدة متكاملة منظور إليه نظرة شاملة، و روعيت في ذلك جميع مواطنه فهو يؤكد في موطن ما، مراعيًا موطنًا آخر قرب أو بعد، فتدرك أنه أكد في هذا الموطن بسبب اقتضى التوكيد، ولم يؤكد في موطن آخر يبدوا شبيها به لانعدام موجبه، وترى هنا أكد بمؤكدين وأكد في موطن آخر يبدوا شبيها له بمؤكد واحد، لسبب دعا إلى استعمال كل تعبير في موطنه المناسب له.

وكذلك عند اختياره لأدوات التوكيد، فهو يؤكد هنا بالنون الخفيفة مثلا وفي موطن آخر بالنون الثقيلة، وهنا بحرف إن المشددة وفي موطن آخر بحرف إن المخففة، وقد يستبدل حرف بحرف كل ذلك بحسب منظور فني كامل متكامل في كل القرآن، فجاء التوكيد في القرآن كأنه لوحة فنية واحدة، فيها من عجائب الفن وليس فيها إلا العجيب^٣

وقد عرض الألوسي مواضع التوكيد في القرآن الكريم، وبين أهم دواعيه ومناسبة التأكيد للمقام الذي يرد في السياق.

فيأتي التوكيد للآزم فائدة الخبر نحو قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ

وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿٥٢﴾

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي (٢/ ٩٤)

(٢) علوم البلاغة ، مصطفى المراعي (ص: ٥٢)

(٣) ينظر: التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي مرجع سابق ١٢٥

(٤) المنافقون: ١.

قال الألوسي: " (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ) أي حضروا مجلسك ، والمراد بهم عبد الله بن أبي وأصحابه (قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ) التأكيد بأن واللام للآزم فائدة الخبر وهو علمهم بهذا الخبر المشهود به فيفيد تأكيد الشهادة ، ويدل على ادعائهم فيها المواطأة وإن كانت في نفسها تقع على الحق والزور والتأكيد في قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ) لمزيد الاعتناء حقيقة بشأن الخبر^١ { قالوا نشهد إنك لرسول الله } مؤكدين كلامهم بأن واللام للإيدان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوص اعتقادهم ووفور رغبتهم ونشاطهم

ويكون التوكيد لرد الإنكار، وهذا ما رآه الألوسي في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾^٢

فيقول إن هذه الآية القرآنية جاءت: "اعتراض بين كلامين متصلين وقعا خطاباً له صلى الله عليه وسلم استطراداً لمدح المؤمنين بوجه آخر أو تأكيداً لرد الإنكار بأن هذه الأمة وأهل هذه الملة شهداء عليكم يوم الجزاء وشهاداتهم مقبولة عندهم فأنتم إذا أحق باتباعهم والاعتناء بهم فلا وجه لإنكاركم عليهم"^٣

ومثله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾^٤

جاء في تفسيره: "وجوز أن يكون لرد الإنكار بناء على تحققه من المشركين فإنهم كانوا يزعمون أنه صلى الله عليه وسلم لا يستولي على مكة كما لم يستول عليها من أراد الاستيلاء عليها قبله عليه الصلاة والسلام وهو كما ترى"^٥

ويأتي التوكيد للاعتناء بمضمون الجملة، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبُّنَّ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِيْنَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ

(١) روح المعاني . (١٤ / ٣٠٣)

(٢) البقرة: ١٤٣ .

(٣) روح المعاني . (١ / ٤٠٣) .

(٤) الفتح: ١ .

(٥) روح المعاني . (١٣ / ٢٤٢) .

﴿ ٤ ﴾ الْمُفْسِدِينَ ﴿ ٤ ﴾

يقول الألوسي: " (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ) استئناف جار مجرى التفسير للمجمل الموعود وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده أي (إِنَّ فِرْعَوْنَ) تجرير وطغى في أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة في الظلم والعدوان" ^١

وافتح الآية بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر.

ومن دواعي التوكيد إمطة الشبهة لغرابة الخبر وحاجته إلى التقرير

يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ ^٢

" وتكرير ضمير المتكلم لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإمطة الشبهة" ^٣

وتأكيد الخبر بحرف (إن) لتحقيقه لأجل غرابته دفعا لتطرق الشك عن موسى في مصدر هذا الكلام.

وقد يكون التوكيد للتحقيق والترغيب يقول في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ ^٤

ورد في تفسيره: "والمقصود معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرائه التي غرثهم حتى استحقوا الوعيد بوعد الله تعالى الصادق لأوليائه الذي أوصلهم إلى السعادة العظمى ، ولذا بالغ سبحانه فيه وأكد حثاً على تحصيله وترغيباً فيه" ^٥

في آخر الآية ثلاث توكيدات وهي قوله تعالى: { وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا } مصدران : الأول ما يسمى عند النحاة المؤكد لنفسه، ومؤكد لمضمون جملة: سندخلهم جنات تجري إلخ، وهي بمعناه ، والثاني

(١) القصص: ٤.

(٢) روح المعاني. (١٠ / ٢٥٣)

(٣) طه: ١٢.

(٤) روح المعاني. (٨ / ٤٨٢).

(٥) النساء: ١٢٢.

(٦) روح المعاني. (٣ / ١٤٥).

مؤكد لغيره وهو قوله: حقا مصدر مؤكد لمضمون سندخلهم جنات، إذ كان هذا في معنى الوعد، أي هذا الوعد أحققه حقا وقوله تعالى: { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } توكيد ثالث بليغ . أما عن فائدة هذه التوكيدات فهو معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة وأمانيه الباطلة لقرنائه بوعد الله الصادق لأولياته ، ترغيباً للعباد في إثارة ما يستحقون به تنجز وعد الله ، على ما يتجرعون في عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان.^١

ومن دواعي التوكيد إظهار التحسر ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾^٢

يقول الألوسي: " والتأكيد هنا قيل : للرد على اعتقادها الباطل وربما أنه يعود إلى الاعتناء والمبالغة في التحسر الذي قصدته والرمز إلى أنه صادر عن قلب كسير وفؤاد بقيود الحرمان أسير .^٣

ويكون التوكيد للمبالغة في الغرور والطمع، يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّمَّا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾^٤ "ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاد أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه"^٥ وموضع وموضع التوكيد في الآية هي جملة _لأجدن_، وأداتا التوكيد هما اللام والنون الثقيلة.

في حين رأى ابن عاشور أن التوكيد في الآية ورد للتهكم^٦

ومن دواعي التوكيد أيضا الربط بين فعلين في زمن واحد، وهذا عند مجيء "أن" الصلة بعد "لما" الرابطة ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾^١

(١) ينظر: تفسير الرمخشي = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٥٦٧).

(٢) آل عمران: ٣٦.

(٣) روح المعاني . (٢/ ١٣٠)

(٤) الكهف: ٣٦.

(٥) روح المعاني . (٨/ ٢٦٢)

(٦) ينظر التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ١٥ ص ٣٢١

يقول: "و (ءانِ) مزيدة لتأكيد الكلام التي زيدت فيه فتؤكد الفعلين واتصالهما المستفاد من لما حتى كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان فكأنه قيل : لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث"^٢

"أن" حرف مزيد للتوكيد ، وأكثر ما يزداد بعد لما وهو يفيد تحقيق الربط بين مضمون الجملتين اللتين بعد لما ، وقد أكدت وجود الفعلين مرتباً أحدهما على الآخر كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان، وينبه إلى سرعة الاقتران والتوقيت بين الشرط والجزاء تنبيهاً على أن الإساءة عقببت مجيئهم وفاجأته من غير ريث وذلك لما يعلم من عادة معاملة قومه مع الوافدين على قريتهم فلم يكن لوط عالماً بأنهم ملائكة لأنهم جاءوا في صورة رجال فأريد هنا التنبيه على أن ما حدث به من المساءة وضيق الذرع كان قبل أن يعلم بأنهم ملائكة جاءوا لإهلاك أهل القرية وقبل أن يقولوا لا تخف ولا تحزن.^٣

ورأى الألوسي أن التأكيد يأتي لغرض التحزن وإظهار الشكوى في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾^٤ أي ملحقون جاؤوا بالجملة الاسمية مؤكدة بحر في التأكيد للدلالة على تحقق الإدراك واللاحق وتنجزهما، وأرادوا بذلك التحزن وإظهار الشكوى طلباً للتدبير"^٥.

والتأكيد للتقريب والتشجيع ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أَيُّكُمْ لَتَأْتُوا الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾^٦

(١) العنكبوت: ٣٣.

(٢) روح المعاني. (١٠ / ٣٦٠).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٠ / ٢٤٤).

(٤) الشعراء: ٦١.

(٥) روح المعاني. (١٠ / ٨٣).

(٦) النمل: ٥٥.

جاء في روح المعاني: " (أَتَيْنَكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ * شَهْوَةً) تشبیه للإنكار وبيان لما أتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام، وتحلية الجملة بحرفي التأكيد للإيدان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد لكمال شناعته" ^١

والتأكيد- بإن واللام- لتقبيح وتشنيع أفعالهم كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد لكمال بعده من العقول فيؤكد تأكيدا .

ويكون للاعتناء بالذم أو المدح:

وهذا عند اتصال اللام بأفعال الذم أو المدح كما في قوله تعالى: ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئس ما كسبت المتكبرين ﴾ * وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^٢

جاء في تفسيره: " واللام جيء بها للتأكيد اعتناء بالذم لما أن القوم ضالون مضلون كما ينبى عنه قوله تعالى: (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) [النحل : ٢٥] ولتأكيد اعتناء بالمدح جيء باللام أيضا فيما بعد من قوله سبحانه : (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) [النحل : ٣٠] لأن أولئك القوم على ضد هؤلاء هادون مهديون ، وكأنه لعدم هذا المقتضى في آيتي الزمر والمؤمن ^٣ لم يؤت باللام" ^٤

مجمل كلام الألويسي أن في سورة النحل، وصف قوما أشد كفراً و أكبر جرماً من المذكورين في آيتي الزمر و غافر و ذلك أنهم ضلوا و أضلوا غيرهم و حملوا من أوزار الذين يضلونهم علاوة على أوزارهم هم فزاد عذابهم، فناسب ذلك زيادة اللام لتوكيد العذاب لهم بخلاف المذكورين في الآيتين الآخرين، فإنه لم يصفهم بمثل هذا الوصف.

(١) روح المعاني . (١٠ / ٢٠٩).

(٢) النحل: ٢٩-٣٠.

(٣) كذا في التفسير والصواب في سورة غافر

(٤) روح المعاني . (٧ / ٣٧١)

و عند اختيار النظم القرآني لأدوات التوكيد، فهو يؤكد هنا بالنون الخفيفة مثلاً وفي موطن آخر بالنون الثقيلة كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾^(١)

جاء في روح المعاني: "وأكدت السجّن بالنون الثقيلة قيل: لتحقيقه، وما بعده بالنون الخفيفة لأنه غير متحقق. وقيل: لأن ذلك الكون من توابع السجّن ولوازمه، فاكتفت في تأكيده بالنون الخفيفة بعد أن أكدت الأول بالثقيلة"^(٢)

ذكر الألوسي مقصدين أسلوبيين للعدول من النون الثقيلة إلى النون الخفيفة بحسب القرائن ودلالات السياق، والمتدبر يمكنه أن يجد مقاصداً أخرى في كلام امرأة العزيز وفي هذا التلوين الخطابى فيمكن أن يقال: إن امرأة العزيز كانت أشد حرصاً على سجنه من كونه صاغراً لأنها كانت تتوقع حبسه في بيتها فتقرب منه وتراه كلما أرادت.^(٣)

❖ ألفاظ القرآن بين التوكيد وتركه:

التوكيد وعدمه من أساليب البيان العربى، قد يكون الكلام لا يحتاج إلى توكيد فتأتي ألفاظ الجملة بغير توكيد وقد تحتاج الجملة إلى مؤكّد واحد أو أكثر حسب المقام والموضوع فيؤتى بالمؤكّدات المطلوبة.

وإن التوكيد في مواضع وتركه في مواضع أخرى واضح في البيان القرآنى، يحكمه السياق الذى وردت فيه الجملة القرآنية ويراعى فيه حالة السياق إلى نوع التوكيد ويتم ذلك كله بتوازن دقيق ومقصود.

● تأكيد الموت وترك تأكيد البعث

ففي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾^(١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿^(١٦)﴾^(٤) يقول الألوسي: "ولم يؤكد سبحانه أمر البعث تأكّيداً لأمر الموت مع كثرة المترددين فيه والمنكرين

(١) يوسف: ٣٢.

(٢) روح المعاني (٦/ ٤٢٤)

(٣) ينظر: حاشية الصبان على شرح التصريح يس بن زيد الدين العليمى، دار احياء الكتب العربية، دط، دت (٣/ ٣١٢)

(٤) المؤمنون: ١٥-١٦.

له اكتفاء بتقديم ما يغني عن كثرة التأكيد ويشيد أركان الدعوى أتم تشييد من خلقه تعالى الإنسان من سلالة من طين ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأ خلقاً آخر يستغرق العجائب ويستجمع الغرائب فإن في ذلك أدل دليل على حكمته وعظيم قدرته عز وجل على بعثه وإعادته وأنه جل وعلا لا يهمل أمره ويتركه بعد موته نسياً منسياً مسقراً في رحم العدم كأن لم يكن شيئاً ، ولما تضمنت الجملة السابقة المبالغة في أنه تعالى شأنه أحكم خلق الإنسان وأثقنه بالغ سبحانه عز وجل في تأكيد الجملة الدالة على موته مع أنه غير منكر لما أن ذلك سبب لاستبعاد العقل إياه أشد استبعاد حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده وسمع أن الله جل جلاله أحكم خلق الإنسان وأثقنه غاية الإتقان، وهذا وجه دقيق لزيادة التأكيد في جملة الدالة على الموت وعدم زيادته في الجملة الدالة على البعث لم أر أي سبقت إليه" ^١

في الآية توكيد لأمر الموت ب (إن) واللام مع كونهم لا يرتابون فيه لأنهم لما أعرضوا عن التدبير فيما بعد هذه الحياة كانوا بمنزلة من ينكرون أنهم يموتون، والاكتفاء بتوكيد البعث ب (إن) فقط لأنهم ينكرون البعث. ويكون ما ذكر قبله من الخلق الأول دليلاً على إمكان الخلق الثاني كما قال تعالى: أفعينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد [ق: ١٥] ، فلم يحتج إلى تقوية التأكيد بأكثر من حرف التأكيد وإن كان إنكارهم البعث قويا، والألوسي يقر بتفرده وسبقه في كشف نكتة التوكيد في هذه الآية. ^٢

● تأكيد التسليم دون تأكيد الصلاة

وهذا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ

وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ ^٣

ورد في تفسيره: " وأكد سبحانه التسليم ولم يؤكد الصلاة قيل لأنها مؤكدة بإعلامه تعالى أنه يصلي عليه وملائكته ولا كذلك التسليم فحسن تأكيده بالمصدر إذ ليس ثم ما يقوم مقامه " ^٤.

فلم يقل: صلوا عليه صلاة وسلموا تسليماً، للاكتفاء بإعلام الرسول أن الله يصلي عليه

(١) روح المعاني . (٩ / ٢١٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١٨ / ٢٦)

(٣) الأحزاب: ٥٦ .

(٤) روح المعاني . (١١ / ٢٥٦).

وملائكته، دون التسليم فحسن تأكيده بالمصدر.

• توكيد المطعوم دون المشروب

ففى قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُوتَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴿١﴾

للإمام الرازي في هذا المقام كلام طويل اعترض به على الزمخشري وبين فيه وجه ذكر اللام في الزرع أولاً وحذفها في الماء ثانياً^٢، ورأى الألوسي أنه لم يأت بما يشرح الصدر واختار: "إن اللام أدخلت في المطعوم دون المشروب لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً في العرف والعادة والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب، وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق، وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد وإذا وقع يكون عن سخط شديد، فلذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره"^٣.

ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام، ثم ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لنا سبيل إليه، وأكد فعل (الجعل) باللام في الزرع وعدل عن التأكيد في الماء لتحقيق غاية بيانية وهي التفريق بين المطعوم والمشروب في الأهمية وصعوبة فقد أحدهما.

(١) الواقعة: ٦٣-٧٠.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب. الرازي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ٢٠٠٠، (٢٩/١٥٨).

(٣) روح المعاني. (١٤/١٤٩).

• وكيد الإطعام والسقي دون الخلق:

في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾^١ وجيء بهو هنا دون الخلق لشيوع إسناد الإطعام والسقي إلى غيره عز وجل بخلاف الخلق وعلى هذا القياس فيما جيء فيه بهو وما ترك مما يأتي إن شاء الله تعالى.^٢

فأكدت الهداية والإطعام والسُّقي والشفاء إليه تعالى؛ لأن هذه المسائل الأربع قد يدعيها غيره تعالى، فمثلاً قد يظن البعض أن الطبيب هو الشافي أو أن الأب مثلاً هو من يتكفل بالرزق؛ لأنه الجالب له والمناول، والهداية قد يدعيها واضعوا القوانين من البشر، أما الأمور التي لا يدعيها أحد، فتأتي بالفعل دون توكيد، فلم يُقَلَّ هنا: هو يميتني أو هو يُحييني؛ لأن الحياة والموت بيده تعالى لا يدعيها أحد لأنه هو الذي يحيي ويميت.

(١) الشعراء: ٧٨-٨٠.

(٢) روح المعاني. (١٠ / ٩٥)

الفصل الرابع الجمل القرآنية

✓ أسلوب الفصل و الوصل

✓ أسلوب الالتفات

✓ أسلوب التكرار

✓ ترتيب الجمل وترابطها

توطئة:

تتجاوز الدراسات البلاغية والأسلوبية نطاق البحث في المفردة والجملة إلى النظر في الجمل المتتابعة، لمعرفة خفي المعاني الكامنة وراء ترابطها وتناسبها، والعلاقات الدلالية التي تجمعها. وهذا الفصل يتناول أهم المباحث التي تخص الجمل القرآنية منها: الفصل والوصل فنحاول الكشف عن أنساق الجمل في الآيات القرآنية ضمن أسلوبية التركيب والعدول من خلال تفسير الألوسي، ويهتم أيضا بالجمل التي وقع فيها أسلوب الالتفات ونقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها، ومنها بحث التكرار الذي يمثل ظاهرة فنية بارزة في أسلوب القرآن، ونهني هذا الفصل بمبحث يخص ترتيب الجمل وترابطها أو ما يطلق عليه علم التناسب.

أولاً - أسلوب الفصل والوصل:

اعتنى البلاغيون بالفصل والوصل وأهم مواضعه في الشعر العربي وفي القرآن الكريم، وعرفوهما بأنهما العلم بمواضع العطف والاستئناف، فالوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه والتمييز بينهما^(١)، كما حددوا مواضع لكل من الوصل والفصل^(٢).

وعده الجرجاني من أغمض وأدق فنون البلاغة فقال: "ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: أنه خفي غامض، ودقيق صعب إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى، وأدق وأصعب"^(٣) وبلاغة الوصل لا تتحقق إلا بـ (الواو) العاطفة، دون بقية حروف العطف لأن (الواو) هي الأداة التي تخفى الحاجة إليها، إذ لا تفيد إلا مجرد الربط وتشريك ما قبلها بما بعدها في الحكم الإعرابي، بخلاف العطف بغيرها فتفيد مع التشريك معاني أخرى^(٤).

وفضلاً عن الإشراك الشكلى للفصل والوصل، هناك الإشراك الدلالي والمعنوي " ولا يتصور إشراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشراك فيه"^(٥)، لعمق الصلة بين الوصل والفصل اعتماداً على المستوى العميق كأساس لإنتاج الظاهرتين في المستوى السطحي، إذ يتحقق الوصل في صورتين إحداهما ظاهرة بفضل أداة الربط، والثانية مضمرة وتتحقق بمجرد القران (الفصل) دون أداة.^(٦)

وفي بحثنا هذا اعتمدنا على أسلوب الوصل والفصل للكشف عن أنساق الجمل في الآيات القرآنية ضمن أسلوبية العدول، من خلال تفسير الألوسي فتارة نرى الجمل قد وصلت ببعضها

^(١) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م، ج ٧ ص ٦٠، والإيضاح، القزويني: ص ١٤٥

^(٢) مواضع الفصل هي كمال الاتصال، وكمال الانقطاع، وشبه كمال الاتصال، وشبه كمال الانقطاع، والتوسط بين الكمالين، أما مواضع الوصل فهي: الإشراك في الحكم الإعرابي وان تتفق الجملتان خبراً وإنشاءً وبينهما مناسبة تامة، وإذا اختلفتا خبراً وإنشاءً وأوهم الفصل خلاف المعنى المقصود. ينظر الايضاح: ١٤٦/١ - ١٥٧.

(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ص ٢٣١

(٤) من حروف العطف (الفاء) وتفيد الترتيب من غير تراخ، و(ثم) توجهه مع تراخ، و(أو) تردد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما، فإذا تم عطف الجملة على الجملة بواحد منها ظهرت الفائدة. ينظر دلائل الإعجاز: ١٧٢

(٥) دلائل الإعجاز: ٢٢٤

(٦) ينظر البلاغة العربية (قراءة أخرى)، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر. لوتجمان. ص ٣٠٧-٣٠٨.

وأخرى نراها مفصولة ترك الوصل بينها بناءً على الصيغ المتواجدة فيها، إذ إن " أحد المبادئ التي تحكم فصل الخطاب أو وصله صيغته، فإذا كانت الصيغة متماثلة حكاية أو خبراً وُصل الخطاب ، وإن كانت مختلفة فصل " (١)، وبعد ذلك يأتي السياق ليرجح حالة على أخرى.

١_الوصل ومواضعه:

• عطف الخاص على العام:

يأتي عطف الخاص على العام عندما تكون الجملة الثانية تفصيل وتوضيح للأولى أو لأغراض أخرى يراها المتلقي، "فنكات عطف الخاص على العام لا تخفى كثرتها على ذوي الأفهام (٢) وهذا إقرار من الألوسي استمده من كثرة وقوفه عند هذا الأسلوب.

فيكون للتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (٣)

يقول الألوسي: "وعطف - الذين أوتوا العلم - على الَّذِينَ آمَنُوا من عطف الخاص على العام تعظيماً لهم بعدّهم كأنهم جنس آخر، ولذا أعيد الموصول في النظم الكريم" (٤) قوله: { والذين أوتوا العلم } وهم فئة خاصة معطوف على { الذين آمنوا } وهم فئة عامة، والعطف مشعر بالتغاير، فيكون الكلام تم عند قوله: { منكم }، وانتصب { والذين أوتوا العلم } بفعل مضمّر تقديره: ويخص الذين أوتوا العلم درجات، تعظيماً لهم.

(١) لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، ط ١، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩١م

ص ١٠٨

(٢) روح المعاني (١/ ١٢٣).

(٣) المجادلة: ١١.

(٤) روح المعاني (١٤/ ٢٢٣).

كما يكون للاهتمام والاعتناء نحو قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ (١) والشاهد في هذه الآية هو وصل الضلال بالغي، والفرق بينهما: أن الضلال أعم استعمالاً في الوضع، تقول ضل بعيري ورحلي، ولا تقول غوى، فالمراد من الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقاً أصلاً، والغواية أن لا يكون له طريق إلى المقصد مستقيم يدلك على هذا أنك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق السداد إنه سفيه غير رشيد، ولا تقول إنه ضال (٢) وعن وظيفة هذا الوصل في هذه الآية يقول الألوسي: " وَمَا غَوَىٰ أَي وَمَا اعْتَقَدَ باطلاً قط لأن الغي الجهل مع اعتقاد فاسد وهو خلاف الرشيد فيكون عطف هذا على ما ضلَّ من عطف الخاص على العام اعتناء بالاعتقاد، وإشارة إلى أنه المدار. " (٣)

• الوصل بين مجموع قصتين:

وورد الوصل في القرآن الكريم بين مجموع قصتين بتجمعان في غرض ومعنى واحد، نحو ما ورد في سورة غافر التي بنيت بمحمل آياتها للرد على المجادلين المنكرين للتوحيد والبعث، ففي قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ

جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٤)

يقول الألوسي: "والعطف في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ﴾ من عطف مجموع قصة على مجموع أخرى لاستوائهما في الغرض، ولهذا لما تم هذه القصة أعني قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [غافر : ٦٠-٦٨] صرح بالغرض في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ [غافر : ٦٩] كما بني القصة أولاً على ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ [غافر : ٥٦] ولو تؤمل في هذه السورة الكريمة حق التأمل وجد جل الكلام مبنياً على رد المجادلين في آيات الله المشتملة على التوحيد والبعث وتبيين وجه

(١) النجم: ٢

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب. فخرالدين الرازي، (٢٨ / ٢٤٢)

(٣) روح المعاني. (١٤ / ٤٥)

(٤) غافر: ٦٠

الرد في ذلك بفنون مختلفة، ثم انظر إلى ما ختم به السورة كيف يطابق ما في بدايتها من قوله سبحانه : ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ ﴾ [غافر : ٤] وكيف صرح آخرها بما رمز إليه أولاً لتقضي منه العجب فهذا وجه العطف. " (١)

جاءت مجمل آيات سورة غافر للرد على المجادلين في آيات الله، فشملت مجادلتهم في وحدانية الإلهية كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا ﴾ [غافر : ٧٣] ، والمجادلة في وقوع البعث كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴾ إلى قوله : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ [غافر : ٦٩ - ٧١] ، وبين الله سبحانه وتعالى وجه الرد في ذلك في آيات هذه السورة بحجج مختلفة، ولما كانت آيات السورة تستوي في الغرض والمعنى والمقصد ورد العطف بالواو في هذه الآية.

• الوصل لتنزيل التغيرات العنواني منزلة التغيرات الذاتية:

وهذا عند اجتماع مجموعة من الصفات في موصوف واحد، نحو قوله تعالى : ﴿ وَالنَّزْعَاتِ عَزَقًا ۝

وَالنَّشِطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ۝ ﴾ (٢)

جاء في تفسير الألوسي : "والعطف مع اتحاد الكل لتنزيل التغيرات العنواني منزلة التغيرات الذاتي كما مر غير مرة للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمت الأمور حقيق بأن يكون على حياله مناطاً لاستحقاق موصوفة للإجلال والإعظام بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه ولو جعلت النازعات ملائكة العذاب والناشطات ملائكة الرحمة كان العطف للتغيرات الذاتي على ما هو الأصل" (٣)

كل صفة مما عطف بالواو يراد بها موصوف غير المراد بموصوف الصفة الأخرى، صفات لموصوفات مختلفة الأنواع أو الأصناف، أو لموصوف واحد له أحوال متعددة لاستحقاق موصوفة

(١) روح المعاني. (١٢ / ٣٣٤)

(٢) النازعات ١-٢

(٣) روح المعاني. (١٥ / ٢٢٤)

الإجلال والإعظام بالإقسام به.

• الوصل بين الجملة الخبرية والإنشائية:

اختلف في جواز عطف الخبر على الإنشاء وعكسه فمنعه البيانين وابن مالك وابن عصفور ونقله عن الأكثرين وأجازاه الصفار وجماعة^(١)، والوصل بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي "يهدف إلى تحقيق أغراض بلاغية تتوزع على الوظيفة الانفعالية (المتكلم)، والوظيفة الإفهامية (المتلقي) كدلالة الرضا بالواقع الصياغي حتى كأنه مطلوب تحقيقه في الواقع الفعلي"^(٢)، وعدّد بعض الباحثين اثني عشر موضعاً في القرآن الكريم عطف فيها الخبرية على الإنشائية والعكس^(٣)

أما الألوسي فيمنع عطف الجملة الخبرية بالجملة الإنشائية، وأما مارآه في القرآن فيضع له تأويلاً، أو يقدر محذوفاً. ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤)

فوصل فعل الأمر ﴿اتقوا﴾ والذي يمثل الجملة الإنشائية بالفعل المضارع ﴿وَيَعْلَمَكُمُ﴾ والذي يمثل الجملة الخبرية "لأن ﴿اتقوا الله﴾ حث على تقوى الله تعالى ﴿وَيَعْلَمَكُمُ اللهُ﴾ وعد بإنعامه سبحانه ﴿والله بكلّ شيءٍ عليمٌ﴾ تعظيم لشأنه عز شأنه، ومن هنا علمت وجه العطف فيها من اختلافها في الظاهر خبراً وإنشاءً"^(٥)

فالألوسي في هذه الآية تابع المفسرين السابقين له في كون الجملتين الأخيرتين لإنشاء الوعد والمدح والتعظيم، وهو تأويل لا يسلم به لعدم وجود قرينة من السياق تبين ذلك، والأصوب أن الواو مجرد الربط اللفظي وكل جملة مستقلة عن غيرها لأنها جمل استئنافية، فجعلت كل جملة منها مستقلة بنفسها لا تحتاج إلى ربط بالضمير، بل اكتفي فيها بربط حرف العطف، وليست في معنى واحد،

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ج ٢/٣٨٢.

(٢) تحولات البنية في البلاغة العربية، أسامة البحيري، دار الحضارة للطبع والتوزيع، طنطا مصر، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ١٢٣.

(٣) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عزيمة، دار الحديث، القاهرة، د. ط، ج ٣ ص ٥٣٨ وما بعدها.

(٤) البقرة: ٢٨٢

(٥) روح المعاني. (٦٠ / ٢)

فالأولى: حث على التقوى، والثانية: تذكر بالنعم، والثالثة: تتضمن الوعد والوعيد. (١) وبينها رباط معنوي ولفظي يسبكها سبكا واحدا، وهذا ما يؤكد تكرار لفظ الجلالة.

ويرى الألوسي أنه لا يصح أو لا يحسن التخالف بين الجملتين المعطوفتين الإنشائية والخبرية، نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءِالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴾ (٢)

ففي هذه الآية يقدر محذوفا في الكلام ويسوق رأي الزمخشري أن فعل الأمر وأهجرني عطف على محذوف يدل عليه التهديد أي فاحذرنني واتركني. (٣) و رغم اختلاف الجملتين في أسلوبهما إلا أن المتأمل في هذه الآية يجد ارتباطا وتوافقا في المعنى وهو التهديد بالعقوبة المختلفة نوعها أي: الرجم أو الحجر، ولم يقل: أرجمك وأهجرك، وإنما أمر أبو إبراهيم ابنه بهجرانه ولم يخبره بأنه هو يهجره ليدل على أن هذا الهجران في معنى الطرد والخلع إشعارا بتحقيقه. (٤)

ومن المواضع التي اختلف فيها موضع الواو، ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٥)

ففي تفسيره لهذه الآية يبين المعاني التي أفادها الوصل بالواو، قال الألوسي: " ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ جوز أن يكون عطفاً على صلة ﴿ مَا ﴾ وأن يكون مستأنفاً للأخبار عن حالة الآلهة؛ واستطاع متعد ومفعوله محذوف هو ضمير الملك أي لا يستطيعون أن يملكوا ذلك ولا يمكنهم، فالكلام تتميم لسابقه وفيه من الترقى ما فيه فلا يكون نفي استطاعة الملك بعد نفي ملك الرزق غير محتاج إليه، وإن جعل المفعول ضمير الرزق كما جوزه في الكشاف يكون هذا النفي تأكيداً لما قبله. وأورد عليه أنه قد

(١) البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت، ط ١، ٢٠٠١ م، (٢/ ٣٧١)

(٢) مزيم: ٤٦

(٣) ينظر: وح المعاني (٨/ ٤١٦) وينظر: الكشاف، الزمخشري، (٣/ ٢٣).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١٦/ ١٢٠).

(٥) النحل: ٧٣

قرر في المعاني أن حرف العطف لا يدخل بين المؤكد والمؤكد لما بينهما من كمال الاتصال، ودفع بأن ذلك غير مسلم عند النحاة وليس مطلقاً عند أهل المعاني ألا ترى قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤، ٥] نعم يرد عليه حديث أن التأسيس خير من التأكيد، ويجوز ولعله الأولى أن يكون الفعل منزلاً منزلة اللازم فيكون المراد نفي الاستطاعة عنهم مطلقاً على حد يعطي ويمنع المعنى أنهم أموات لا قدرة لهم أصلاً فيكون تذييلاً للكلام السابق، وفيه ما فيه على الوجه الأول وزيادة^(١).

فحمل الوصل في هذه الآية دلالات مختلفة:

— أن تكون هذه الجملة الموصولة تميمياً^(٢)، في حالة تقدير مفعول (يستطيعون) هو ضمير الملك.

— أن تكون هذه الجملة الموصولة تأكيداً، في حالة تقدير مفعول (يستطيعون) هو ضمير الرزق.

— أن تكون هذه الجملة الموصولة تذييلاً^(٣)، في حالة إنزال الفعل (يستطيعون) منزلة اللازم.

وإن كان الألوسي يؤيد الرأي الثالث ويجعله الأولى من بين هذه الدلالات، إلا أنه يمكن القول بأن جميع هذه المعاني مرادة فحصل بذلك التكتيف في المعنى، "فالقرآن الكريم تعبير في مقصود. كل لفظة بل كل حرف فيه وضع وضعا فنيا مقصودا، ولم تراخ في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل روعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله"^(٤)

٢_ الفصل ومواضعه:

ويكون الفصل بين جملتين لكمال الاتصال، كأن تتفق الجملتين في الإنشائية والخبرية لفظاً ومعنى، أو معنى فقط. وذلك لما بين الجملتين من قوة وترابط لا تحتاج معه إلى رابط، وقوة هذا

^(١) روح المعاني (٧/ ٤٣٠).

^(٢) التتميم أو التكميل وهو: وهو أن توفى المعنى حظه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة؛ ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده، أو لفظاً يكون فيه توكيده إلا تذكره. ينظر: الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو الهلال العسكري، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية — بيروت، ١٤١٩ هـ (ص: ٣٨٩).

^(٣) التذييل: وهو أن يؤتى بجملة عقب جملة والثانية تشتمل على المعنى الأول لتأكيد منطوقه أو مفهومه ليظهر المعنى لمن لم يفهمه ويتقرر عند من فهمه. ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (٣/ ٢٥٠).

^(٤) التعبير القرآني، فاضل السامرائي، دار عمار، الأردن، ط ٤، ٢٠٠٦ م، ص ٦.

التلاحم بينهما تعود إلى عدة مقاصد:

* كأن تكون جملة مرشحة للكلام المبكت، أي: الكلام الذي وقع فيه التهديد والتوبيخ، كما في قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾^(١) ، وسياق هذه الآيات جاء حول التهديد بالحشر والنشر، والمعنى أنه تعالى عالم بجميع المعلومات حكيم لا يهمل، عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فلا بد وأن يوصل جزاء كل أحد إليه بتمامه فيكون هذا تخويفاً شديداً للعصاة وجملة (ألم يعلم) واقعة في محل جواب الشرط جاءت مفصولة لترشيح أو للزيادة في التهديد والتوبيخ.^(٢)

يقول الألوسي: "وفي الإتيان بالجملة الأخيرة من دون العطف ترشيح للكلام المبكت وتنبية على أحقية الشرط ولهذا صرح بجوابه ليمحض وعيداً"^(٣)

* أو تفصيلاً بعد إجمال، وهذا عندما ترد في الجملة الأولى أموراً عدة تحتاج إلى تفصيل فتأتي الثانية لتفصل هذا الإجمال، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَبَدُّوا لَصَدَقْتَ فَنِعْمَ هِيَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾^(٤)

يقول الألوسي: "فالجملة نوع تفصيل ما أجمل في الشرطية وبيان له ولذلك ترك العطف بينهما"^(٥)

ففي هذه الآية نوع من التفصيل لبعض ما أجمل في الشرطية في الآية السابقة لها: {وما أنفقتم من نفقة}

* أو أن تكون الجملة الثانية بدلا من الجملة الأولى، لكونها أدل على الغرض وأوفى بالمطلوب من جهة، وللعناية بشأنها من جهة^(٦) .

(١) العلق: ١١، ١٢

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، فخرالدين الرازي (٢٣ / ٣٢)

(٣) روح المعاني (٤٠٦ / ١٥)

(٤) البقرة: ٢٧١

(٥) روح المعاني (٤٣ / ٢)

(٦) ينظر: البلاغة فنونها وأفانها (علم المعاني)، فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، ط ٩، ٢٠٠٤ م ص ٤٢٣ .

نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَمْرٌ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِتْرَهِنَا وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) يقول علامة بغداد: " ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ﴾ بدل من ﴿ إِذْ حَضَرَ ﴾ بدل اشتغال وكلاهما مقصودان كما هو المقرر في إبدال الجمل إلا أن في البديل زيادة بيان ليست في المبدل منه ولو تعلقت إذ هنا ب ﴿ قَالُوا ﴾ لم ينتظم الكلام " (٢).

بني الكلام على هذه الطريقة في النظم الكريم، بدل أن يقال مثلاً: (أم كنتم شهداء إذ قال يعقوب لبنيه عند الموت)، لقصد استقلال الخبر فكلاهما مقصودان، كأنهما حدثان مختلفان، ولأن في البديل زيادة بيان ليست في المبدل منه، وهذا يجيل إلى الإجمال ثم التفصيل في الكلام لأن حالة حضور الموت لا تخلو من حدث هام سيحكي بعدها فيترقبه السامع.

ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣)

جاء في تفسيره: "قوله في آخر الآية: ﴿ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بدل من الذين، بدل اشتغال مبين لكون استبشارهم بحال إخوانهم لا بدواهم أي يستبشرون بما تبين لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم أحياء" (٤)

قوله: { أَلَّا خَوْفٌ } في محل الخفض بدل من { الذين } والتقدير: ويستبشرون بأن لا خوف ولا حزن بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم.

*أو استئناف بياني:

وهو أن تأتي الجملة الثانية جواباً عن سؤال فهم من الجملة الأولى، وهذا النوع فيه إغناء للسامع عن تكلف السؤال، وإعمال لفطنته وإغناء لعقله في تقدير السؤال وربط الكلام، بالإضافة إلى ما في

(١) البقرة: ١٣٣

(٢) روح المعاني (١/ ٣٨٨)

(٣) آل عمران: ١٧٠

(٤) الألويسي (٢/ ٣٣٥)

هذا الأسلوب من الإيجاز والاختصار، ومواضع هذا الضرب كثير في القرآن الكريم من بينها:

ما جاء في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَرُّ

مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٢٤﴾ ^(١) يقول: "وفصل الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عما قبله استئنافاً لأن التسلية

السابقة حركت منه صلى الله عليه وسلم بأن يسأل فإذا أجيبهم وما يكون قولي لهم؟ فقيل قل لهم الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم إلخ" ^(٢)

فصلت هذه الآية عما قبلها لوقوعها استئناف بياني عن سؤال يطرحه الرسول فهم من الآية السابقة، جاء تقديره: بماذا أجيبهم وما يكون قولي لهم؟ فقيل قل لهم {الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم}، وجاء الاستئناف البياني لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم، ولوعيد المشركين ودمهم.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ

۝١١٣﴾ ^(٣) ذكر قولهم هنا بأسلوب "الاستئناف البياني ولذا لم يعطف كأنه قيل: فماذا قالوا له عند مجيئهم إياه؟ فقيل: قالوا إلخ" ^(٤)

العدول عن الوصل إلى الفصل لبناء الكلام على الاستئناف البياني الذي يفهم بسؤال نشأ من حكاية مجيء السحرة كأنه قيل فماذا قالوا له عند مجيئهم إياه فقيل قالوا مدلين بما عندهم واثقين بغلبتهم {إن لنا لاجراً إن كنا نحن الغالبين}.

ومثله في قوله تعالى: ﴿ وَأَكْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ

قَالَ عِدَائِي أَصِيبُ بِهِ مِنْ أَشْأِئِ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۝٥٠﴾ ^(٥)

يقول الألوسي: ﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قال الله تعالى له بعد دعائه؟ فقيل:

(١) الفرقان: ٣٤

(٢) المصدر نفسه: (١٠ / ١٨).

(٣) الأعراف: ١١٣

(٤) المصدر نفسه: (٥ / ٢٥)

(٥) الأعراف: ١٥٦

قال : ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ ^(١).

وهذه الآية من الشواهد التي جاءت في تفسيره حول الفصل في الجملة الواقعة استئنافية بيانياً عن سؤال مقدر: فماذا قال الله تعالى له بعد دعائه؟ ف قيل : قال : ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾، وهذا أسلوب كما رأينا يعمل تنشيط الفكر وإعمال العقل في ربط الكلام السابق باللاحق عن طريق تقدير سؤال يفهم من السياق بالإضافة إلى ما فيه من الإيجاز والاختصار.

* أو الفصل لإفادة البيان:

وذلك بأن تنزل الجملة منزلة عطف البيان من متبوعه لإفادة الإيضاح، والذي يدعوا إلى ذلك أن يكون في الأولى بعض الحفاء الداعي إلى إزالته فتأتي الثانية لتزيل هذا الحفاء.

نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ^(٢) يقول الألوسي: " أي قد علمت أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر، والاستيلاء الباهر، المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلي إيجاداً وإعداماً، وأمرأً ونهيأً حسبما تقتضيه مشيئته، لا معارض لأمره، ولا معقب لحكمه، فمن هذا شأنه كيف يخرج عن قدرته شيء من الأشياء؟ فيكون الكلام على هذا كالدليل لما قبله في إفادة البيان، فيكون منزلاً منزلة عطف البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح، فلذا ترك العطف. " ^(٣)

ترك العطف في الآية لإفادة البيان والتوضيح، للآية السابقة والتي ذكر الله سبحانه وتعالى فيها أن هناك آيات نسخت في القرآن في قوله ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(٤)، فأراد أن يبين لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة في كونه يفعل ما يشاء.

* الفصل في مواضع الدعاء: وأكثر ما يأتي الفصل في الأدعية لاختلاف المطالب واستقلالها،

كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا

^(١) روح المعاني (٥ / ٧٢)

^(٢) البقرة: ١٠٧

^(٣) روح المعاني (١ / ٣٥٣)

^(٤) البقرة: ١٠٦.

ذُنُوبِنَا وَكَفَّرْنَا عَنْ سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٤٣﴾ رَبَّنَا وَعَدِّتْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٤٤﴾ ﴿١﴾

يقول: " وترك العطف في هذه الأدعية المفتحة بالنداء بعنوان الربوبية للإيذان باستقلال المطالب وعلو شأنها" (٢)

٣_ الفصل والوصل والسياق القرآني:

وهذا من ألطف ما نجد في هذا الباب والذي تتجلى فيه دقة التعبير القرآني وروعة أسلوبه البياني هو ورود هذا الثنائي (الوصل والفصل) معاً في آية واحدة معبرة عن معانيها، ومحققة دلالات جديدة، وانتبه الألووسي إلى هذه الظاهرة الأسلوبية الدقيقة في نظم القرآن، فيلتفت إلى الجملة التي تأتي في سياق مفصولة عما قبلها من جمل، وتأتي في سياق آخر وقد وصلت بما قبلها، وذلك لأن المعنى قد لا يتسق إلا بالوصل أو لا يتسق إلا بالفصل، فما الفصل والوصل إلا وسيلة فنية لتحقيق أهداف المعنى المقصود.

ولقد يعرض في هذا الوجه اللغوي أسراراً دقيقة لو سئل المرء البيان عن وجه الحسن فيها لعجز عن وصفه، بل لو سئل أين موضع الوصل منها لصعب عليه تحديده بقاعدة علمية. على أنه لو تناسى تلك الألقاب الاصطلاحية والأسئلة الفضولية وخلق نفسه ووجدانها ثم اتصل بهذه المواضع تلاوة أو استماعاً لما شعر بينها بشيء من الخروج أو الانتقال ينبوا عنه الذوق أو يتعثر فيه السمع، بل يحس بينها بروح الاتصال وحلاوة الانتقال من قبل أن يهتدي لناحية محدودة أو علة معينة (٣).

ونجد هذا الأسلوب في آية واحدة، أو في الآيات المتشابهة لفظاً في سورة قرآنية واحدة، أو عدة سور، وفي أسلوب الحوار والمقابلة.

ويأتي الفصل بين المفردات عند ذكر مجموعة من الصفات تجتمع في شيء واحد، وتوصل عند

(١) آل عمران: ١٩٣، ١٩٤

(٢) روح المعاني (٢/ ٣٧٧)

(٣) ينظر: النبأ العظيم، عبدالله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٥م، (ص: ١٩٥)

تغاير الصفات في آية واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَلْبَسْنَ عِذَاتِ سَخِيحَاتٍ ثِيَابَ تَبَّاتٍ وَأَبْكَارًا ۝﴾^(١)

جاء في تفسيره: "وترك العطف في الصفات السابقة لأنها صفات تجتمع في شيء واحد وبينها شدة اتصال يقتضي ترك العطف ووسط العاطف هنا للدلالة على تغاير الصفتين وعدم اجتماعهما في ذات واحدة."^(٢)

فترك العطف في الصفات الأولى لأجل التنصيص على ثبوت جميع تلك الصفات لكل واحدة منهن ولو عطف بالواو لاحتمل أن تكون الواو للتقسيم، أي: تقسيم الأزواج إلى من ثبت لهن بعض تلك الصفات دون بعض، ولاستحالة اجتماع الصفتين الأخيرتين في زوجة واحدة جاءت معطوفتين.

ونحو وصل الآيات الأخيرة من سورة الإخلاص قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾^(٣)

يقول علامة بغداد: "ولعل وقوع الجمل الثلاث متعاطفة دون ما عداها من هذه السورة لأنها سيقت لمعنى وغرض واحد وهو نفي المماثلة والمناسبة عنه تعالى بوجه من الوجوه وما تضمنته أقسامها لأن المماثل إما ولد أو والد أو نظير غيرها فلتغاير الأقسام واجتماعها في المقسم لزم العطف فيها بالواو كما هو مقتضى قواعد المعاني"^(٤)

وهذا عكس الآيات الأولى من نفس السورة التي جاء موصولة ومستقلة للإخبار على سبيل الاستئناف، كقولنا مثلاً: زيد العالم زيد الشجاع.

ويتحد لفظ آيتين في سورة واحدة، ولكن تأتي إحدهما موصولة بما قبلها بالواو، والأخرى مفصولة لعدم ارتباطها بما قبلها ولكل فائدة ومعنى معين مقصود.

(١) التحريم: ٥

(٢) روح المعاني (١٤ / ٣٥٠)

(٣) الإخلاص: ١ - ٤

(٤) روح المعاني (١٥ / ٥١٥)

قال تعالى في سورة ق: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ٢٣] وورد في موضع آخر وفي نفس السورة: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ [ق: ٢٨]

جاء في روح المعاني: " وإنما استئنفت هذه الجملة استئناف الجمل الواقعة في حكاية المقابلة لما أتمها جواب لمخدوف دل عليه قوله تعالى: (رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ) فإنه مبني على سابقة كلام اعتذر به الكافر كأنه قال: هو أطعاني فأجاب قرينه بتكذيبه وإسناد الطغيان إليه بخلاف الجملة الأولى فإنها واجبة العطف على ما قبلها دلالة على الجمع بين مفهوميها في الحصول أعني مجيء كل نفس مع الملكين" (١)

فالآية الأولى تجمع بين معنيين مجتمعين وهو أن كل نفس يوم القيامة تجيء ومعها سائق ويقول الشهيد ذلك القول، أما الآية الأخرى جاءت جملة استئنافية واقعة في أسلوب المقابلة بين الكافر وقرينه، وهذا يقتضي الفصل " لأن الأولى تثير سؤالاً جوابه الجملة الثانية، ولذلك فهي مرتبطة بالأولى ارتباطاً وثيقاً كارتباط الجواب بالسؤال، ولذلك فصلت (٢)

وهذا النوع من الفصل في أساليب المقابلة أشار إليه عبد القاهر في باب الفصل والوصل (٣)، ومثل هذا الأسلوب كثير في محاورات القرآن الكريم، ومنه ما جاء في حوار الملائكة من قوم ثمود في سور مختلفة (وَقَالَ الْمَلَأُ) ، مرة موصولة بالواو كما في سورة المؤمنين (٤)، ومرتين بغير واو كما في سورة الأعراف (٥) وهود (٦)، ويرجع الألوسي ذلك إلى السياق وتفاوت مقام الكلام، فيقول: " وجيء بالواو بالواو العاطفة في (وَقَالَ الْمَلَأُ) هنا، ولم يجيء بها بل جيء بالجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً في موضع آخر لأن ما نحن فيه حكاية لتفاوت ما بين المقالتين أعني مقالة المرسل ومقالة المرسل إليهم لا حكاية المقابلة لأن المرسل إليهم قالوا ما قالوا بعضهم لبعض وظاهر إباء ذلك الاستئناف وأما هنالك فيحق

(١) روح المعاني (١٣/ ٣٣٦)

(٢) ينظر: أسلوبية الحوار في القرآن الكريم، رسول حمود حسن حبيب الدوري، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب . جامعة بغداد، ١٩٩٥. ص ١٤-١٤٣

(٣) ينظر دلائل الإعجاز ص ٢٤٠.

(٤) المؤمنون ٣٣

(٥) الأعراف ٦٦

(٦) هود ٥٣

الاستئناف لأنه في حكاية المقابلة بين المرسل والمرسل إليهم واستدعاء مقام المخاطبة" (١)
يفهم من كلامه أن ما طرح فيه الواو جاء في أسلوب المقابلة، فيكون كلاماً مستأنفاً، وأما ما
ورد فيه الواو فعطف لما قاله على ما قاله أي: قول المرسل والمرسل إليهم.

وقد تكرر نداء القوم في سورة غافر، مرة بالفصل وأخرى بالوصل، جاء في محكم التنزيل: ﴿ وَقَالَ
الَّذِي ءَامَنَ يَلْقَوْمَ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَلْقَوْمَ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ
صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾
* وَيَلْقَوْمَ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ ﴿٢﴾

ويفرق الألوسي بين الموضوعين: " وترك العطف في النداء الثاني وهو يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا
إلخ لأنه تفسير لما أجمل في النداء قبله من الهداية إلى سبيل الرشاد فإنها التحذير من الإخلاق إلى
الدنيا والترغيب في إثارة الآخرة على الأولى وقد أدى ذلك فيه على أتم وجه وأحسنه ولم يترك في هذا
النداء لأنه ليس بتلك المثابة وذلك لأنه للموازنة بين الدعوتين دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة
ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وليس ذلك من تفسير الهداية في شيء بل ذلك لتحقيق
أنه هادوا أنهم مضلون وأن ما عليه هو الهدى وما هم عليه هو الضلال فهو عطف على النداء الأول
أو المجموع" (٣)

-فالفصل في النداء الثاني جاء لتفسير ما سبق وهو تفصيل بعد إجمال
-والوصل في النداء الثالث للموازنة بين الدعوتين دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة ودعوتهم
إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، أو " للتحطى من غرض إلى غرض وأنه سيطرق ما يغير أول
كلامه مغايرة ما تشبه مغايرة المتعاطفين في لغة العرب، وأنه سيرتقي باستدراجهم في درج الاستدلال

(١) روح المعاني (٩ / ٢٣١)

(٢) غافر: ٣٨ - ٤١

(٣) روح المعاني (١٢ / ٣٢٤)

إلى المقصود بعد المقدمات" (١)

ويتكرر قوله تعالى: (يسألونك) في سورة البقرة في ستة مواضع (٢)، ثلاثة منها بالواو، وثلاثة بغير واو، فما جاء بالواو دل على أن هذه الأسئلة وقعت في وقت واحد، فلذلك اقتضت العطف،

كما في قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾

﴿ويسألونك عن المحيض﴾

كفوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾

وما جاء بغير واو دل على حصولها في أوقات متفرقة.

وقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾

وقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾

وقوله تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾

جاء في تفسيره: "ولعل حكاية هذه الأسئلة الثلاثة بالعطف لوقوع الكل في وقت واحد عرفي، وهو وقت السؤال عن الخمر والميسر فكأنه قيل: يجمعون لك بين السؤال عنهما والسؤال عن كذا وكذا وحكاية ما عداها بغير عطف لكونها كانت في أوقات متفرقة فكان كل واحد سؤالاً مبتدأ ولم يقصد الجمع بينهما بل الإخبار عن كل واحد على حدة، فلهذا لم يورد الواو بينهما" (٣)

وقد نبه السيوطي على هذا الوجه ونسبه إلى الكرمانى فقال: "لأن سؤالهم عن الحوادث الأولى

وقع متفرقا وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد فجاء بحرف الجمع دلالة على ذلك" (٤)

ويأتي بعض متشابه القرآن (٥) مفصلاً تارة، وموصولاً تارة أخرى، وذلك حسب السياق الذي

يقتضيه.

(١) ينظر التحرير والتنوير (٢٤ / ١٥٢)

(٢) البقرة: ٢١٥ / ٢١٧ / ٢١٩ / ٢١٩ / ٢٢٠ / ٢٢٢.

(٣) روح المعاني (١ / ٥١٤)

(٤) الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، (٣ / ٣٨٨)

(٥) والقصد به إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة بل تأتي في موضع واحد مقدما وفي آخر مؤخرا كقوله في البقرة:

{وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة} وفي الأعراف: {وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا} وفي البقرة: {وما أهل به لغير الله}

وسائر القرآن {وما أهل لغير الله به}، ينظر: الإتيان في علوم القرآن (٣ / ٣٩٠)

نحو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ يُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾^(١)

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ وَيُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾^(٢)

جاء في روح المعاني: "وحاصل ذلك أنه حيث طرح الواو قصد تفسير العذاب وبيانه فلم يعطف لما بينهما من كمال الاتصال وحيث عطف لم يقصد ذلك، والعذاب إن كان المراد به الجنس فالتذبيح لكونه أشد أنواعه عطف عليه عطف جبريل على الملائكة عليهم السلام تنبيها على أنه لشدته كأنه ليس من ذلك الجنس، وإن كان المراد به غيره كالأستعباد فهما متغايران والمحل محل العطف، وقد جوز أهل المعاني أن يكونا بمعنى في الجميع وذكر الثاني للتفسير، وترك العطف في السورتين ظاهر والعطف هنا لعد التفسير لكونه أوفى المراد وأظهر منزلة المغاير وهو وجه حسن أيضا"^(٣)

فالألوسي يرى أن الفصل جاء في الآية الأولى للتفسير والبيان، أما الوصل في الآية الثانية فهو من باب عطف الخاص على العام.

ويرى الباحث أن الشيخ الشعراوي كان أكثر تفصيلا وتوضيحا لمزية الفصل والوصل في هذه الآيات فيقول: "إن الكلام لم يصدر في الآيات عن مصدر واحد، بل صدر عن مصدرين. ففي آية سورة البقرة كان المصدر المتكلم هو الله سبحانه ولذلك قال: ﴿بِحَيْثُكُمْ...﴾ [البقرة: ٤٩]. ولكن المصدر المتكلم في سورة إبراهيم هو موسى عليه السلام؛ لم يُقَلَّ أنه هو الذي أنجاهم بل يُعَدُّ النعم التي من الله بها عليهم؛ ويمتد بها عليهم. وعِلَّة ذلك أن العظيم حين يمتد على غيره لا يمتد إلا بالعظائم، أما دون العظيم فقد يمتد بما دون ذلك."^(٤)

فربط الآية بالسياق العام للسورة، والآيات السابقة، وتفاوت مصدر المتكلم هو الذي يوضح أسرار الفصل والوصل.

وهكذا يتضح لنا أن (الوصل والفصل) شكلا ظاهرة أسلوبية مميزة في الآيات القرآنية، فقد

(١) البقرة: ٤٩

(٢) إبراهيم: ٦

(٣) روح المعاني (٧/ ١٨٠)

(٤) خواطر الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٢/ ٧٤٤٤).

جاءت في غاية الجودة والحسن لتكشف عن جمالية النصوص القرآنية وإعجازها البلاغي لما حققتة من معانٍ ودلالاتٍ جديدة وفق تعبير دقيق محدد بعينه. واستطاع الألويسي بفضل سلامة ذوقه وملكته اللغوية وحسه الأدبي أن يبين مواضعه في القرآن الكريم، والاهتداء إلى مواطن الحسن في أكثره.

ثانياً- أسلوب الالتفات:

عرفه ابن منظور: (لفت) لَفَتَ وَجْهَهُ عَنِ الْقَوْمِ صَرَفَهُ وَالتَّفَتَ التَّفَاتاً وَالتَّلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْهُ وَتَلَفْتُ إِلَى الشَّيْءِ وَالتَّفَتَ إِلَيْهِ صَرَفَ وَجْهَهُ إِلَيْهِ... وَفِي الْحَدِيثِ فَكَانَتْ مِثِّي لَفْتُهُ هِيَ الْمِرَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْإِلْتِفَاتِ وَاللَّفْتُ اللَّيُّ وَلَفْتَهُ يَلْفُتُهُ لَفْتاً لَوَاهِ عَلَى غَيْرِ جِهَتِهِ وَقِيلَ اللَّيُّ هُوَ أَنْ تَرْمِي بِهِ إِلَى جَانِبِكَ وَلَفْتَهُ عَنِ الشَّيْءِ يَلْفُتُهُ لَفْتاً... اللَّفْتُ الصَّرْفُ يُقَالُ مَا لَفَتَكَ عَنْ فُلَانٍ أَي مَا صَرَفَكَ عَنْهُ؟" (١)

وجاء في مقاييس اللغة: " (لفت) | اللام والفاء والتاء كلمة واحدة تدل على اللي وصراف الشيء عن جهته المستقيمة | منه لفت الشيء لويته ولفت فلانا عن رأيه صرفته" (٢).

وفي اصطلاح البلاغيين هو: " التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: "التكلم - الخطاب - والغيبة" مع أن الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أولاً دون التحول عنها" (٣).

وهو فن بديع من فنون القول يشبهه تحريك آلات التصوير السينمائي بنقلها من مشهد إلى مشهد آخر في المختلفات والمتباعدات التي يراد عرض صور منها، ومفاجأة المشاهد بلقطات منها متباعدات، ولكنها تدخل في الإطار الكلي الذي يراد عرض طائفة من مشاهدته تدل على ما يقصد الإعلام به. (٤)

ويعرفه محمد أبو موسى: "لون من ألوان الصياغة يعين ذا الموهبة الصادقة على الإيحاء بكثير من اللطائف والأسرار، ويلفت النفس المتلقية الواعية إلى كثير من المزايا، وكلما أمعنت النظر في مواطنه من الكلام الرفيع بانث لك وجوه من الحسن تزيدك إحساساً بقدرته. (٥)

ويقول عنه ابن عاشور: نرى من أفانين الكلام الالتفات وهو نقل الكلام من أحد طرق

(١) لسان العرب، ابن منظور، (٥ / ٤٠٥١)

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، (٥ / ٢٥٨)

(٣) البلاغة العربية أسسها وفنونها، عبد الرحمن حبنكة، (١ / ٤٧٩)

(٤) نفسه، (١ / ٤٨٠)

(٥) خصائص التراكيب، محمد أبو موسى، ص ٢٤٩

التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها، وهو بمجرد معدود من الفصاحة، وسماه ابن جني شجاعة العربية لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة وكان معدودا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال. (١)

ورأى الألويسي أن أحسن الالتفات أن يكون النقل من إحدى الصيغتين إلى الأخرى في سياق واحد لمعلوم. (٢).

ويتبين من هذه التعريفات وغيرها أن الصفة العامة التي تشترك فيها هي العدول عن كلام إلى غيره، أو هو الخروج عن كلام منتظم إلى غيره، فهو ينفي الرتابة عن النص ويخرج به من نسق إلى نسق، وهذا ما دعت الدراسات الأسلوية الحديثة انحرافا، والنتيجة الطبيعية التي ترتبت على ذلك هي النظر إلى الأسلوب الأدبي باعتباره انحرافا عن الأسلوب المعياري، من حيث أنه منه متميز يحدث استجابة متميزة.

وإذا كان البلاغيون يتفقون على الفوائد الدلالية لهذا الأسلوب، إلا أنهم مختلفون حول مجالاته والأمور التي يتحقق فيها، فجمهور البلاغيين ومن بينهم الألويسي يقصره على الانتقال من إحدى الصيغ الثلاث: الحكاية والخطاب والغيبة إلى الأخرى.

أما الزمخشري ومن بعده السكاكي وابن الأثير يتوسعون فيه ويجعلونه الانتقال من أسلوب إلى أسلوب أو الخروج عن مقتضى الظاهر، فهم يدخلون في هذا الباب الانتقال من الضمير إلى الظاهر، والظاهر إلى الضمير، ومن إحدى صيغ الفعل: الماضي والمضارع إلى الأخرى وغير ذلك مما يعد من التحول الأسلوبي. (٣)

والالتفات يحقق فوائد عامة من بينها:

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (١٠٩/١)

(٢) روح المعاني (١/٧٥)

(٣) ينظر عروس الأفراح، السبكي (١/٢٧٢)

- التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطا للسامع^(١) ، وقد تعرض حازم القرطاجني لهذا الأثر العام للالتفات فقال: وهم يسأمون الاستمرار على ضمير المتكلم أو ضمير مخاطب، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة، وكذلك أيضا يتلاعب المتكلم بضميره، فتارة يجعله تاء على جهة الإخبار عن نفسه، وتارة يجعله كافا، فيجعل نفسه مخاطبا، وتارة يجعله هاء، فيقيم نفسه مقام الغائب.^(٢)

- الاقتصاد والإيجاز في التعبير، لأن دلالة الالتفات تغني عن ما يمكن فهمه ذهنا.

وأما بواعث الالتفات الخاصة فهي أكثر من أن تحصى أو توضع تحت قاعدة معينة، لأن كل قسم من أقسام الالتفات مختص بفائدة أو فوائد تميزه من غيره. فالتعظيم مثلاً نجده يدور حيث وُجد الالتفات بجميع أقسامه، وكذا التهديد والتحقير وغيرها. حيث لكل موضع فائدة، وكان السياق وأقوال المفسرين والبلاغيين كفيلاً ببيان هذه البواعث.

واعتنى الألويسي بإبراز هذا الأسلوب في القرآن، وأبان الفوائد واللطائف المبتغاة من وراء هذا الأسلوب. والقارئ لتفسيره يلاحظ كثرة ترديده في هذا المبحث قوله: (وهذا من باب الالتفات)، أو قوله: (وهذا على جهة الالتفات)، وقد بين صورته الستة في تفسيره ودلالاته عند كل صورة، فجاءت على هذا النحو:

• الالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة:

وقد يأتي للمبالغة في التقييح، وقد أشار إليه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾^(٣) ، فكان الكلام في صدر الآية جارياً على أسلوب الخطاب: (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك)، وبعد ذلك انتقل الكلام إلى أسلوب الحديث عن الغائب: (وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف)، "وهو التفات للمبالغة في تقييح حالهم كأنه أعرض عن خطابهم وحكى لغيرهم سوء

(١) روح المعاني (١/ ٩١)

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، مصدر سابق ص ١٣٤

(٣) يونس: ٢٢

صنيعهم" (١) ، وقد رأى ابن عاشور أن الالتفات في هذه الآية مجرد التلوين في الأسلوب فيقول: "ومن بديع الأسلوب في الآية أنها لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلى الإفضاء إلى ما يخص المشركين فقال: وجرين بهم على طريقة الالتفات، أي وجرين بكم. وهكذا أجريت الضمائر جامعة للفريقين إلى أن قال: فلما أنجاهم إذا هم ييغون في الأرض بغير الحق فإن هذا ليس من شيم المؤمنين فتمحض ضمير الغيبة هذا للمشركين، فقد أخرج من الخبر من عدا الذين ييغون في الأرض بغير الحق تعويلا على القرينة لأن الذين ييغون في الأرض بغير الحق لا يشمل المسلمين.

وهذا ضرب من الالتفات لم ينبه إليه أهل المعاني وهو كالتخصيص بطريق الرمز." (٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِ ﴾ (٣) وأصل الكلام (وتقطعتم أمركم بينكم) على الخطاب فالتفت إلى الغيبة "لينعي عليهم ما فعلوا من الفرق في الدين وجعله قطعاً موزعة وينهى ذلك إلى الآخرين كأنه قيل ألا ترون إلى عظم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام وفي ذلك ذم للاختلاف في الأصول" (٤).

وقد عملت بنية الانزياح في تحركها من صيغة الخطاب إلى صيغة الغياب على المستوى الصياغي، ومن حالة الوحدة والاستقامة إلى حالة الفرقة والانحراف على المستوى المعنوي على زيادة وعي المتلقي بمراحل التغيير التي مرت بها الأمة الإسلامية، وهو تغيير اتسم بالمفارقة التامة في بعض المراحل وعمق هذا الانزياح إحساس المتلقي بهذه الثنائية الضدية، لأن مقتضى الظاهر يستلزم مستوى صياغيا واحدا وهو: (خطاب === خطاب)، وحالة معنوية واحدة وهي: (وحدة===وحدة) (٥).

(١) روح المعاني (٦ / ٩١)

(٢) التحرير والتنوير (١١ / ١٣٥)

(٣) الأنبياء: ٩٢، ٩٣

(٤) روح المعاني (٩ / ٨٦)

(٥) ينظر: تحولات النبوة في البلاغة العربية. أسامة البحيري. ص ٣١٢

وقد حاول الرازي أن يستخلص لهذا اللون من الانزياح ومقابله أي: من الغيبة إلى الخطاب قاعدة عامة حول هذه الصورة من الالتفات فقرر " أن الانتقال في الكلام من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور فإنه يدل على مزيد التقرب والإكرام وأما ضده وهو الانتقال من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة يدل على المقت والتباعد"^(١).

وليس الأمر كما ذكر الرازي، لأن دلالة العدول عن الخطاب إلى الغيبة كغيره من صور العدول، تختلف باختلاف السياق والمقام، ولا تقتصر فقط على ما حاول الرازي تقريره، بل أن الموضع الواحد قد تتنوع أغراضه وتتعدد مقاصده باختلاف نظر المتلقي إليه، فكما أن الانزياح عن الخطاب إلى الغيبة قد يدل في سياقات معينة على المقت والتباعد كما في الآيتين السابقتين فإنه قد يدل في سياقات أخرى على دلالات جديدة يوحي إليها السياق، ومن ذلك التشريف والتعظيم، أين جوزة الألوسي في قوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ مِنْ زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾^(٢) فيقول: "والالتفات عن الخطاب حيث قيل: فأولئك دون فأنتم للتعظيم كأنه سبحانه خاطب بذلك الملائكة عليهم السلام وخواص الخلق تشريفاً لحالهم، ويجوز أن يكون التعبير بما ذكر للتعميم بأن يقصد بأولئك هؤلاء وغيرهم"^(٣).

• الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

ومن أكثر الشواهد القرآنية التي يستشهد بها البلاغيون في هذا القسم سورة الفاتحة، وفي قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾^(٤) فحول الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله: إياك. وقد استعرض الألوسي آراء بعض العلماء حول السر في هذا الالتفات، ثم أردف بقوله: "ويحتمل أن يكون السر أن الكلام من أول السورة إلى هنا ثناء والثناء في الغيبة أولى ومن هنا إلى الآخر دعاء وهو في الحضور

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، (١٧ / ٥٦)

(٢) الروم: ٣٩

(٣) روح المعاني (١١ / ٤٦)

(٤) الفاتحة: ٢ - ٥

أولى" (١).

يفهم من كلام الألوسي أن الآيات الأولى من السورة كانت تحمل معنى الثناء الذي يتناسب مع الغيبة، أما الآيات التي بعدها تحمل معنى الدعاء فيتناسب معه الخطاب. ولهذا عدل عن الأسلوب الأول.

ولعل هذه الدلالة استوحاها من كلام ابن الأثير الذي كان أكثر توضيحا للمعنى، فيقول: " فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب لأن الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبد، فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال: الحمد لله ولم يقل «الحمد لك» ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: إياك نعبد فخاطب بالعبادة إصرًا بها وتقربًا منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها" (٢).

ويأتي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتشجيع والتقبيح نحو قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ

وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۗ ﴾ (٣)

جاء في تفسيره: " ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۗ ﴾ رد لمقاتلهم الباطلة وتحويل أمرها بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدّة الغضب المفصح عن غاية التشجيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة" (٤).

والخطاب في لقد جئتم للذين قالوا اتخذ الرحمان ولدا، فهو التفات لقصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة لمقاتلهم الباطلة.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ۗ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ

(١) روح المعاني (١/ ٩٢)

(٢) المثل السائر (٢/ ٥)

(٣) مریم: ٨٨، ٨٩

(٤) روح المعاني (٨/ ٤٥٤)

أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنَّكُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ (١) قال الألوسي: "والخطاب للمشركين بطريق الالتفات بدلالة ما بعد، وفيه إيذان بمزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيث، أي وإن تدعوا الأصنام أيها المشركون إلى أن يرشدوكم إلى ما تحصلون به المطالب أو تنجون به عن المكاره لا يتبعوكم إلى مرادكم ولا يجيبوكم ولا يقدرتون على ذلك" (٢).

فمقتضى الظاهر أن يقال: (وإن يدعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم) بنفس أسلوب الكلام السابق الذي جاء عن طريق الغيبة، فيكون العدول التفتات من الغيبة إلى الخطاب توجهها إليهم بالخطاب لتوبيخهم، ولأن الخطاب أوقع في الدمغ بالحجة.

وقد يكون للتهديد كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ (٣) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد" (٤).

الشاهد في الآية هو الانتقال من الغيبة في أول هذه الآية إلى خطاب المشركين الذين أذنوا بالبراءة في قوله: {فإن تبتم فهو خير لكم} ففيه التفتات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد.

ويأتي أيضا للاهتمام والاعتناء نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٦﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ (٥)

(١) الأعراف: ١٩٢ - ١٩٤

(٢) روح المعاني (٥/ ١٣٤)

(٣) التوبة: ٣

(٤) روح المعاني (٥/ ٢٤٣)

(٥) النور: ٦٢-٦٣.

قال الألوسي: "والالتفات لإبراز مزيد الاعتناء بشأنه أي لا تقيسوا دعاءه عليه الصلاة والسلام إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في حال من الأحوال وأمر من الأمور"^(١)

ووقع الالتفات من الغيبة إلى خطاب المسلمين لإبراز مزيد الاعتناء بشأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، فالخطاب للمؤمنين الذين تحدث عنهم بقوله: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله [النور: ٦٢] وقوله: إن الذين يستأذنونك [النور: ٦٢] إلخ.

• الالتفات من التكلم إلى الخطاب:

يرى أحد الباحثين المعاصرين "أن الالتفات في هذه الصورة مما ينذر تحققه في لغة الكلام، وذلك للتوازي أو التباين التام بين موقفي الخطاب والتكلم، ففي الموقف أو السياق الواحد لا يتصور أن يكون الشخص الواحد -إلا على نحو من انحاء التجوز- متكلماً ومخاطباً، أو مرسلًا ومستقبلاً في آن واحد".^(٢)

أما الألوسي فقد أشار إلى ثلاثة مواضع لهذه الصورة منها قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣) والأصل: وإليه أرجع، فالتفت من التكلم إلى الخطاب، للمبالغة في التهديد جاء في تفسيره: "وإليه ترجعون) مبالغة في تهديدهم بتخويفهم بالرجوع إلى شديد العقاب مواجهة وصريحاً ولو قال: (وإليه أرجع) كان فيه تهديد بطريق التعريض. وعد التعبير (بإليه ترجعون) بعد التعبير (بما لي لا أعبد) من باب الالتفات كمكان التعريض بالمخاطبين في (مالي لا أعبد) إلخ"^(٤)

ويرجع الشوكاني فائدة الالتفات إلى ناحية أخرى وهي أن الرجل قد أراد الملاطفة في النصح، فيقول: "ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه وهو يريد مناصحة قومه فقال: (وما لي لا أعبد الذي فطرني) أي: أيُّ مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقتني ثم رجعت إلى خطابهم لبيان أنه ما

(١) روح المعاني (٩/٤١٤)

(٢) الالتفات في القرآن، حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م ص ١١٦

(٣) يس: ٢٢

(٤) روح المعاني، (١١/٣٩٨).

أراد نفسه بل أرادهم بكلامه فقال: (وإليه ترجعون) ولم يقل وإليه أرجع وفيه مبالغة في التهديد.^(١) فيفهم من كلام الشوكاني أن في الآية التفاتاً من التكلم إلى الخطاب لأن الأصل في التعبير أن يكون (وإليه أرجع) والغاية هي الملاحظة في النصح ثم المبالغة في التهديد.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ ﴾^(٢) ويرجع الألوسي السر في هذا الالتفات، " أن يكون في إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة إيماء إلى أن المغفرة ما يتولاها سبحانه بذاته وأن الفتح مما يتولاها جل شأنه بالوسائط."^(٣) ، فالمغفرة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى ولهذا جيء بلفظ الجلالة، أما الفتح كان من الله عن طريق الوسائط والأخذ بالأسباب.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۝ ﴾^(٤)

يقول الألوسي: "وجعل التكلم في ﴿ إِنِّي ﴾ والخطاب في ﴿ مِنْكُمْ ﴾ من باب الالتفات ، والنكتة الخاصة فيه إظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب والتعرض لبيان السبب لتأكيد الاستجابة، والإشعار بأن مدارها أعمالهم التي قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء"^(٥)

وقد تزاممت نكت الالتفات في هذه الآية ولهذا فإن قبول ظاهرة الالتفات لأكثر من توجيه، واحتمالها في الموطن الواحد لغير تفسير هو ما يغني حقول بنيتها بخصوصية الإيحاء وثرء الدلالة وهو

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، الشوكاني، دار الكلم الطيب بيروت، ط ١، ١٤١٤ هـ (٤) / (٤١٩)

(٢) الفتح: ١، ٢

(٣) روح المعاني (١٣ / ٢٤٥)

(٤) آل عمران: ١٩٥

(٥) روح المعاني (٢ / ٣٧٨)

دائماً شأنها بل شأن غيرها من الظواهر التعبيرية في البيان القرآني، وهو أحد وجوه الإعجاز في هذا الكتاب الخالد الذي بقي وسيظل ثري النبع، متجدد العطاء. (١)

ومن هذه الصور وغيرها يقع إعجاز القرآن لأن النكتة البلاغية بمفردها لا تكون معجزة ولكن مجيء النكت متزاحمة، بعضها فوق بعض، وبعضها بعد بعض، واستقرارها في حيز ضيق من الكلمات، مع الاحتراس من وقوع أي نوع من أنواع الباطل فهذا حقاً لا يستطيعه الإنسان .

• الالتفات من الخطاب إلى التكلم:

وهذا النوع من الالتفات نفى وجوده السيوطي (٢) ، أما في تفسير الألوسي فلم أجد إلا موضعاً واحداً له ، وهو عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَدَقْنَا لِلنَّاسِ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ظُرْمِهِمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَمْكُرُونَ ﴾ (٣)

قال الألوسي: " إن رسلنا" التفاتاً إذ لو أجري على قوله سبحانه: " قل الله" لقليل إن رسله فلا إشكال فيه من حيث أنه لا وجه لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم إن رسلنا إذ الضمير لله تعالى لا له عليه الصلاة والسلام. (٤)

نزل الله سبحانه وتعالى نفسه منزلة المخاطب، فالضمير في (قل) للمخاطب، وفي (رسلنا) للمتكلم، ففي هذه الآية التفات إلى التكلم في قوله: (رسلنا) وذلك بعد أسلوب الخطاب في قوله: { قل الله أسرع مكرًا } فالله عز وجل خاطب نبيه بقوله: { قل الله } أي قل لهم يا محمد وعظهم بأن الله أسرع مكرًا أي منكم فجعل مكر الله بهم أسرع من مكرهم بآيات الله.

• الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

قد يكون الالتفات من الغيبة إلى التكلم للتنبية والإيقاظ كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ

(١) ينظر: الالتفات في القرآن، حسن طبل ١٠٧

(٢) الاثقان في علوم القرآن، السيوطي (٣/ ٢٩٠)

(٣) يونس: ٢١

(٤) روح المعاني (٦/ ٩٠)

لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴿٥١﴾ ^(١) فالالتفات من الغيبة في قوله: ﴿ وَ قَالَ اللَّهُ ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴾ ولم يقل: وهو فارهبوه.

يقول الألوسي: "لأن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المتضمنة للعظمة والقدرة التامة على الانتقام" ^(٢) ولتربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب ولذلك قدم وكرر الفعل أي إن كنتم راهبين شيئاً فإياي اهربوا. ^(٣)

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ ^(٤) و ﴿ أَخْرَجْنَا ﴾ عطف على ﴿ أَنْزَلَ ﴾ والالتفات إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله ^(٥).

و ينصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم، لإزالة شبهة قد تعلق بذهن الإنسان، وللدلالة على قدرته تعالى في خلقه وإبداعه. نحو قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُدْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴾ ^(٦)

جاء في روح المعاني: "والالتفات إلى التكلم بنون العظمة لتأكيد اختصاص الفعل بحكم المقابلة بذاته تعالى والإيذان بأن إنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع ما لها من الحسن البارِع والبهاء الرائع بماء واحد أمر عظيم لا يكاد يقدر عليه إلا هو وحده عز وجل". ^(٧)

(١) النحل: ٥١

(٢) روح المعاني (٧/٤٠٣)

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود (٥/١١٩)

(٤) الأنعام: ٩٩

(٥) روح المعاني (٤/٢٢٤)

(٦) النمل، ٦٠

(٧) روح المعاني (١٠/٢١٦)

الشاهد في الآية هو : انتقال الكلام من الغيبة إلى التكلم، فنجد الضمير في (خَلَقَ) ضمير الغائب (هو) يعود على الله عَزَّ وَجَلَّ، وكذلك في (وَأَنْزَلَ) أما في (فَأَنْبَتْنَا) فقد عدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم (نحن) الدال على التعظيم، والوظيفة التي يؤديها هذا العدول هو دفع الإيهام.

لأن نِعَمَ الله فيها أشياء لا دخل للإنسان فيها كالحلُّق وإنزال المطر، ومثل هذه المسائل لا شبهة لاشتراك الإنسان فيها، وهناك أشياء للإنسان دَخَلَ فيها كالزراع والنبات، فهو الذي يحرث ويزرع ويسقي. الخ مما يُوحى بأن الإنسان هو الذي يُبْتِ النبات، فأراد سبحانه أن يُزيل هذا التوهم، فنسب الإنبات صراحة إليه عَزَّ وَجَلَّ ليزيل هذه الشبهة. (١)

وقد يأتي الالتفات لتحويل الخطاب ففي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (٢)

يقول: " والالتفات إلى نون العظمة في أهلكنا جرياً على سنن الكبرياء لتحويل الخطاب " (٣).

أو يأتي للإشعار باختلاف الأحوال في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) " فالالتفات إلى التكلم للإشعار باختلاف باختلاف حال ضرب المثل والرزق، وفي اختيار ضمير العظمة تعظيم لأمر ذلك الرزق " (٥)

• الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

نحو قوله: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ۝ ﴾ (٦) بدأت السورة

(١) ينظر: خواطر الشعراوي (١٧ / ١٠٨١٤)

(٢) الأنفال: ٥٤

(٣) روح المعاني (٥ / ٢١٧)

(٤) النحل: ٧٥

(٥) روح المعاني (٧ / ٤٣٢)

(٦) الكوثر: ١، ٢

بحديث المتكلم العظيم عن نفسه، وهذا الأسلوب يناسبه بحسب الظاهر أن يكون الكلام بعده: "فصل لنا وانحر". إلا أن الكلام جاء على خلاف مقتضى الظاهر هذا، إذ حصل الالتفات من التكلم إلى الغيبة، فقال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝ ﴾ وبين الألووسي فائدة هذا العدول بقوله: "وفي الالتفات عن ضمير العظمة إلى خصوص الرب مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تأكيد لترغيبه صلى الله عليه وسلم في أداء ما أمر به على الوجه الأكمل"^(١).

وقد ظهرت لفخر الدين الرازي عدة وظائف يقدمها الالتفات والعدول عن الأصل في هذه الآيات فيقول: "كان الأليق في الظاهر أن يقول: إن أعطيناك الكوثر، فصل لنا وانحر. لكنه ترك ذلك إلى قوله: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) لفوائد إحداها: أن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة وثانيها: أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة، ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم: يأمرك أمير المؤمنين، وينهاك أمير المؤمنين وثالثها: أن قوله: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ) ليس في صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره، وأيضاً كلمة (إنا) تحتل الجمع كما تحتل الواحد المعظم نفسه، فلو قال: صل لنا، لنفي ذلك الاحتمال وهو أنه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك، فلهذا ترك اللفظ، وقال: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحاً بالتوحيد في الطاعة والعمل لله تعالى."^(٢)

ومنه قول الله عز وجل: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾^(٣) كان مقتضى الظاهر أن يأتي التعبير لا تقنطوا من رحمتي إني أغفر الذنوب جميعاً، ولكن حصل العدول عنه إلى من رحمة الله للإشعار بأن من صفات الله الجليل العظيم أن يغفر ذنوب من ينيبون إلى ربهم ويسلمون له، "فإضافة الرحمة إلى الاسم الجليل المحتوي على جميع معاني الأسماء على طريق الالتفات فإن ذلك

(١) نفسه (١٥ / ٤٨١).

(٢) مفاتيح الغيب الرازي (١٢٣/٣٢)

(٣) الزمر: ٥٣

ظاهر في سعتها وهو ظاهر في شمولها التائب وغيره " (١).

وقد يأتي للمبالغة في إيجاب الامتثال كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمَرُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٢) ،
فانتقل من المتكلم إلى رسول الله إلى الغائب ورسوله ، ولم يقل: (فآمنوا بالله وبي)، " وإيراد نفسه الكريمة عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة على طريق الالتفات إلى الغيبة للمبالغة في إيجاب الامتثال " (٣)

أو للإشعار بعلية الحكم مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿ مَن نَّقِصْ عَلَيْكَ نَبَاهُ بِالْحَقِّ إِنهَمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهَمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى ﴾ (٤) " وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة ، وأوثر للإشعار بعلية وصف الربوبية لإيمانهم ولما صدر عنهم من المقالة حسبما سيحكي عنهم " (٥)

وجاء للتفخيم كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٦)

يقول الألوسي " والالتفات من التكلم إلى الغيبة بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل للإيدان بفخامة شأنها والإشعار على ما قيل بعدم اختصاص ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه كما يوهمه الإضافة إلى ضمير المتكلم ، وحاصل المعنى عظمهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد " (٧) ، فجاء الالتفات في

(١) روح المعاني (١٢ / ٢٦٩)

(٢) الأعراف: ١٥٨

(٣) روح المعاني (٥ / ٧٨)

(٤) الكهف: ١٣

(٥) روح المعاني (٨ / ٢٠٨)

(٦) إبراهيم: ٥

(٧) روح المعاني، (٧ / ١٧٨)

في هذه الآية لتفخيم شأن الأيام، بإضافتها إلى الله سبحانه وتعالى، كما جوز الألوسي أن يكون الغرض هنا عدم اختصاص الأيام بموسى وقومه فقط ولهذا لم يقل (بأيامهم) ليشمل التذكير بتلك الأيام الخاصة بالوقائع التي حدثت للأقوام السابقين عليهم كقوم نوح وعاد وثور، ذلك أن الحق سبحانه قد أعلمهم بقصص الأقوام السابقة عليهم؛ وما حدث من كل قوم تجاه الرسول المرسل إليه من الله.

ثالثاً- أسلوب التكرار:

التكرار أسلوب بلاغي، وخاصة لغوية، يُعرف بأنه إعادة الألفاظ والصيغ نفسها في السياق لغرض خلق معانٍ ودلالات جديدة من مثل تأكيد الوصف أو المدح أو الدم أو التهويل أو الوعيد^(١)، ويعُدُّ من أبرز الأسس الأسلوبية التي من شأنها تكثيف الدلالة في النص، إذ " يعمل على إنتاج فوائد جديدة داخل كيان العمل الفني" (٢) من خلال وظيفته المزدوجة التي تجمع بين الوظيفة الفنية والنفسية، فضلاً عن وظيفته الصوتية الناجمة من تكرار أصوات اللفظة^(٣).

وهو ظاهرة أسلوبية يرتبط بالدلالة النصية، يعمل على تجميع العناصر والوحدات الدالة في شبكة متماثلة " (٤) وبالتالي يعطينا تصوراً عن هيمنة المكرر، وقيمتها الدلالية.

وفي القرآن الكريم جاء التكرار ليخدم غرضاً أصيلاً من أغراض الدعوة وهو تثبيت القلوب على الحق، وإقامتها على الشريعة التي تحملها تلك الدعوة، فالتكرار من شأنه أن يعمق جذور الفكرة التي تحملها العبارة المكررة، ويمكن لها في كيان الإنسان، وقيم منها خاطراً مُلمماً يتردد في صدره ويهمس في ضميره^(٥)

وللتكرير مواقع يحسن فيها، ومواقع لا يحسن فيها. وقد يبين الألوسي في بدايات تفسيره الفرق بين التكرير المستحسن و المستقبح، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ

(١) ينظر الفاصلة في القرآن محمد الحسناوي، دار عمار، عمان، الاردن ط٢، ٢٠٠٠م. ص٢٥٩/وعلم الأسلوب وصلته بعلم اللغة، صلاح فضل. مجلة فصول، ١٩٨٤، العدد الأول (خاص بالأسلوبية) :ص٥٧

(٢) القصيدة العربية الحديثة بين البنية الدلالية والبنية الإيقاعية محمد صابر عبيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١ ص١٨٧

(٣) ينظر البنيات الأسلوبية في لغة الشعر الحديث، مصطفى السعدني، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٧. ص ١٧٢+

(٤) اللغة الشعرية. دراسة في شعر حميد سعيد، محمد كنوني، دار الشؤون الثقافية العامة. آفاق عربية، ١، بغداد. ١٩٩٧:١٢٣+

(٥) ينظر: إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي مصر، ط١، ١٣٨٣هـ. ١٩٦٤م. ص ٣٩٢

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿٢٨٢﴾ (١)

جاء في تفسيره: "«فان قيل» كيف كرر سبحانه الاسم الجليل في الجمل الثلاث وقد استكروها مثل قوله: فما للنوى جذ النوى قطع النوى حتى قيل: سلط الله تعالى عليه شاة تأكل نواه؟ أجيب بأن التكرير منه المستحسن ومنه المستقبح، فالمستحسن كل تكرير يقع على طريق التعظيم أو التحقير في جمل متواليات كل جملة منها مستقلة بنفسها، والمستقبح هو أن يكون التكرير في جملة واحدة أو في جمل بمعنى ولم يكن فيه التعظيم والتحقير، وما في البيت من القسم الثاني لأن - جذ النوى قطع النوى - فيه بمعنى واحد وما في الآية درة تاج القسم الأول لأن اتُّفوا لله حث على تقوى الله تعالى وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَعَدَ بِإِنْعَامِهِ سُبْحَانَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ تعظيم لشأنه عز شأنه" (٢)

حسب الألوسي أن تكرار اسم الجلالة في الجمل الثلاث: لقصد التنويه بكل جملة منها حتى تكون مستقلة الدلالة، غير محتاجة إلى غيرها المشتمل على معاد ضميرها، حتى إذا سمع السامع كل واحدة منها حصل له علم مستقل، وقد لا يسمع إحداها فلا يضره ذلك في فهم أحرها.

ولغرض التهويل نجد تكرار كلمة الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٨٣﴾ (٣) والإظهار في موضع الإضمار لتهويل ما قدموا عليه (٤)

ولا يقتصر التكرير على التعظيم والتحقير بل تختلف دلالاته باختلاف مقاماته، ومن بين الوظائف التي يقدمها نجد التأكيد يقول الزركشي: "واعلم أن التكرير أبلغ من التأكيد لأنه وقع في تكرار التأسيس وهو أبلغ من التأكيد فإن التأكيد يقرر إرادة معنى الأول وعدم التجوز" (٥) وما جاء

(١) البقرة: ٢٨٢.

(٢) روح المعاني. (٢/ ٦٠).

(٣) آل عمران: ٧٨.

(٤) ينظر: روح المعاني (٢/ ١٩٧).

(٥) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١١).

لإفادة التأكيد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيِّهِ يَتَأْتِ بِإِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ٤ ﴾ ^(١) بتكرير الفعل (رأيت)، يقول الألوسي: " (رَأَيْتُهُمْ) تأكيد لما تقدم تطرية للعهد " ^(٢)

وللتأكيد أيضا نجد تكرار كلمة الميزان في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩ ﴾ ^(٣)

وكرر لفظ (الميزان) بدون إضماره كما هو مقتضى الظاهر " تشديداً للتوصية وتأكيداً للأمر باستعماله والحث عليه، بل في الجمل الثلاث تكرار ما معنى لذلك " ^(٤)

والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات كل مرة بمعنى آخر، فالأول هو الآلة { وَوَضَعَ الْمِيزَانَ } [الرحمن : ٧] ، والثاني بمعنى المصدر { أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ } [الرحمن : ٨] أي الوزن ، والثالث للمفعول : { وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } أي الموزون ، وذكر الكل بلفظ الميزان ^(٥)

ويأتي للتفصيل لاختلاف المقام نحو قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ ﴾ ^(٦) يقول الألوسي: "وعندي أن التكرار للإشعار أن حيثية تعلق العبادة به تعالى غير حيثية تعلق طلب الاستعانة منه سبحانه ولو قال إياك نعبد ونستعين لتوهم أن حيثية واحدة والشأن ليس كذلك إذ لا بد في طلب الإعانة من توسط صفة ولا كذلك في العبادة فلاختلاف التعلق أعاد المفعول ليشير بها إليه." ^(٧)

الشاهد في الآية: تكرير الضمير المنصوب (إياك) للفصل بين العبادة والاستعانة، ولهذا لم يقل: إياك نعبد ونستعين.

^(١) يوسف: ٤.

(٢) روح المعاني . (٦ / ٣٧١)

(٣) الرحمن: ٧-٩.

(٤) روح المعاني . (١٤ / ١٠٢).

(٥) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٩ / ٣٤٣).

(٦) الفاتحة: ٥.

(٧) روح المعاني . (١ / ٩٣)

أو الاختصاص: كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ**

الْمُقَدِّحُونَ ﴿٥﴾ (١)

يقول الألوسي: "وفي تكرار اسم الإشارة إشارة إلى أن هؤلاء المتصفين بتلك الصفات يستحقون بذلك الاستقلال بالتمكن في الهدى والاستبداد بالفلاح والاختصاص بكل منهما ولولاه لربما فهم اختصاصهم بالمجموع فيوهم تحقق كل واحد منهما بالانفراد فيمن عداهم" (٢)

الشاهد هو: تكرير اسم الإشارة (أولئك) ويفيد التكرير إظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم وللتنبية على أن اتصافهم بتلك الصفات لاستحقاقهم واختصاصهم بالتمكن في الهدى والاستبداد بالفلاح.

ومن الآيات التي رأى الألوسي أنها أفادت الاختصاص، تكرار كلمة -الناس- في قوله تعالى: ﴿

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ (٣)

جاء في تفسيره "وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم ، وذلك من إيقاعه على صريح اسمهم الظاهر الموضوع موضع الضمير الدال على أنه من شأنهم وخاصتهم في الغالب" (٤)

وجاء للتويخ و التفصيل في نداء أهل الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ**

تَكْفُرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِن ءَامَنَ تَبَعُونَهَا عَوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴿١٩﴾ (٥)

ورد في تفسيره: "والتعبير عنهم بهذا العنوان لما تقدم وإعادة الخطاب والاستفهام مبالغة في التقرير

(١) البقرة: ٥.

(٢) روح المعاني . (١ / ١٢٧)

(٣) غافر: ٦١.

(٤) روح المعاني . (١٢ / ٣٣٥)

(٥) آل عمران: ٩٨-٩٩.

والتوبيخ لهم على قبائحهم وتفصيلها ولو قيل : لم تكفرون بآيات الله وتصدون عن سبيل الله؟ لربما توهم أن التوبيخ على مجموع الأمرين" (١)

وقوله: (قل يا أهل الكتاب لم تصدون) هو تكرير للمبالغة في حمله عليه السلام على تقريرهم وتوبيخهم وترك عطفه على الأمر السابق للتفصيل وللدلالة على استقلاله بالقصد.

ويأتي التكرار للاعتناء بالدليل وتلقي الإقرار كما في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ وَالْمَلَكُوتُ وَالْعِلْمُ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢)

قال الألوسي: (لا إله إلا هو) تكرير للمشهود به للتأكيد ، وفيه إشارة إلى مزيد الاعتناء بمعرفة أدلته لأن تثبيت المدعى إنما يكون بالدليل ، والاعتناء به يقتضي الاعتناء بأدلته ولينبني عليه قوله تعالى : (العزيز الحكيم) فيعلم أنه المنعوت بهما، ويفهم من هذا التكرار أيضا أن الغرض هو حث العباد على تكريرها لأنها من أعظم العبادات" (٣)

جاء في الآية تكرير لقوله: { لا إله إلا هو } لقصد تأكيد الجملة السابقة، ولمزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد التي وردت في هذه الآية أي: شهادة الذات للذات، وشهادة المشهد من الملائكة، وشهادة الاستدلال من العلماء، ولقصد تلقي الإقرار له بذلك، وفيه أيضا تمهيد لوصفه تعالى بالعزيز الحكيم. (٤)

ويأتي التكرار للتحويل والتفطيع كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ

يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِنُونَ

يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٥﴾ " أعيد لتحويله وتفطيع ما يقع فيه " (٦)

(١) روح المعاني . (٢ / ٢٣٢)

(٢) آل عمران: ١٨ .

(٣) مفاتيح الغيب . فخر الدين الرازي (٧ / ١٨٠)

(٤) ينظر خواطر الشعراوي (٣ / ١٣٤٨).

(٥) الروم: ١٢-١٤ .

(٦) روح المعاني . (١١ / ٢٧).

وجاء التكرار للتشنيع والتفطيع في قوله تعالى: ﴿ قِيمًا لِنُذِرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٤﴾ مَّا كُنَّا فِيهِ أَبَدًا ﴿٥﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٦﴾ ﴾ (١)

ورد في تفسيره: " هذا إنذار جاء متعلق بفرقة خاصة ممن عمه الإنذار السابق من مستحقي البأس الشديد للإيذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم كما ينبىء عنه ما بعد أن وينذر من بين هؤلاء الكفرة المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم العرب القائلون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزيز ابن الله سبحانه والنصارى القائلون المسيح ابن الله عز وجل " (٢)

الشاهد: تكرير (لينذر)، فتكرر الإنذار في هذه الآيات حيث وجه الإنذار في الأول لعموم الناس، أما الثاني فهو لفئة خاصة، ولقصد التشنيع والتفطيع.

ويرد للاعتناء بشأن الحكم يقول في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴿١٤١﴾ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٢﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (٣) " وفائدة هذا التكرار الاعتناء بشأن الحكم لأنه من مظان الطعن وكثرة المخالفين فيه " (٤) ولأن هذا الأمر مما يدخل التساؤل و الريب في بعض النفوس الضعيفة جاء التكرار، لمزيد من الاطمئنان والتقرير وهذا موطن من مواطن التكرير وغرض من أغراضه (٥)

ويكون التكرار للدلالة على الاستيعاب: نحو قوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿١١﴾ ﴾ (٦) " وتكريره للدلالة على الاستيعاب فليس الثاني تأكيد للأول بل ذلك نظير الحال في نحو قولك :

(١) الكهف: ٢-٤ .

(٢) روح المعاني . (٨ / ١٩٤)

(٣) البقرة: ١٤٩-١٥٠ .

(٤) روح المعاني . (١ / ٤١٥)

(٥) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، دار الفكر العربي، القاهرة، دت، ص ٣٧٥

(٦) الفجر: ٢١ .

: جاؤوا رجلا رجلا ، وعلمته الحساب بابا بابا أي إذا دكت الأرض دكا متتابعا حتى انكسر وذهب كل ما على وجهها من جبال وأبنية وقصور وغيرها حين زلزلت المرة بعد المرة وصارت هباءً منثورا. (١)

التكرار في قوله : { دَكَّا دَكَّا } معناه دكا بعد دك أي كرر عليها الدك حتى صارت هباءً منثوراً ، وهذه الطريقة في الكلام مستعملة في كلام العرب، ليتستوعب المتلقي تفصيل جنسه باعتبار المعنى الذي دل عليه لفظ المكرر، فإذا قلت: بينت له الكتاب بابا بابا فمعناه بينته له مفصلاً باعتبار أبوابه ، وهذا الوجه أوفى بحق البلاغة فإنه معنى زائد على التوكيد والتوكيد حاصل بالمصدر الأول. (٢)

ويكون تكرار الحرف لطول الفصل: نحو قوله تعالى: ﴿ **أَبْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمُ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ** ﴾ (٣) فتكرار الأداة (إِنَّ) في الآية، يوهم أن ثمة تكراراً في الآية لا مسوغ له، والتدقيق والتحقيق يدفع إلى القول بخلاف ذلك؛ وبيانه كما قال الألويسي: (إِنَّكُمْ) تأكيد لأنكم الأول لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى: (مُخْرَجُونَ) (٤)

حين طال الفصل بين الأداة (إِنَّ) وخبرها، حَسُنَ تكرار الأداة (إِنَّ) مرة أخرى، فاقترضت البلاغة إعادتها لِتُلْحِظَ النسبة بين ركني الجملة (الاسم والخبر) وتمثل أهمية التكرار فيما أضافه من تأكيد لأنكم الأولى.

وتكرر الاسم الموصول (الذين) في سورة المعارج لتنزيل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات وللايدان باستقلال الصفات ففي قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ** ﴾ (٥) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ (٥) وفي قوله تعالى في السورة: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴾ (٦) يقول علامة

(١) روح المعاني . (١٥ / ٣٤٢)

(٢) ينظر: التحرير والتنوير

(٣) المؤمنون: ٣٥.

(٤) روح المعاني . (٩ / ٢٣٢).

(٥) المعارج: ٢٣-٢٤.

بغداد: "وتكرير الموصولات لتنزيل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات إيداناً بأن كل واحد من الأوصاف المذكورة نعت جليل على حياله له شأن خطير مستتبع لأحكام جملة حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شيء منها تنمة للآخر".^(٢)

ومما جاء من هذا القبيل ما ورد في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾^(٣) جاء في تفسيره: " والتكرار للإيدان بأن كل واحدة من تلك الصلوات نعت جليل له تعالى مستقل في استجاب الحكم حقيق بأن تجري عليه عز وجل بجيهاها ولا تجعل من روادف غيرها"^(٤)

وتكرر الاسم الموصول للاحتراز وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾﴾^(٥)

وتكرير الموصول للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول غير المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه."^(٦)

وهذه دلالة جديدة للتكرار لم يشر إليها علماء المعاني، فلو جاء الاسم الموصول دون تكرير لتوهم أن الجملة الثانية حالية، فيكون المعنى عدم دخول غير المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه.

١ - التكرار في الفاصلة القرآنية:

ورد في بعض السور القرآنية تكرار لبعض الفواصل، نحو ما جاء في سورة القمر وسورة الرحمن، وأدلى الألووسي بدلوه في تبين أسرار التكرار في هذه المواضع.

(١) المعارج: ٣٤.

(٢) روح المعاني. (٧٢ / ١٥).

(٣) الشعراء: ٧٨-٨١.

(٤) روح المعاني. (٩٥ / ١٠).

(٥) النحل: ١٠٠.

(٦) روح المعاني. (٤٦٦ / ٧).

* التكرار في سورة القمر:

تكرر في سورة القمر قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ (١) ثلاث مرات ، ولكل تكرار معناه الخاص المفهوم من سياق الكلام السابق، فيفيد معنى ودلالة جديدة. ولهذا التكرار في المواضع الثلاثة أسباب ومقتضيات، ففي سورة القمر نجد العبارة المكررة وهي: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي) قد صاحبت في كل موضع من مواضع تكرارها قصة عجيبة الشأن، وكان أول موضع ذكرت فيه عقب قصة قوم نوح. وبعد أن صوّر القرآن مظاهر الصراع بينهم وبين نوح عليه السلام ثم انتصار الله لنوح عليهم، حيث سلط عليهم الطوفان فأغرقهم إلا من آمن وعصمه الله، ونجد أن الله نجّى نوحاً وتابعيه، ولكن تبقى هذه القصة موضع عظة وادكار، فجاء قوله تعالى عقبها: " (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي) استفهام تعظيم وتعجيب أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف " (٢)

والموضع الثاني لذكرها حين قصّ علينا القرآن قصة عاد وعثوها عن أمر ربها، وفي قوم عاد هذه نجد العبارة اكتنفت القصة بدءاً ونهاية، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ (٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١١﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿١٢﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ (٣)

وتكرار العبارة - هكذا - في البداية والنهاية مخرج لها مخرج الاهتمام مع ملاحظة أن أحداث القصة هنا صوّرت في عبارات قصيرة ولكنها محكمة و وافية. فجاءت هذه المرة لتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى ما يلقي إليهم قبل ذكره لا لتحويله وتعظيمه وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله وما بعده كأنه قيل : (كَذَّبَتْ عَادٌ) فهل سمعتم ، أو فاسمعوا كيف عذابي وإنذاري لهم " (٤)

أما الموضع الأخير الذي ذكرت فيه هذه الجملة القرآنية: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي) حين قصّ

(١) القمر: ٢١.

(٢) روح المعاني . (١٤ / ٨٣)

(٣) القمر: ١٨-٢١.

(٤) ينظر: روح المعاني . (١٤ / ٨٤)

الله علينا قصة (ثمود) ، فكانت تهويل لهما وتعجيب من أمرهما بعد بياهما" (١).

ومن هنا ندرك شدة اقتضاء المقام لهذا التكرار، فليست إحدى العبارات في موضع بمغنية عن أختها في الموضع الآخر، إنما هو ترابط بياني تطلبه المقام، بالإضافة إلى الجمالية الصوتية التي وافقت الجو العام للسورة، "فقد مهّد القرآن لهذا التكرار حيث لم يأت إلا بعد خمس عشرة آية تنتهي كلها بفاصلة واحدة تتحد نهاياتها بحرف الراء مع التزام تحريك ما قبلها. وذلك هو نهج فواصل السورة كلها، وقد أشاع هذا النسق الشاجي نوعاً من الموسيقى الصاخبة العنيفة التي تتلاءم مع جو الإنذار أيما تناسب." (٢)

* التكرار في سورة الرحمن:

أما التكرار الوارد في سورة الرحمن وفي قوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) حيث أعيدت هذه الآية فيها إحدى وثلاثين مرة، وهو تكرر له دلالة في كل موضع.

ويمكن أن نسجل من خلال تفسير الألوسي هذه الملاحظات (٣) :

أولاً : أن هذا التكرار الوارد في سورة " الرحمن " هو أكثر صور التكرار الوارد في القرآن على الإطلاق.

ثانياً: مثل هذا النوع من التكرار موجود في الشعر العربي كقول المهلهل:

على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ما ضيم جيران المجير

على أن ليس عدلا من كليب ... إذا رجف العضاه من الدبور

على أن ليس عدلا من كليب ... إذا خرجت مخبأة الخدور

على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ما أعلنت نجوى الأمور

على أن ليس عدلا من كليب ... إذا خيف المخوف من الثغور

(١) ينظر: روح المعاني . (١٤ / ٨٦)

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١ / ٣٢٨)

(٣) ينظر: روح المعاني - (١٤ / ٩٧)

على أن ليس عدلا من كليب ... غداة تأثل الأمر الكبير

على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ما خار جأش المستجير

ثالثا: حسن هذا التكرير للتقرير بالنعمة المختلفة المعدة، فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها وبخ على التكذيب بها كما يقول الرجل لغيره ألم أحسن إليك بأن حولتك في الأموال؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا؟ فيحسن فيه التكرير لاختلاف ما يقرر به.

رابعا: قد يقال إن هذه الفاصلة قد تكررت بعد ما هو ليس بنعمة من وعيد وتهديد نحو قوله

تعالى:

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾^(١)

﴿ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ ﴾^(٢)

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَإِن فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٤﴾ ﴾^(٣)

وظاهر هذه الآيات بلاء وانتقام وليس بنعم؟ ويجب الألوسي بقوله: " فإن التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار من عداد الآلاء " (٤)

ومن هذا الاعتبار يتبين أن هذه المواضع مندرجة تحت النعم، لأن النعمة نوعان: إيصال الخير. ثم دفع الشر الذي يفهم من الإنذار والوعيد وبيان مآل الكافرين، والسورة اشتملت على كلا النوعين، فلذلك كررت الفاصلة.

٢- تكرار القصص القرآني:

امتن الله على رسوله (صلى الله عليه وسلم) بقوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا

(١) الرحمن: ٣٥-٣٦.

(٢) الرحمن: ٤١-٤٢.

(٣) الرحمن: ٤٣-٤٤.

(٤) روح المعاني. (١٤/١١٢)

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴿١﴾ فيعلم من قوله (أحسن)، أن القصص القرآنية لم تسق مساق الإمتاع وتجديد النشاط وما يحصل من العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من تلك الحوادث من خير أو شر ؛ لأن غرض القرآن أسمى وأعلى من هذا ، ولو كان من هذا لتساوى كثيرا مع قصص الأخبار الحسنة الصادقة فما كان جديرا بالترفضيل على كل جنس القصص .

والتكرار في القصص القرآني ظاهرة واضحة، ملفتة للنظر، أخذت حيزا كبيرا في القرآن الكريم، وله أسلوب خاص ومميز، فهو "يكرر ذكر قصصه وينوع في ذلك التكرار، ويفرق لقطات ومشاهد القصة ويوزعها على سوره وآياتها ، وهو في كل موضع يذكر اللقطة أو المشهد الذي يتناسق مع السياق الذي ورد فيه، ويتوافق ذلك الجزء المعروض من القصة مع ما قبله وما بعده، والقرآن يضيف جديدا في كل موضع من مواضع ذكر القصة، تتمثل هذه الاضافة في معلومة جديدة، أو فكرة جديدة أو تأكيد لما سبق عرضه، وهو ليس مجرد تكرار خال من الإضافة والحكمة." (٢)

ويقدر الألوسي أن أي تكرار للقصص القرآني في مختلف السور يكون ذا فائدة تختلف من موضع لآخر، وبأنها لا ترد في القرآن بتمامها دفعة واحدة، بل تقتصر على الجزء الذي يناسب الغرض الذي سيقت لأجله القصة، بالإضافة إلى أنها لا تجري على نمط واحد فهناك اختلاف في الصياغة، واختلاف في الطول والقصر واختلاف في الأحداث التي تتناولها، وطريقة عرض تلك الأحداث.

جاء في تفسيره عند ذكره لقصة آدم: "وأياً ما كان فلا يعد ذكر هذه القصة هنا مع ذكرها من قبل تكراراً لأن ذكرها هنا لفائدة غير الفائدة التي ذكرت لها فيما قبل وهكذا ذكرها في كل موضع ذكرت فيه من الكتاب الجليل . ومثل هذا يقال في كل ما هو تكرار بحسب الظاهر فيه. ولا يخفى أن أكثر المكررات ظاهراً مختلفة الأساليب متفاوتة الألفاظ والعبارات وفي ذلك من الأسرار الإلهية ما فيه" (٣)

(١) يوسف: ٣.

(٢) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، صلاح عبد الفتاح، دار عمار، عمان، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٣١٤

(٣) روح المعاني . (٨ / ٢٧٨).

ولنتبين منهجه ورأيه في تكرار القصص القرآني، نأخذ مثالا عن ذلك في قصة نوح عليه السلام في مختلف السور القرآنية:

* دراسة تحليلية لقصة نوح:

من بين القصص التي تكررت في القرآن الكريم قصة نوح عليه السلام، حيث جاءت في عدة سور من بينها:

* سورة يونس (٧١-٧٣):

فهذه السورة صورت لنا مشهدا جديدا لم يرد في السور الأخرى وتسلط هذه الآيات الضوء على الأبعاد النفسية وثقة سيدنا نوح بحالقه وحافظه ويتمثل هذا بتحديه لهم بأنهم لن يستطيعوا أن يؤدوه.

ومناسبة ذكر هذه القصة في هذا الموضوع هو أنها تتحدث عن تعنت وعناد الكفار. ومن أسباب ذلك انزعاجهم من كون الله أرسل رجلاً منهم، فتقاربت الأحداث وتشابهت بين الرسول ونوح عليهم السلام، وفيه تقرير لانتفاء الخوف والحزن على الرسول عليه الصلاة والسلام وتسليية له.

جاء في تفسير الألوسي: (وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ) أي على المشركين من أهل مكة وغيرهم لتحقيق ما سبق من عدم إفلاح المفترين وكون ما يتمتعون به على جناح الفوات وأنهم مشرفون على الشقاء المؤبد والعذاب الشديد (نَبَأُ نُوحٍ) أي خبره الذي له شأن وخطر مع قومه الذين هم أضراب قومك في الكفر والعناد ليتدبروا ما فيه مما فيه مزدجر فلعلهم ينزجرون عما هم عليه أو تنكسر شدة شكيمتهم ولعل بعض من يسمع ذلك منك ممن أنكروا صحة نبوتك أن يعترف بصحتها فيؤمن بك بأن يكون قد ثبت عنده ما يوافق ما تضمنه المتلو من غير مخالفة له أصلاً فيستحضر أنك لم تسمع ذلك من أحد ولم تستفده من كتاب فلا طريق لعلمك به إلا من جهة الوحي وهو مدار النبوة .

وفي ذلك من تقرير ما سبق من كون الكل لله سبحانه، واختصاص العزة به تعالى، وانتفاء الخوف على أوليائه وحزئهم، وتشجيع النبي صلى الله عليه وسلم وحمله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم

وأفعالهم ما لا يخفى" (١)

* في سورة هود (٢٥ - ٤٨):

أما في سورة هود فهي تختلف عن السور الأخرى لكونها أكثر السور التي فصلت الحديث في شبهات قومه وردة عليهم في حوار عقلي منطقي، وكذلك حوار مع ابنه.

وجيء بهذه القصة في هذا الموضوع لأنها تتحدث عن الأهوال والشدائد وفيها بيان لمواقف الشدة والمصاعب التي كابدها سيدنا نوح فكان مثلاً على الصبر وخاصة فاجعته بابنه، كما أن الله سبحانه وتعالى شرع في ذكر قصص الأنبياء الداعين إلى الله تعالى وبيان حالهم مع أمهم ليزداد صلى الله عليه وسلم تشميراً في الدعوة وتحملاً لما يقاسيه من المعاندين (٢)

* سورة المؤمنون (٢٣ - ٣٠):

أما هذه السورة تصور لنا مشهد الحوار الذي جرى بين نوح وقومه ومخاطبتهم بعضهم بعضاً، وتبين لنا سنة المعاندين الثابتة في استهزائهم بالرسول، وأن طاعة الأتباع العمياء للمستكبرين ستهديهم إلى سواء الجحيم.

و عن مضمون هذه السورة فهي تتحدث عن صفات المؤمنين، وتعلل دوافع كثير من الناس في عدم الإيمان وأهمها وجود سادة القوم الذين يمنعون الناس عن الحق بلسانهم ومالهم وقوتهم، ثم عرضت السورة الكريمة لدلائل القدرة والوحدانية مصورة هذا الكون العجيب في الإنسان والحيوان والنبات ثم في خلق السماوات البديعة وفي الآيات الكونية، ثم عرضت لقصة نوح فناسب ما قبلها وحسن موقعها، وفي ذكر هذه القصة " شروع في بيان إهمال الناس وتركهم النظر والاعتبار فيما عدد سبحانه من النعم وما حاقهم من زوالها وفي ذلك تخويف لقريش .

وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص مما لا يخفى وجهه، وفي إيرادها إثر قوله تعالى : (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تُحْمَلُونَ) [المؤمنون : ٢٢] من حسن الموقع ما لا يوصف، وتصديرها

(١) روح المعاني . (٦ / ١٤٨).

(٢) ينظر: روح المعاني . (٦ / ٢٣٥).

بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها" (١)

هكذا يتضح أن ما تكرر من قصص القرآن الكريم لم يكن إلا لفائدة تتناسب مع سياق الآيات المذكورة فيه، وكانت القصة في مكانها الطبيعي في سياق الآيات دون تكلف، بل وحملت كل قصة جديداً وإضافة في كل موضع ذكرت فيه.

(١) روح المعاني . (٩ / ٢٢٧) .

رابعاً- ترتيب الجمل وتربطها:

وهذا المبحث هو ما اطلق عليه مصطلح علم المناسبات أو علم التناسب في التراث العربي وهو " لون من البحث جدير بالاهتمام والتوضيح، وهو في صميمه نظر في المعاني وتتابعها وكيف يمهّد سابقها للاحقها، وهو أيضا غير واضح في الدراسة البلاغية وان كان متصلا بصميمها" (١) وقد عدّ الرافعي هذا العلم من صور إعجاز القرآن، فقال: "من أعجب ما اتفق في هذا القرآن من وجوه إعجازه أن معانيه ترى في مناسبة الوضع وإحكام النظم مجرى ألفاظه على ما بيناه من أمرها، ولا يعدّ المفكر وجها صحيحا من القول ربط كل كلمة بأختها، وكل آية بضريبتها، وكل سورة بما إليها وهو علم عجيب أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره، وقد قال فيه إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط" (٢).

وانتبه الباقلاني إلى ما في الآيات القرآنية من ترابط وتلاحم وتناسق، فأخذ مثالا عن ذلك آيات من سورة النمل فقال: "ثم انظر في آية آية، وكلمة كلمة: هل تجدها كما وصفنا: من عجيب النظم، وبديع الرصف؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامتها ذواتها تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها؟ ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلا، بديع التأليف، وبلغ التنزيل" (٣).

ومن خلال أقوال هؤلاء العلماء نقول: علم التناسب أو المناسبات هو علم يبحث في الارتباط بين أجزاء الآيات، ويُعنى كذلك بتربط السور بعضها ببعض، مبيّنا تربط معانيها، واتساق مبانيها، ويبحث في علاقة الكلام السابق باللاحق.

واهتم المفسرون وعلماء القرآن بعلم التناسب بين الآيات والسور القرآنية والعلاقات التي تجمعها وأسرار تربطها، واجتهد الألويسي بدوره في هذا البحث مستفيدا من السابقين ومضيفا لتحليلات

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، ص ٣٨٢

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ص: ١٦٨)

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ١٩٠)

وقراءات أخرى جديدة. ومن خلال تفسيره يمكن تقسيم ترابط وترتيب الجمل إلى ثلاثة مستويات وهي:

١ - المناسبة بين جزئيات الآية الواحدة:

اعتنى الألووسي بالربط بين جزئيات الآية الواحدة، التي تتكون من ألفاظ وجمل عدة تتحمل معاني عديدة، وهذا النوع يصعب التنبه إليه لأنه يحتاج إلى كثير من التأمل والتدبر للآيات القرآنية، فهو يبحث عن العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعاني الجزئية في الجملة الواحدة، واستخراج العلاقة الجامعة لهذه المعاني.

واستطاع الألووسي ببصيرته أن يربط بين الجمل المتجاورة في الآية الواحدة، في بعض الآيات التي تخفى المناسبات فيها نحو قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَاطَ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمْنَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٥٧) ﴿^(١)

جاء في تفسيره: " (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ) عطف على (بعثناكم) [البقرة : ٥٦] وقيل : على (قُلْتُمْ) [البقرة : ٥٥] والأول أظهر للقرب والاشترك في المسند إليه مع التناسب في المسندين في كون كل منهما نعمة بخلاف (قُلْتُمْ) فإنه تمهيد لها" (٢)

وقبل هذه الآية جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥٦) ﴿^(٣) الآية التي ذكرناها سابقا تحمل أن تكون مرتبطة بالآية السابقة وبالفعل (بعثناكم) أو بالآية الأخرى والفعل (قُلْتُمْ)، واختار الألووسي الفعل الأول لاشتراكهما في المسند إليه وكونهما نعمة على بني إسرائيل.

ومن التأليف بين أجزاء الكلام في الآية الواحدة ما جاء في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا

(١) البقرة: ٥٧.

(٢) روح المعاني . (١/ ٢٦٤).

(٣) البقرة: ٥٥-٥٦.

إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٥٣﴾ (١)

جاء في روح المعاني: " (ذلكم) إشارة إلى المنعوت بما ذكر من جلائل النعوت ، وهو مبتدأ وقوله سبحانه : (الله رَبُّكُمْ لا إلهَ إِلَّا هُوَ خالقُ كُلِّ شَيْءٍ) أخبار أربعة مترادفة أي ذلك الموصوف بتلك الصفات العظيمة الشأن هو الله المستحق للعبادة خاصة مالك أمركم لا شريك له أصلاً خالق كل شيء مما كان وسيكون ... وقوله تعالى : (فاعبدوه) مسبب عن مضمون الجملة فإن من جمع هذه الصفات كان هو المستحق للعبادة خاصة ... (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) عطف على الجملة السابقة أي وهو مع تلك الصفات الجليلة الشأن متولي جميع الأمور الدنيوية والأخروية ، ويلزم من ذلك أن لا يوكل أمر إلى غيره ممن لا يتولى . " (٢)

فربط الألوسي هنا بين المعاني ربطاً معنوياً، فجاءت أخباراً مؤكدة لبعضها البعض، وتمثل صفات الله سبحانه وتعالى، فهو إله، ورب، وواحد لا شريك له وخالق كل شيء، وهو مع هذه الصفات أحق أن يعبد، ولهذا جاء فعل الأمر (فاعبدوه)، وهو متولي جميع أمورنا، ويوكل الأمر إليه دون غيره سبحانه.

ويبين الألوسي سر ترتيب طلب بني إسرائيل للطعام في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِجُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا ﴾ (٣)

ووجه ترتيب النظم أنه ذكر أولاً ما هو جامع للحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وهو البقل إذ منه ما هو بارد رطب كالهندبا ومنه ما هو حار يابس كالكرفس والسذاب ومنه ما هو حار وفيه رطوبة ، كالنعناع وثانياً : ما هو بارد رطب وهو القثاء وثالثاً : ما هو حار يابس وهو الثوم ورابعاً : ما هو بارد يابس وهو العدس وخامساً : ما هو حار رطب وهو البصل وإذا طبخ صار بارداً رطباً عند بعضهم ، أو يقال : إنه ذكر أولاً ما يؤكل من غير علاج نار ، وذكر بعده ما يعالج به مع ما ينبغي

(١) الأنعام: ١٠٢.

(٢) روح المعاني. (٤/ ٢٣٠).

(٣) البقرة: ٦١.

فيه ذلك ويقبله . " (١)

وفي ميثاق بني إسرائيل دعوة إلى الإحسان إلى الناس، وجاءت متناسبة ومرتبة حسب الأوكد، وبينت لنا الآية الأولوية في من يجب فيه الإحسان، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

ورد في تفسيره "وقد جاء هذا الترتيب اعتناءً بالأوكد فالأوكد ، فبدأ بالوالدين إذ لا يخفى تقدمهما على كل أحد في الإحسان إليهما ، ثم بذى القربى لأن صلة الأرحام مؤكدة ، ولمشاركة الوالدين في القرابة وكونهما منشأ لها وقد ورد في الأثر " إن الله تعالى خاطب الرحم فقال : أنت الرحم وأنا الرحمن أصل من وصلك وأقطع من قطعك " ، ثم باليتامى لأنهم لا قدرة لهم تامة على الاكتساب، وقد جاء : " أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين " وأشار صلى الله عليه وسلم إلى السبابة والوسطى وتأخرت درجة المساكين لأن المسكين يمكنه أن يتعهد نفسه بالاستخدام ويصلح معيشته مهما أمكن بخلاف اليتيم فإنه لصغره لا ينتفع به ويحتاج إلى من ينفعه" (٣)

وجاء نظم القرآن الكريم عند دعوته للتأمل وإظهاره للآيات الكونية في أحسن ترتيب، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (٤)

ووجه الترتيب هو " أنه سبحانه ذكر أولاً : خلق أمرين علوي وسفلي ، واختلاف شيئين بمدخلية أمرين سماوي وأرضي ثانياً : إذ تعاقب الليل والنهار أو اختلافهما/ ازدياداً وانتقاصاً أو ظلمة ونوراً إنما

(١) روح المعاني . (١/ ٢٧٥)

(٢) البقرة: ٨٣ .

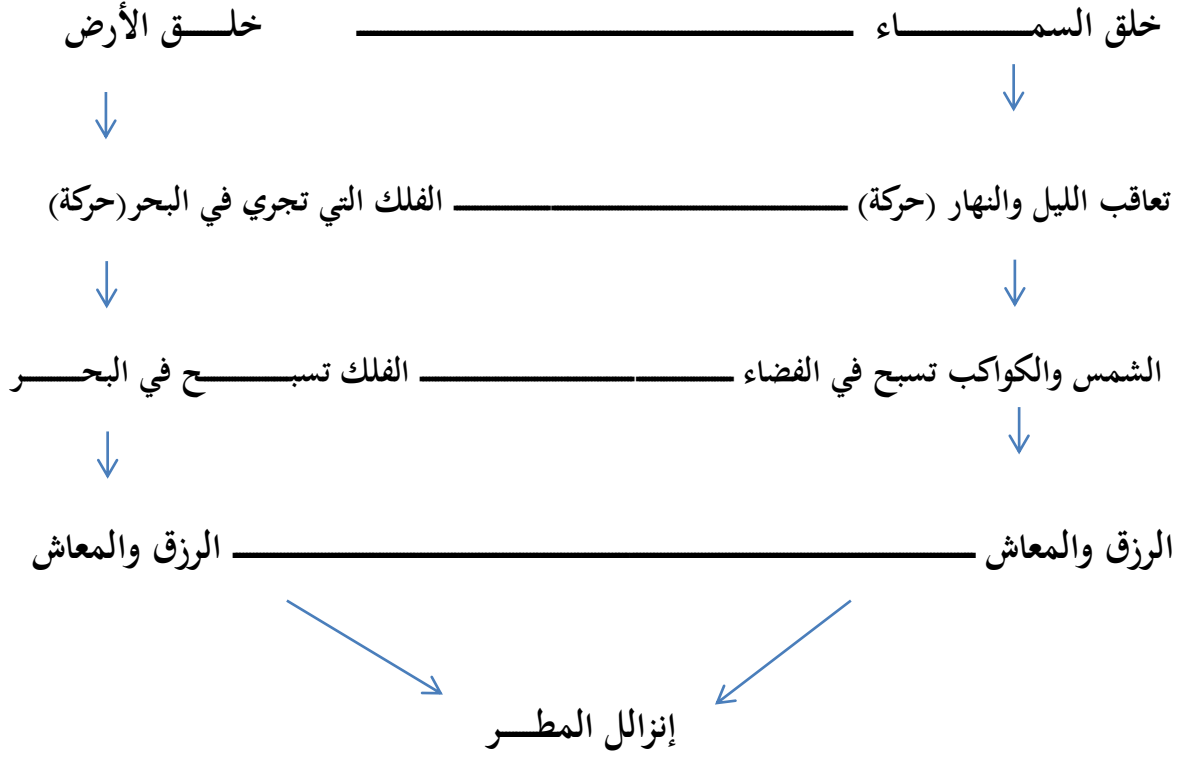
(٣) روح المعاني . (١/ ٣٠٨)

(٤) البقرة: ١٦٤ .

هو بمدخلة سير الفلك وحيلولة جرم الأرض على كفتين مخصصتين ، ثم عقب ذلك بما يشبه آيتي الليل والنهار السابح كل منهما في لجة بحر فلكه الدوار المسخر بالجران فيه ذهاباً وإياباً بما ينفع الناس في أمر معاشهم وانتظام أحوالهم ، وهو الفلك التي تجري على كبد البحر بذلك ، ويختلف جريانها شرقاً وغرباً على حسب تسليك المقادير الإلهية لها في هاتيك المسالك ... ثم عقب ذلك بما يشترك فيه العالم العلوي والعالم السفلي ، وله مناسبة لذكر البحر بل ولذكر الفلك التي تجري فيه بما ينفع الناس وهو إنزال الماء من السماء ونشر ما كان دفيناً في الأرض بالإحياء ، وفي ذلك النفع التام والفضل العام " (١) .

ويمكن توضيح هذا الترتيب والتناسب في الشكل التالي:

(١) روح المعاني . (١ / ٤٣٠)



٢- التناسب بين الآية وما قبلها:

وهذا النوع أكثر وجوداً في تفسيره، فقد حرص علامة بغداد على ربط الآيات ببعضها البعض، وإجلاء العلاقة بينها.

فمن هذا النوع ما يكون الرابط بين الآية وما قبلها خفياً، فلا يظهر بوضوح وجلاء، وهنا يقف الألويسي أمام هذه الآيات، ويتغلغل في معانيها، ويبين وجوه ارتباطها بما قبلها.

ومن ذلك أن الآية قد تقع بين عدة آيات ذات سياق واحد، فلا تبدو مرتبطة بها، فيكشف الألويسي عن وجه ارتباطها.

نحو ما جاء في سورة البقرة، حيث عدد الله على بني إسرائيل أنواع النعم التي أنعمها عليهم، فذكرهم بإنجائهم من آل فرعون، وبغرقه في البحر وبغفوه عنهم بعد اتخاذهم العجل، وبإنزاله الكتاب عليهم، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَوَلَمْ يَأْتِكُمْ أَنفُسُكُمْ فِي الْبَحْرِ فَأَنجَاكُمْ وَذَكَرُوا لَكُمْ آيَاتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ فَلَا تُؤْمِنُونَ بِهَا وَإِنِّي أَخَذْتُ بِالْعَجْلِ فَتُؤْبَهُوا إِلَيَّ بِرَبِّكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ (١)

فقد قيل : هذه الآية وما بعدها منقطعة عما تقدم من التذكير بالنعمة.

فرأى الألوسي عكس ذلك، بل أن ما ذكر في هذه الآية نعم أخرى، فهي "نعمة أخروية في حق المقتولين من بني إسرائيل حيث نالوا درجة الشهداء، كما أن العفو نعمة دنيوية في حق الباقين ، وإنما فصل بينهما بقوله : (وإذ آتينا) [البقرة : ٣ ٥] الخ؛ لأن المقصود تعداد النعم فلو اتصلا لصارا نعمة واحدة " (٢)

فرأى الألوسي أن هذه الآية تسرد أيضا بعض النعم على بني إسرائيل، تتمثل في نيل المقتولين مرتبة الشهداء وهي نعمة أخروية، والعفو عن الآخرين وهي نعمة دنيوية.

وقد كان الرازي قبله أكثر إسهابا في إظهار المناسبة بين هذه الآية والآيات السابقة، حيث جاء في تفسيره "اعلم أن هذا الإنعام الخامس قال بعض المفسرين هذه الآية وما بعدها منقطعة عما تقدم من التذكير بالنعمة وذلك لأنها أمر بالقتل لا يكون نعمة وهذا ضعيف من وجوه:

أحدها أن الله تعالى نبههم على عظم ذنبهم ثم نبههم على ما به يتخلصون عن ذلك الذنب العظيم وذلك من أعظم النعم في الدين وإذا كان الله تعالى قد عدد عليهم النعم الدنيوية فبأن يعدد عليهم هذه النعمة الدينية أولى ثم إن هذه النعمة وهي كيفية هذه التوبة لما لم يكن وصفها إلا بمقدمة ذكر المعصية كان ذكرها أيضا في تمام النعمة فصار كل ما تضمنته هذه الآية معدوداً في نعم الله فجاز التذكير بها

وثانيها أن الله تعالى لما أمرهم بالقتل رفع ذلك الأمر عنهم قبل فنائهم بالكلية فكان ذلك نعمة في حق أولئك الباقين وفي حق الذين كانوا موجودين في زمان محمد عليه الصلاة والسلام لأنه تعالى لولا أنه رفع القتل عن آبائهم لما وجد أولئك الأبناء فحسن إيراده في معرض الامتنان على الحاضرين في زمان محمد عليه الصلاة والسلام

(١) البقرة: ٥٤.

(٢) روح المعاني . (١/ ٢٦٠).

وثالثها أنه تعالى لما بين أن توبة أولئك ما تمت إلا بالقتل مع أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يقول لهم لا حاجة بكم الآن في التوبة إلى القتل بل إن رجعتم عن كفركم وآمنتكم قبل الله إيمانكم منكم فكان بيان التشديد في تلك التوبة تنبيهاً على الإنعام العظيم بقبول مثل هذه التوبة السهلة الهينة

ورابعها أن فيه ترغيباً شديداً لأمة محمد صلوات الله وسلامه عليه في التوبة فإن أمة موسى عليه السلام لما رغبوا في تلك التوبة مع نهاية مشقتها على النفس فلأن يرغب الواحد منا في التوبة التي هي مجرد الندم كان أولى ومعلوم أن ترغيب الإنسان فيما هو المصلحة المهمة من أعظم النعم" (١)

ومن الآيات الأخرى التي استشكل فيها موضعها ومناسبتها بالآيات السابقة واللاحقة ما جاء

في قوله تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ (٢)

لأن الله سبحانه وتعالى فصلَ بآية: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ . .) بين قضية واحدة هي قضية الفراق بين الزوجين وقسمها قسمين، وأدخل بينهما الحديث عن الصلاة، فالقسم الأول يتحدث عن فراق اختياري بالطلاق، فقبل هذه الآية يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرْصَفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاءِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣) وإما افتراق قدري بالوفاة في الآية التي بعدها: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤)

ويرجع الألوسي مناسبة هذه الآية لاعتبارات لفظية أو معنوية، فيقول: "ولعل الأمر بها عقيب الحض على العفو، والنهي عن ترك الفضل لأنها تهيء النفس لفواضل الملكات لكونها الناهية عن

(١) مفاتيح الغيب . (٣/ ٧٤)

(٢) البقرة: ٢٣٨ .

(٣) البقرة: ٢٣٧ .

(٤) البقرة: ٢٤٠ .

الفحشاء والمنكر ، أو ليجمع بين التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلقه ، وقيل : أمر بها في خلال بيان ما تعلق بالأزواج والأولاد من الأحكام الشرعية المتشابكة إيداناً بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها والمثابرة عليها من غير اشتغال عنها بشأن أولئك فكأنه قيل : لا يشغلنكم التعلق بالنساء وأحوالهن وتوجهوا إلى مولاكم بالمحافظة على ما هو عماد الدين ومعراج المؤمنين " (١).

وعن المناسبة في قوله تعالى: ﴿ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَاسْتَفْتَوْا ۗ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

يقول الألوسي " قوله عز وجل : (اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها) فهو تمثيل ذكر استطرادا لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة" (٣)

فهذه الآية ترتبط بسابقتها من الجانب البياني، فهي تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر بالأرض الميتة والتي أحيها الغيث.

وذكر فاضل السامرائي وجها آخر لارتباط الآية بما قبلها وما بعدها أيضا، يقول: " ومن جهة أخرى أن هذه الآية تدل على بعث الأموات وأن الله سيحييهم و يبعثهم كما يحيي الأرض، وقد مر قبل هذه الآية ذكر الآخرة وجملة من مشاهدتها، وهي كما ترتبط بما قبلها من جهتين ترتبط بما بعدها من جهتين أيضا.

فإنه ذكر بعد هذه الآية أن المصدقين والمصدقات يضاعف لهم. وذلك شان الأرض التي تحيا بالغيث فإنها تضاعف ما يزرع فيها، وقد ذكر الله ذلك في مكان آخر ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٦١) كما أنه ذكر الآخرة بعدها وطرفا من أحوالها. فارتبطت الآية بما قبلها وما بعدها والله

(١) روح المعاني . (١ / ٥٤٨).

(٢) الحديد: ١٦-١٧.

(٣) روح المعاني . (١٤ / ١٨١)

اعلم. " (١)

وعدل النظم الكريم عن الترتيب الزمني في أحداث قصة موسى مع قومه، حيث سبق الأمر بذبح البقرة، النزاع حول القاتل، وهذا أدى إلى فك التركيب والترتيب، وهذا العدول التركيبي أعطى للنص فوائد بيانية، ومقاصد جمة يريد القرآن إيصالها ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ۗ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُرُوطًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢)

يقول الألوسي: "وأول القصة : قوله تعالى : (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْتُمْ فِيهَا) [البقرة : ٧٢] الخ ، وكان الظاهر أن يقال قال موسى إذ قتل قتيل تنوزع في قاتله إن الله يأمر بذبح بقرة هي كذا وكذا ، وأن يضرب ببعضها ذلك القتيل ويخبر بقاتله فيكون كيت وكيت إلا أنه فك بعضها وقدم لاستقلاله بنوع من مساويهم التي قصد نعيها عليهم ، وهو الاستهزاء بالأمر والاستقصاء في السؤال ، وترك المصارعة إلى الامتثال ، ولو أجرى على النظم لكانت قصة واحدة ، ولذهبت تثنية التقريع ، وقد وقع في النظم من فك التركيب والترتيب ما يضاويه في بعض القصص ، وهو من المقلوب المقبول لتضمنه نكتاً وفوائد" (٣)

وجاء الكلام على الجن في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَبُوا لَنَا فَمَا فِئْتِي وَلَوْ أَلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ (٤) إثر قصة هود وقومه وإهلاك من أهلك من أهل القرى في الآيات السابقة، وعن المناسبة بينهما يقول: "لأن أولئك كانوا ذوي شدة وقوة كما حكى عنهم في غير آية والجن توصف بذلك أيضا كما قال تعالى : (قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) [النمل : ٣٩] ووصفهم بذلك معروف بين العرب فناسبت ما قبلها لذلك مع ما قيل إن قصة عاد متضمنة ذكر الريح وهذه

(١) على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، ج ١ ص ٢٧٠

(٢) البقرة: ٦٧.

(٣) روح المعاني . (١/ ٢٨٥).

(٤) الأحقاف: ٢٩.

متضمنة ذكر الجن وكلاهما من العالم الذي لا يشاهد^(١)

فهناك جزئيات تجمع الطرفين تتمثل في:

- قوم هود والجن اصحاب قوة وشدة.

- أن كلا من الرياح التي عذب بها قوم هود، والجن من العالم الذي لا يشاهد.

ومثله أيضا ما جاء في قوله تعالى: ﴿أُولُوْا بَصُوْرًا إِلَى السَّمَاءِ فَهِيَ كَالْحَدِيْدِ فَفَوْقَهُمْ سَوَافَتْ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا

الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيْرٌ ﴿١١﴾ ﴿٢﴾

ففي هذه الآية قد انتقل من دلالة أحوال البشر وعالمهم وهو ما جاء في الآيات السابقة، إلى

دلالة أعجب وهي أحوال الحيوانات وأحوال الطير في نظام حركاتها في حال طيرانها.

وأشار الألوسي إلى وجه ترابط بين الكلام السابق واللاحق هنا، فذكر الاعتبار بالطير مع ذكر

التوعد بالحاصب لا سيما إذا فسر بالحجارة في قوله: ﴿أَمْرٌ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ

حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴿٣﴾، إذ قد أهلك الله تعالى بذلك أصحاب الفيل حينما رمتهم به

الطير ففي ذلك إذكارة قريش بتلك القصة^(٤)

وفي سورة البقرة وردت قصة المار على القرية، وقصة إبراهيم عليه السلام، ثم جاء الحديث عن

الإنفاق في سبيل الله قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ

سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴿٥﴾

جاء في روح المعاني: ومناسبة هذه الآية لما قبلها، أنه تعالى لما ذكر قصة المار على القرية، وقصة

إبراهيم عليه الصلاة والسلام وكانا من أدل دليل على البعث ذكر ما ينتفع به يوم البعث وما يجد

(١) روح المعاني . (١٣ / ١٨٧).

(٢) الملك: ١٩.

(٣) الملك: ١٧.

(٤) روح المعاني . (١٥ / ١٩).

(٥) البقرة: ٢٦١.

جزاءه هناك وهو الإنفاق في سبيل الله تعالى... وفي ذكره الحبة في التمثيل هنا إشارة أيضا إلى البعث وعظيم القدرة إذ من كان قادراً على أن يخرج من حبة واحدة في الأرض سبعمائة حبة فهو قادر على أن يخرج الموتى من قبورهم بجامع اشتركا فيه من التغذية والنمو. (١)

كما ربط الألوسي بين أواخر الآي، وبداية الآيات اللاحقة كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ (٢)

جاء في روح المعاني: "ومناسبة الآية لما قبلها ظاهرة، وهي أنه تعالى لما ذكر (إِنَّ اللَّهَ) تعالى (كَانَ) على كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا [النساء : ٨٦] تلاه بالإعلام بوحدانيتها سبحانه والحشر والبعث من القبور للحساب بين يديه" (٣)

٣- التناسب بين السور القرآنية:

اختلفت الآراء حول مسألة ترتيب سور القرآن الكريم، هل هي توفيقية واجتهادات من الصحابة أو توفيقية من عند الرسول عليه الصلاة والسلام وعن طريق الوحي، وللألوسي رأي في هذا الشأن يقول فيه: "ذهب البيهقي إلى أن جميع السور ترتيبها توفيقية إلا براءة والأنفال وله انشرح صدر الإمام السيوطي لما ضاق ذرعا عن الجواب ، والذي ينشرح له صدر هذا الفقير هو ما انشرفت له صدور الجمع الغفير من أن ما بين اللوحين الآن موافق لما في اللوح من القرآن وحاشا أن يهمل صلى الله تعالى عليه وسلم أمر القرآن وهو نور نبوته وبرهان شريعته فلا بد إما من التصريح بمواضع الآي والسور وإما من الرمز إليهم بذلك وإجماع الصحابة في المأل على هذا الترتيب وعدولهم عما كان أولا من بعضهم على غيره من الأساليب ، وهم الذين لا تلين قناتهم لباطل ، ولا يصددهم عن اتباع الحق لوم لائم ولا قول قائل ، أقوى دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علما ، ولم يدع عندهم خيالا ولا

(١) روح المعاني . (٢/ ٣٣).

(٢) النساء: ٨٦-٨٧.

(٣) روح المعاني . (٣/ ١٠٢).

وهما" (١)

فالألوسي وقف بجانب القائلين بتوقيفية ترتيب سور القرآن وآياته، وأن هذا الأمر وحي من الله إلى رسوله، وأنه عليه الصلاة والسلام قد بين مواضع الآيات والسور لصحابته عن طريق التصريح المباشر لهم أو عن طريق الرمز.

وحاول الألوسي إظهار المناسبة بين السور القرآنية، ومقابلة كل سورة بالسورة التي قبلها مستخرجا الأوجه التي تجمعها، مستأنسا في كثير من الأحيان بأراء العلماء والمفسرين مثل: السيوطي والرازي وغيرهم من العلماء، ومبديا رأيه الخاص في هذه المناسبات، ونأخذ أمثلة عن بعض الترابطات بين السور القرآنية التي رآها الألوسي:

■ المناسبة بين سورة الفاتحة والبقرة:

ففي بداية تفسيره يذكر أوجه ارتباط سورة البقرة بفاتحة الكتاب، "ووجه مناسبتها لسورة الفاتحة أن الفاتحة مشتملة على بيان الربوبية أولا والعبودية ثانيا وطلب الهداية في المقاصد الدينية والمطالب اليقينية ثالثا، وكذا سورة البقرة مشتملة على بيان معرفة الرب أولا كما في يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ [البقرة : ٣] وأمثاله وعلى العبادات وما يتعلق بها ثانيا وعلى طلب ما يحتاج إليه في العاجل والآجل آخرا وأيضا في آخر الفاتحة طلب الهداية وفي أول البقرة إيماء إلى ذلك بقوله هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ [البقرة : ٢] ولما افتتح سبحانه الفاتحة بالأمر الظاهر وكان وراء كل ظاهر باطن افتتح هذه السورة بما بطن سره وخفي إلا على من شاء الله تعالى أمره (٢)

■ المناسبة بين سورة القمر و الرحمن:

يقول الألوسي: " وهو أنه تعالى لما عدد في السورة السابقة ما نزل بالأمم السالفة من ضروب نعم الله عز وجل ، وبيّن عقيب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لتذكر الناس واتعاضهم ونعى عليهم إعراضهم عن ذلك عدد في هذه السورة الكريمة ما أفاض على كافة الأنام من فنون نعمه

(١) روح المعاني . (١ / ٢٨)

(٢) روح المعاني . (١ / ١٠١)

الدينية والدينيوية والأنفسية و الآفاقية وأنكر عليهم أثر كل فن منها إخلالهم بمواجب شكرها^(١) وهناك وجوه أخرى في تقابل السورتين غير ما ذكر الألوسي، قد تظهر للمتأمل لهما من بينها: افتتاح السورة الأولى بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة وهو القرآن الكريم فإن شفاء القلوب بالصفاء عن الذنوب والأمر الثاني الذي يظهر جليا هو تكرار في السورة المتقدمة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنَذْرِي ﴾ غير مرة وكرر في سورة الرحمن ﴿ فَيَأْتِيءَ آءَاءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مرة بعد مرة، ولما تبين تلك السور من إظهار الهيبة والثانية من إظهار الرحمة

■ المناسبة بين سورة القصص والنمل:

كما استخلص أوجه المناسبة بين سورة النمل وسورة القصص، من خلال تقارب المواضيع وحكاية بعض الأحوال ومن حيث الإسهاب والإيجاز، فيقول: "ووجه مناسبتها لما قبلها اشتمالها على شرح بعض ما أجمل فيه من أمر موسى عليه السلام....وقد يقال في وجه المناسبة أيضا : إنه تعالى فصل في تلك السورة أحوال بعض المهلكين من قوم صالح وقوم لوط وأجل هنا في قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ [القصص : ٥٨] الآيات ، وأيضا بسط في الجملة هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة وأوجز سبحانه هنا حيث قال تعالى : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [القصص : ٨٤] فلم يذكر عز وجل من حال الأولين أمنهم من الفزع ومن حال الآخرين كب وجوههم في النار إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمل.^(٢)

■ المناسبة بين سورة الصافات و ص:

وجاءت سورة ص متممة لسورة الصافات في ذكر أنبياء آخرين كداوود وسليمان عليهم السلام ومفصلة لما أجمل في سورة الصافات.

(١) روح المعاني . (١٤ / ٩٦)

(٢) روح المعاني . (١٠ / ٢٥١)

جاء في تفسيره: "وهي كالمتممة لما قبلها من حيث إنه ذكر فيها ما لم يذكر في تلك من الأنبياء عليهم السلام كداود وسليمان، ولما ذكر سبحانه فيما قبل عن الكفار أنهم قالوا لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ [الصفات : ١٦٩] وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم بدأ عز وجل في هذه السورة بالقرآن ذي الذكر وفصل ما أجمل هناك من كفرهم وفي ذلك من المناسبة ما فيه ، ومن دقق النظر لاح له مناسبات آخر والله تعالى الموفق. (١)

■ المناسبة بين سورة الدخان بالزخرف:

ووجه مناسبتها لما قبلها أنه عز وجلّ ختم ما قبل بالوعيد والتهديد وافتتح هذه بشيء من الإنذار الشديد وذكر سبحانه هناك قول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ } [الزخرف : ١٨٨] وهنا نظيره فيما حكى عن أخيه موسى عليهما الصلاة والسلام بقوله تعالى فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ } [الدخان : ٢٢] وأيضا ذكر فيما تقدم { فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ } [الزخرف : ١٨٩] وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام { إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِزُوا لِي } [الدخان : ٢٠ ، ٢١] وهو قريب (٢)

وهكذا يتبين لنا أهمية علم التناسب، وهو علم ليس لمجرد المعرفة، وليس من قبيل الترف العلمي، وإنما هو علم أصيل، له غايته وهي التدبر، و لم يعط حقه في الدراسات البلاغية، وربما يرجع ذلك لتقارب مباحثه بمباحث الفصل والوصل والتقديم والتأخير، والترابط بين الجمل وترتيبها، منها ما هو ظاهر، ومنها ما هو خفي يحتاج إلى مزيد عناية وشدة تدبر، وزيادة تفكير.

و هذا المبحث - في بعض مواضعه - تتجلى ظاهرة " العدول " باعتباره أحد المقومات

الأساسية في تشكيل الكلام وصياغته، وخاصة في الكلام اللاحق الذي نجد فيه مغايرة للكلام السابق لتحقيق فائدة جمالية أو دلالية، واستطاع الألووسي مواصلة جهد من سبقه كالرازي في تفسيره والبقاعي في كتابه: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، في إدراك أسرار ترابط وترتيب بعض آيات وسور القرآن.

(١) روح المعاني . (١٢ / ١٥٤)

(٢) روح المعاني . (١٣ / ١٠٩)

الخاتمة:

تناولت هذه الدراسة مباحث علم المعاني في النص القرآني من خلال تفسير الألوسي بلاغيا وأسلوبيا، واقفا على أكثر أنماط العدول والاختيار حضورا في التراكيب القرآنية، ومبرزا الدور الدلالي والبلاغي لها، وخلصت إلى مجموعة من النتائج أهمها:

١. يعد تفسير (روح المعاني) موسوعة ضخمة، شملت العلوم الشرعية، وكذلك العلوم اللغوية، لغة، نحو، وصرفا، وبلاغة، إذ يجد فيه كل طالب علم بغيته.
٢. يمثل تفسيره روح المعاني مرجعا مهما بلاغيا وفكريا، وقد قرر الألوسي فيه أن التفسير علم عقلي لا يرتقي ذروته إلا من كان متبحرا في العلوم العربية، وهو موسوعة علمية في المنقول والمعقول، فقد تناول فيه كل آية وكل سورة متبعا كل نصوص آي القرآن من البداية إلى النهاية، محللا ومعللا وكاشفا، موجزا أحيانا ومطنبا في الكثير منها.
٣. يميل الألوسي في تفسيره غالبا إلى الظاهر من القول، حاشدا الكثير من الآراء، مفندا ومجتهدا، رافضا ومؤيدا، لا يترك شاردة ولا واردة من أحاديث صحيحة وضعيفة، أو قول منقول في الاسرائيليات أو رواية معقولة أو أسطورية، إلا ذكر وجه الصحة أو العيب في نقله.
٤. مباحث علم المعاني كانت مبثوثة في كتب اللغة كالنحو وفقه اللغة، وجرى تحديده وتقسيمه في عصر السكاكي والقزويني .
٥. مصطلح علم المعاني لم تتحدد معالمه عند عبد القاهر، إذ كان يسمى مباحثه في المعاني باسم علم البيان تارة وعلم الفصاحة تارة ثانية. وكما نجد يشير في كتابه دلائل الإعجاز إلى أن الاستعارة من البديع، وهذا لاعتنائه بالجانب البلاغي والدلالي والجمالي لهذه المباحث.
٦. ما يعرف بالانزياح في الدراسات الأسلوبية، هو مصطلح له جذور في تراثنا العربي وكان لهم السبق في إدراك معايير ووظيفته وورد في كتبهم بعدة مصطلحات مثل العدول، التوسع، التجوز، الخروج عن مقتضى الظاهر، الانتقال... ومصطلح العدول أكثر استعمالا عند الألوسي.

٧. وجود مستويين على الأقل في استخدام اللغة ؛ المستوى العادي النمطي الذي تحكمه علاقات لغوية عادية مألوفة مبنية على توالي الوحدات اللغوية في طبيعتها و العقلية ، والمستوى الفني اللغة الفنية الذي تحكمه علاقات لغوية غير عادية أو منحرفة عن المؤلف في الانجاز اللغوي .
٨. إن الوظيفة الرئيسية للعدول تتمثل فيما يحدثه من مفاجأة تثير المتلقي وتلفت انتباهه، وتدفعه للبحث عن أسرار هذا التحول، والبحث عن المثيرات السياقية، ووظائفها الدلالية.
٩. من أكثر المصطلحات التي استخدمها الألووسي في تفسيره للدلالة على الانزياح، نجد مصطلح العدول، كما أتى ببعض المصطلحات القريبة منه، مثل الانحراف، و أدرك الألووسي وظيفته وأثره في المتلقي، وتعددت صورته في تفسيره ومن أبرزها العدول الدلالي.
١٠. عدول القرآن كان في الأداة اللغوية الفنية، وكذا في الفكرة الجديدة، وبهذا حدث الانقلاب الهائل في الأدب العربي الذي كان الشعر عماده، فإذا جاز اعتبار الشعر - في عمومه - انزياحا عن لغة الحديث فإنّ القرآن الكريم انزياح على الانزياح.
١١. النص القرآني أسلوب متفرد في نظم تراكيبه، إذ لا نجد فيه لفظا ينزاح عن موقعه أو دلالاته إلا لغرض بلاغي يخدم المعنى ويثري الدلالة بحسب السياق الذي ورد فيه، فالألفاظ القرآنية تأخذ مكانها المناسب بحيث لو أجري أي تغيير بكلمة أخرى لاختل النظم، ولما عاد له ذلك السبك والرونق الذي كان عليه من قبل
١٢. اهتم الألووسي بالمفردة القرآنية في تفسيره، من حيث أسرار اختيارها دون بقية المفردات الأخرى لأسباب ودواعي مختلفة مثل: إيجائها ودلالاتها وأصلها وتصويرها والجانب الصوتي لها، والأمثلة على ذلك كثيرة في تفسيره وقد استقصيت أهمها.
١٣. تعددت أساليب العدول والتلوين في الخطاب القرآني فنجد العدول العددي والعدول الزمني، كما نجد التغيرات في الأبنية والمشتقات في الآيات القرآنية، ولا تخلوا هذه الأنواع من العدول من فوائد عامة أو خاصة، تحتاج فقط لإعمال العقل لكشف حسناتها ونكتها كما فعل الألووسي وغيره من المفسرين.

- ١٤ . الاستفهام في الآيات القرآنية قد خرج إلى غرضين أساسيين هما الإنكار والتقريب مع مصاحبة معان أخرى كالتوبيخ والتعجب والاستبعاد للإنكار، والتعظيم والتقريب، وهذه المعاني أسهمت في تلوين الخطاب وحققت الإثارة والفعالية الأسلوبية في النصوص.
- ١٥ . ورود الحذف القرآني بكثرة، وقد شمل الحذف والكلمة والجملة وتوسع الألوسي في دراسته وأقسامه وتناول أغراضه ودلالاته البلاغية .
- ١٦ . لا تكاد تخلوا سورة قرآنية ولا حتى آياته من أسلوب التقديم والتأخير الذي يطوع التراكيب والمعاني لاعتبارات مناسبة، وهو من السمات البارزة في النص القرآني التي تدل دلالة واضحة على أن التعبير القرآني تعبير مقصود، فما قدم فيه لفظ ولا آخر إلا لغرض بلاغي، وحكمة بالغة، فكأن المعنى يقتضي ما تقدم أو تأخر اقتضاء طبيعياً للتأثير في نفس المتلقي، وقد تصدى الألوسي لهذا الأسلوب وبين مواضعه وأخرج دلالاته.
- ١٧ . ذكر الألوسي والمفسرون أغراضاً وأسراراً لكل من الحذف والتقديم والتأخير والتوكيد والاستفهام، لم ترد في كتب البلاغة، وهذا ما يدل على دور المتلقي في المشاركة في تشكيل الأثر أو الوظيفة الجمالية والدلالية الناتجة عن كل عدول في النص.
- ١٨ . تناول الألوسي أسلوب الفصل والوصل وبين مواضعه، واستطاع الألوسي بفضل سلامة ذوقه وملكته اللغوية وحسه الأدبي الاهتداء إلى مواطن الحسن في أكثره.
- ١٩ . كان للالتفات أثر بارز في تفسيره إذ وقف على القسم الأكبر منه وتحدث عن صوره الستة وما يخرج إليه من أغراض بلاغية، وهو يستعمل لفظ العدول والالتفات والانتقال فالمصطلحات واحدة عنده لا تختلف في مدلولاتها .
- ٢٠ . ورد التكرار لمقاصد وأغراض عديدة، ويرى الألوسي أن أي تكرار للقصص القرآني في مختلف السور يكون ذا فائدة تختلف من موضع لآخر، وبأنها لا ترد في القرآن بتمامها دفعة واحدة، بل تقتصر على الجزء الذي يناسب الغرض الذي سبقت لأجله القصة، بالإضافة إلى أنها لا تجري على نمط واحد فهناك اختلاف في الصياغة، واختلاف في الطول والقصر واختلاف في الأحداث التي تتناولها، وطريقة عرض تلك الأحداث.

٢١ . ترتيب وترباط الجمل مبحث لم يعط حقه في الدراسات البلاغية، وربما يرجع ذلك لتقارب مباحثه بمباحث الفصل والوصل والتقديم والتأخير، واستطاع الألوسي مواصلة جهد من سبقه كالرازي في تفسيره والبقاعي والسيوطي وغيرهم في إبراز أهم أسرار الترابط والترتيب القرآني.

التوصيات: من أهم التوصيات التي نوصي بها الباحثين من خلال هذه الدراسة ونتائجها:

- للألوسي نظرات دقيقة في بعض المسائل البلاغية منها ماوافق فيها السابقين أو خالفهم تحتاج إلى رصدها ودراستها
- التفاسير القرآنية معين لا ينضب وهي منبع البلاغة العربية، فلا بد من الاستفادة من الدراسات البلاغية القرآنية السابقة وربطهما معاً ضمن دراسة موحدة.
- كما اهتم الألوسي بالشواهد الشعرية البلاغية، وقام بدراستها في مواضعها وله فيها آراء وتعقيبات قد تهتم الباحثين.

فهرس الآيات القرآنية		
الصفحة	رقم الآية	السورة
سورة البقرة		
١٤٤	٠٢	البقرة
٢٧٤	٠٥	البقرة
١٥٧	٠٧	البقرة
٢٢١	١٧	البقرة
١٤٦	١٩	البقرة
١٢٧	٢٢	البقرة
٢٠٣	٢٩	البقرة
٢١	٣٧	البقرة
٥٢	٣٨	البقرة
١٤٦	٤٢	البقرة
٢٥٤	٤٩	البقرة
٢٩٢، ١١٦	٥٤	البقرة
٢٨٧	٥٧	البقرة
٢٨٨	٦١	البقرة
٢٩٥	٦٧	البقرة
١٠٢	٧٤	البقرة
٢٢	٧٨	البقرة
٢٨٩	٨٣	البقرة
٩٢	٨٥	البقرة
٢٢٥	٩٢	البقرة
١٤٢	٩٦	البقرة
١٥٨	٩٦	البقرة
١٥٤	١٠٣	البقرة
٢١٤	١٠٨	البقرة
١٢٩	١١١	البقرة
١٩٦	١١٤	البقرة
٢٤٦	١٣٣	البقرة
٢٢٧	١٤٣	البقرة
٢٨٩	١٦٤	البقرة
٢٢٠	١٦٥	البقرة
٨٧	١٧٠	البقرة
١٤٨	١٧٧	البقرة
٢٢٤	٢٠٠	البقرة
١٥٣	٢٠١	البقرة
٢٩٣	٢٣٧	البقرة
٢٩٣	٢٣٨	البقرة
٢٩٣	٢٤٠	البقرة
١٥٥	٢٤٩	البقرة

١٦٤	٢٦٠	البقرة
٢٩٦	٢٦١	البقرة
٩١	٢٦٢	البقرة
١١٨	٢٧٧	البقرة
١٥٣	٢٧٩	البقرة
٢٤٢	٢٨٢	البقرة
٢١٨	٢٨٨	البقرة
سورة آل عمران		
٢١٠	٠٥	آل عمران
١٥٤	١٥	آل عمران
٢٧٥	١٨	آل عمران
٢١٧	٢٦	آل عمران
١٨٩، ٢٢٩، ١٤٧	٣٦	آل عمران
١٣٢	٣٧	آل عمران
١٥١	٤٩	آل عمران
٢٧٢	٧٨	آل عمران
٢٧٤	٩٨	آل عمران
٢٠١	١١٧	آل عمران
١٤٧، ٩٨	١٣٤	آل عمران
١٧٠	١٣٥	آل عمران
٢٤٦	١٧٠	آل عمران
٢٢	١٨٨	آل عمران
٩٥	١٩١	آل عمران
٢٤٩	١٩٣	آل عمران
٢٦٤	١٩٥	آل عمران
سورة المائدة		
١٧٥	٠١	المائدة
١٨٤	٤١	المائدة
١٤٨، ١٢٣	٦٤	المائدة
١٣٧	٧٠	المائدة
سورة النساء		
١٧٥، ٩١	٠٤	النساء
٢٠٦	٠٨	النساء
١٨٣	٤٩	النساء
١٠٧	٧٨	النساء
٢٩٧	٨٦	النساء
٩٣	١٠٠	النساء
٨٩	١١٤	النساء
٢٢٨	١٢٢	النساء
٨٥	١٢٦	النساء
سورة الأعراف		

٢٢٣	١٣٨	الأعراف
سورة التوبة		
٢٦٢	٠٣	التوبة
١١٢	٠٨	التوبة
١٦٦	١٣	التوبة
١٨٥	٤٠	التوبة
١٧٧	٥٢	التوبة
١٨٠	٥٣	التوبة
٨٩	٦٠	التوبة
١٢١	٦٢	التوبة
١٧٠	٦٣	التوبة
٨٠	٩٢	التوبة
٢٠٤	١٢٨	التوبة
سورة يونس		
٩٦	٢٠	يونس
٢٦٥	٢١	يونس
٢٨٥	٢٢	يونس
١٩٣، ١٢٥	٤٢	يونس
١٣٧	٤٦	يونس
١٤١	٦٠	يونس
٢١٠	٦١	يونس
٢١٨	٦٧	يونس
١٥٥	٧٤	يونس
١٦٧	٧٧	يونس
١٢٣	٧٨	يونس
١٤٥	٨٠	يونس
١٢٤	٨٨	يونس
١٨٧	٩٥	يونس
سورة هود		
٢٠٣	٠٥	هود
١٤١	٠٨	هود
٩٨	١٢	هود
٥٣	٤٤	هود
١١٩	٤٨	هود
٢٥١	٥٣	هود
١٧١	٨٧	هود
١٩٤	٩١	هود
٨٨	٩٧	هود
١٣٤	١٠٣	هود
سورة يوسف		
٢٨٢	٠٣	يوسف

٢٧٣	٠٤	يوسف
٢٣٢	٣٢	يوسف
١١٥	٤٧	يوسف
١١٣	٧٩	يوسف
١٦٨	٩٠	يوسف
١٠٩	٩٢	يوسف
سورة الرعد		
١٩٥	٠٥	الرعد
٢٠٠	٣٠	الرعد
٢٠٠	٣١	الرعد
سورة الحجر		
١٧٢	٥٤	الحجر
سورة النحل		
١٩٨	٠٥	النحل
٢٢٢	١٢	النحل
٢٣١	٢٩	النحل
٢٦٦	٥١	النحل
٢٤٣	٧٣	النحل
٢٦٧	٧٥	النحل
٢١٦	٨١	النحل
٢٧٨	١٠٠	النحل
١٢٧	١١٢	النحل
سورة الاسراء		
١٨٣	٢٣	الاسراء
سورة الكهف		
٢٠٤	٠٢	الكهف
١٩٩	١٠	الكهف
٢٦٩	١٣	الكهف
١٣٦	٣١	الكهف
٢٢٩	٣٦	الكهف
١٥١	٥٠	الكهف
٢٢٤	٥٩	الكهف
١٢٠	٦٣	الكهف
١٠٥	١٠١	الكهف
سورة مريم		
١٩٩	٠٥	مريم
١٥٨	٤٥	مريم
٢٤٣	٤٦	مريم
١٧٢	٧٧	مريم
١٠٨	٨٥	مريم
٢٦١	٨٨	مريم

سورة طه		
٢٢٨	١٢	طه
١٥٢	٥٦	طه
١٧٣	١٢٠	طه
سورة الأنبياء		
٢٠٣	١١٠	الأنبياء
سورة الحج		
١٩٧	٦٧	الحج
سورة المؤمنون		
٢٣٢	١٥	المؤمنون
٢٥١	٣٣	المؤمنون
٢٧٧	٣٥	المؤمنون
١٤١	٧٧	المؤمنون
سورة النور		
٢٢٠	١٠	النور
١١٦	١٥	النور
١٣١	٣١	النور
١٥٦	٤٥	النور
٢٦٢	٦٢	النور
سورة الفرقان		
٢٤٧-٢٢٢	٢١	الفرقان
٩٠	٣٤	الفرقان
٢٠٥	٤٩	الفرقان
سورة الشعراء		
٢٣٠	٦١	الشعراء
٢٣٥	٧٨	الشعراء
١٤١	٩٠	الشعراء
١٢٦	١٠٠	الشعراء
١٦٦	١٤٣	الشعراء
٢٤	٢١٤	الشعراء
سورة النمل		
٢١٩	٠٣	النمل
١٠٨	٢٣	النمل
١٦٥	٥٤	النمل
٢٣٠	٥٥	النمل
٢٦٦	٦٠	النمل
١٥٠	٦٤	النمل
٩٨	٦٧	النمل
١٤٢	٧٨	النمل
سورة القصص		
٢٢٨	٠٤	القصص

٢١٤	٠٨	القصص
١٦٦	٥٠	القصص
١٨٤	٧٧	القصص
١٨٦	٨٨	القصص
سورة العنكبوت		
١١٥	١٤	العنكبوت
١٤٦	١٧	العنكبوت
٢٣٠	٣٣	العنكبوت
سورة الروم		
٢٧٥	١٢	الروم
٢٦٠	٣٩	الروم
سورة لقمان		
١٠٦	٢٧	لقمان
١٣٨	٢٩	لقمان
سورة السجدة		
١٢٨	٠٩	السجدة
سورة فاطر		
١٩١	١٠	فاطر
٢٠٥	١٩	فاطر
٢٠٧	٣٣	فاطر
١١٦	٣٥	فاطر
سورة يس		
١٩١	١٦	يس
٢٦٣	٢٢	يس
١٩٢	٤٠	يس
٩٧	٥٢	يس
١٥٣	٥٥	يس
١٥٢	٦١	يس
١٧٩	٦٣	يس
سورة الصافات		
٢١٦	٠٥	الصافات
١٧١	٩١	الصافات
١٧٧	١٥٧	الصافات
سورة الزمر		
١٩٧	١٤	الزمر
١٠٥	٢٢	الزمر
١٩٢	٤٢	الزمر
١٩٨	٤٤	الزمر
٢١٩	٥٣	الزمر

سورة غافر		
١٩١	٢٠	غافر
٢٤٦	٦٠	غافر
سورة فصلت		
٢٠٢	٠٩	فصلت
٦٥	١١	فصلت
١١	٤٣	فصلت
سورة الشورى		
٢٠٧	٤٩	الشورى
سورة الفتح		
٢٦٤-٢٢٧	٠١	الفتح
١٢٠	١٠	الفتح
١٤٢	٠٤	الحجرات
سورة النجم		
٢٤٠	٠٢	النجم
١٤٢	١٦	النجم
٢٧	٣٧	النجم
سورة القمر		
٢٧٩	١٨	القمر
٢٧٩	٢١	القمر
سورة الرحمن		
٢٧٣	٠٧	الرحمن
١٧٧	٣٣	الرحمن
٢٨١	٣٥	الرحمن
سورة الواقعة		
١٣٣	٢٠	الواقعة
٢٣٤	٦٣	الواقعة
٢٩٤	١٦	الحديد
٢٣٩	١١	المجادلة
١٢٢	١١	الجمعة
سورة المنافقون		
٢٢٦	٠١	المنافقون
٢٢٣	٠٨	المنافقون
سورة التحريم		
٢٥٠	٠٥	التحريم
١٨٥	٠٧	التحريم

قائمة المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم رواية حفص

١. الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، د. محمد عباس، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٩
٢. الاتجاه الأسلوبية في النقد الأدبي، السيد شفيق، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٦
٣. الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، إبراهيم عبد الجواد، وزارة الثقافة، عمان، ط١، ١٩٩٦
٤. أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، توفيق الزبيدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط١، ١٩٨٤
٥. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤
٦. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي (ت ٩٥١ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٧. أساس البلاغة، الزمخشري، دار الفكر، دط، ١٣٩٩ هـ.
٨. الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية، صباح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٩٨٦
٩. أساليب الاستفهام في القرآن الكريم، عبد العليم السيد فودة، مؤسسة دار الشعب، القاهرة (د.ت).
١٠. أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، د. قيس اسما عيل الأوسي، بيت الحكمة. ١٩٨٨.
١١. الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط٤. (د.ت).
١٢. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ)، شرح وتعليق وتحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، وعبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١
١٣. أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، عبد الكريم يوسف، مطبعة الشام، ط١، ٢٠٠٠ م
١٤. أسلوبية الانزياح في النص القرآني، أحمد غالب الخرشنة، الأكاديميون للنشر، عمان، الاردن، ط١، ٢٠١٤.
١٥. الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، سعد مصلوح، دار الفكر العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.
١٦. الأسلوبية. جيرو، بيير، ترجمة: منذر عياشي. حلب: دار الإنماء الحضاري ط٢. ١٩٩٤.

١٧. الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية ، د.فتح الله أحمد سليمان ، الدار الفنية ، عمان . الاردن ، ١٩٩٠م
١٨. الأسلوبية مفاهيمها وتحليلاتها، رابعة موسى، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، ط١، ٢٠٠٣.
١٩. الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس ، ط٢/١٩٨٢
٢٠. الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١، ٢٠٠٢
٢١. الأسلوبية منهجا نقديا، محمد عزام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، (د.ط)، ١٩٨٩.
٢٢. الإعجاز البلاغي (دراسة تحليلية لتراث أهل العلم) ، د.محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ، مصر ، ط١ ، ١٤٠٥هـ . ١٩٨٤م.
٢٣. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب المحقق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط الخامسة، ١٩٩٧م.
٢٤. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، صلاح عبد الفتاح، دار عمار، عمان، ط١، ٢٠٠٠م
٢٥. إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها ، عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي مصر ، ط١، ١٣٨٣هـ . ١٩٦٤م.
٢٦. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى الصادق الرافي، دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الثامنة - ١٤٢٥ هـ
٢٧. الأعلام، خير الدين الزركلي دار العلم للملايين، الطبعة : الخامسة عشر ، ٢٠٠٢ م
٢٨. - أعلام العراق، محمد بحجة الأثري، المطبعة السلفية، بغداد، ١٣٤٥هـ
٢٩. . أعيان القرن الثالث عشر، خليل مردم، لجنة التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧١م.
٣٠. الالتفات في القرآن، حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.
٣١. الألوسي مفسرا، محسن عبد الحميد، مطبعة المعارف، بغداد، ط١، ١٩٦٩م.
٣٢. إنتاج الدلالة الأدبية ، د. صلاح فضل ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة. ط١، ١٩٨٧.
٣٣. . الانزياح في منظور الدراسات الاسلوبية، أحمد ويس، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ط١، دت.
٣٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي ، ناصر الدين ابي سعيد البيضاوي (ت١٣٠٥هـ)، تحقيق عبد القادر عرفان ، دار الفكر . بيروت ، ١٤١٦هـ . ١٩٩٦م.
٣٥. الإيضاح في علوم البلاغة ، الإمام الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٩٨

٣٦. البحث الأسلوبى "معاصرة وتراث". رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، ١٩٩٣
٣٧. البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسى، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
٣٨. بحوث لغوية، احمد مطلوب، دار الفكر، عمان، ط ١، ١٩٨٧.
٣٩. بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، دار الكتاب العربى، بيروت، دط، دت.
٤٠. البرهان فى علوم القرآن، للأمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٣٧٦هـ
٤١. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ
٤٢. البلاغة الاصطلاحية، عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربى، مصر، ط ٣، ١٩٩٢م
٤٣. البلاغة تطور وتاريخ، شوقى ضيف ، دار المعارف، مصر، دت.
٤٤. بلاغة الخطاب وعلم النص، فضل صلاح، مكتبة لبنان، بيروت، ط ١، ١٩٩٦
٤٥. البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حبنكة، دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ
٤٦. البلاغة العربية فى ثوبها الجديد (علم المعاني) ، د. بكرى شيخ أمين، دار العلم للملايين ١٣٩٩هـ. ١٩٧٩م.
٤٧. البلاغة العربية (قراءة أخرى) ، محمد عبد المطلب ، جامعة عين شمس ، الشركة المصرية العالمية للنشر. لو نجمان.
٤٨. البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) ، فضل حسن عباس ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان - الاردن ، ط ٤. ١٩٩٧.
٤٩. البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، دار الفكر العربى، القاهرة، دت
٥٠. بلاغة الكلمة فى التعبير القرآنى، د.فاضل صالح السامرائى، شركة العاتك للنشر القاهرة - مصر ط ٢٠٠٦
٥١. بلاغة الكلمة والجملة والجمل، سلطان منير، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط ١، ١٩٨٨
٥٢. البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤.
٥٣. البنيات الأسلوبية فى لغة الشعر العربى الحديث ، مصطفى السعدنى ، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٧.
٥٤. بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة: محمد الولي ومحمدا عمري ، ط ١، دار توبقال ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٦م.

٥٥. البيان في روائع القرآن، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م
٥٦. البيان والتبيين أبو عمرو الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.
٥٧. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، دت
٥٨. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤
٥٩. تحولات البنية في البلاغة العربية، أسامة البحيري، دار الحضارة للطبع والتوزيع، طنطا مصر، ط١، ٢٠٠٠م.
٦٠. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٧، دت .
٦١. التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم (دراسة دلالية مقارنة)، عودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، ط١. ١٩٨٥م.
٦٢. التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الاردن، ط٤، ٢٠٠٦م.
٦٣. التفسير الكبير ومفاتيح الغيب المشتهر بـ (تفسير الرازي)، للأمام محمد الرازي فخر الدين (٦٠٤ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ٢٠٠٠
٦٤. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
٦٥. التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، مجمع البحوث الاسلامية، ١٩٧٠
٦٦. التفسير والمفسرون، محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة.
٦٧. التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م
٦٨. التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم، محمد غاليم، دار تويقال للنشر، الدر البيضاء، ط١، ١٩٨٧.
٦٩. جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية لوئحمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م
٧٠. جواهر البلاغة في (المعاني والبيان والبديع)، للسيد أحمد الهاشمي، المكتبة العصرية، بيروت .
٧١. خزانة الأدب ولب لسان العرب، عبد القادر البغدادي، تحقيق: محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م
٧٢. الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة، ط٤، ١٩٨٧
٧٣. خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ط١، ١٩٨١.
٧٤. خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة الطبعة:

السابعة، دت.

٧٥. خواطر الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، مصر، ١٩٩٧م.
٧٦. دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عزيمة، دار الحديث، القاهرة، دت.
٧٧. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني المحقق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة - ١٩٩٢م.
٧٨. دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو، مصر، ط ٥، ١٩٨٤.
٧٩. ديوان أبي نواس، دار صادر، بيروت، دط، دت.
٨٠. ديوان حسان ابن ثابت، تحقيق: وليد عرفات، بيروت، ١٩٧٤، (د.ط)
٨١. ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه: علي فاعور دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧.
٨٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية. بيروت، ١٤١٥ هـ.
٨٣. شروح التلخيص، سعدالدين التفتازاني، دار الكتب العلمية، بيروت، دت
٨٤. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ
٨٥. الصاحبي في فقه اللغة، أحمد ابن فارس، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٧م
٨٦. الصحاح (تاج اللغة العربية)، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٤٠٠ هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر (د.ت)
٨٧. صنعة الشعر، أرسطو طاليس ترجمة: شكري محمد عياد، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط ١، ١٩٦٧.
٨٨. الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، المكتبة العصرية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ
٨٩. الظاهرة القرآنية، مالك ابن النبي، دار الفكر - دمشق سورية الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ
٩٠. عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، أحمد احمد بدوي، مصر، (د.ت)
٩١. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح بهاء الدين السبكي (المتوفى: ٧٧٣ هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هندواوي، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م.
٩٢. على طريق التفسير البياني فاضل صالح السامرائي، جامعة الشارقة للنشر العلمي، الامارات، ٢٠٠٤ م
٩٣. علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٥
٩٤. علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط ٥، ١٩٩٨ م

٩٥. علم الدلالة ، أ ف . أر . بالمر ، ترجمة : مجيد عبد الحليم الماشطة ، مطبعة العمال المركزية ، بغداد ١٩٨١ م.
٩٦. علم المعاني، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت . لبنان ، ١٩٧٠ .
٩٧. علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٩٣ م
٩٨. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الإزدي (ت ٤٥٦هـ)، حققه وعلق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط ٥ ، بيروت . لبنان ، ١٤٠١هـ . ١٩٨١ م.
٩٩. الفاصلة في القرآن ، محمد الحسناوي ، دار عمار ، عمان . الأردن ط ٢ ، ٢٠٠٠ م.
١٠٠. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ، دار الكلم الطيب بيروت، ط ١ ، ١٤١٤ هـ
١٠١. فتوح البلدان، البلاذري، مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٣ م.
١٠٢. فضاءات الشعرية "دراسة في ديوان أمل دنقل" ، سامح الرواشدة، المركز القومي للنشر، إربد، الأردن، ط ١، ١٩٩٩ م.
١٠٣. في الميزان الجديد ، محمد مندور، نهضة مصر للطباعة ، دط ، ٢٠٠٤ م.
١٠٤. القاموس المحيط، يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، دت.
١٠٥. القصيدة العربية الحديثة بين البنية الدلالية والبنية الإيقاعية، محمد صابر عبيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١
١٠٦. الكتاب، سيويه، عثمان أبوبشر ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩١
١٠٧. الكتابة في درجة الصفر، بارت رولان ترجمة: نعيم الحمصي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٠، (د.ط)
١٠٨. الكشاف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت . لبنان ط ١. ٢٠٠١ م
١٠٩. الكليات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٤١٩ هـ
١١٠. اللغة الشعرية . دراسة في شعر حميد سعيد ، محمد كنوني ، دار الشؤون الثقافية العامة . آفاق عربية ، ط ١ ، بغداد . ١٩٩٧ .

- ١١١ . اللغة العربية (معناها ومبناها)، د. تمام حسان، عالم الكتب، ط ٥، ٢٠٠٦ م.
- ١١٢ . اللغة والإبداع (مبادئ علم الأسلوب العربي)، عياد شكري، أنترناشونال برس، القاهرة، ط ١، ١٩٨٨.
- ١١٣ . لسان العرب لابن منظور، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت .
- ١١٤ . لسانيات النص (مدخل الى انسجام الخطاب)، محمد خطايي، المركز الثقافي العربي ، ط ١ ، الدار البيضاء ، بيروت ، ١٩٩١ م .
- ١١٥ . مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٠ م
- ١١٦ . المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لآبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم المعروف ب (ابن الأثير) ت ٦٣٧هـ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت ١٩٩٥ م .
- ١١٧ . المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ابن جنى ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، مصر، ١٩٩٩ م
- ١١٨ . المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية المحقق: عبد السلام عبد الشافي الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ،
- ١١٩ . مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المنثى التيمي، تحقيق : محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة ط ٢، ١٩٨١ م.
- ١٢٠ . مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، دار الفكر، ط ١، ١٤١١ هـ.
- ١٢١ . المدخل الى علم الأسلوب، محمد شكري عياد، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط ١، ١٩٨٢.
- ١٢٢ . معاني الأبنية، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الاردن، ط ٢، ٢٠٠٧ م
- ١٢٣ . معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ) ، دار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر، ط ١، د.ت.
- ١٢٤ . معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج ، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت ، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- ١٢٥ . معجزة القرآن، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، مصر، د.ت.
- ١٢٦ . المعجم المفصل في شواهد العربية، إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- ١٢٧ . معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت
- ١٢٨ . معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب ، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان ، ط ٢،

- ١٢٩ . معجم المطبوعات، يوسف إيان سركيس، مكتبة مرعشي، القاهرة ١٩٢٨م
- ١٣٠ . مفتاح العلوم ، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: الثانية، ١٤٠٧ هـ
- ١٣١ . مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، صالح خلف الربيعي، سلسلة بحوث اللغة العربية، السعودية، ١٩٩٦م
- ١٣٢ . مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، الناشر دار الجليل، بيروت - لبنان ١٩٩٩م
- ١٣٣ . المقتضب، لأبي العباس المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، بيروت، دت.
- ١٣٤ . من أسرار البلاغة في القرآن، د. محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية ، الأزهر. القاهرة ، ١٤٠٤ هـ . ١٩٨٤ م
- ١٣٥ . من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، محمد أبو موسى، دار الفكر العربي، القاهرة دت
- ١٣٦ . من أسرار البيان القرآني، فاضل السامرائي، دار الفكر ، عمان - الأردن الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٩م
- ١٣٧ . من بلاغة النظم العربي (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني) ، د. عبد العزيز عبد المعطي عرفه ، عالم الكتب ، بيروت . ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ . ١٩٨٤ م.
- ١٣٨ . المنصف للسارق والمسروق منه، الحسن بن وكيع حققه وقدم له: عمر خليفة بن ادريس، جامعة قات يونس، بنغازي الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م
- ١٣٩ . منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦، د. ط.
- ١٤٠ . النبأ العظيم ، عبدالله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، دمشق ، ٢٠٠٥م
- ١٤١ . النقد والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان ابن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٨٩.
- ١٤٢ . نظرية المعنى في النقد العربي ، مصطفى ناصف، دار الأندلس ، القاهرة، ط٢، ١٩٨١ م
- ١٤٣ . نظرية اللغة في النقد العربي، راضي عبد الحكيم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣
- ١٤٤ . نظرية النظم، صالح بلعيد، دار هومة ، الجزائر ، ٢٠٠١م.
- ١٤٥ . نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، أبو بكر البقاعي ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، دت
- ١٤٦ . النكت في إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، أبو الحسن الرماني، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨

١٤٧. نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري ، تحقيق : مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، ط١، ٢٠٠٤ م .
- ١٤٨ . هداية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي ، وكالة المعارف الجليلية استانبول ١٩٥١ .
- ١٤٩ . الهوامل والشوامل، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين، والسيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١

الرسائل الجامعية:

- . أسلوبية الحوار في القرآن الكريم ، رسول حمود حسن حبيب الدوري ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب . جامعة بغداد ، ١٤١٥ . ١٩٩٥ .
- . التعبير القرآني والدلالة النفسية، عبدالله الجيوسي، رسالة دكتوراه الجامعة الإسلامية، ماليزيا، ٢٠٠١ م .
- . النظم في المنظور النحوي والبلاغي ، هدى محمد صالح الحديثي ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب . جامعة بغداد، ١٩٩٣ .
- . منهج الشيخ لألوسي في تفسيره، عبدالله جنيد، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية غزة، ٢٠١١ م

البحوث المنشورة في الدوريات

- . ظاهرة حذف المفعول به: دراسة إحصائية تحليلية عاطف فضل، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ٩ العدد ١ صفر ١٤٣٤ هـ
- . علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة، د. صلاح فضل، مجلة فصول . مج ٥ ، العدد الأول (خاص بالأسلوبية) ، ١٩٨٤ م
- . فكرة العدول في البحوث الأسلوبية المعاصرة، عبد الله صولة ، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية ، عدد ١، حزيران / ١٩٨٧ ، المغرب ..

فهرس المحتوى:

المقدمة.....أ_و

التمهيد: التعريف بالألوسى وتفسيره

التعريف بالألوسى..... ١١

التعريف بتفسير روح المعانى..... ٢٠

الفصل الأول : علم المعانى بين النظم والعدول.

أولاً- علم المعانى ٣٠

١_ مفهومه..... ٣٠

٢_ نشأته..... ٣٢

٣_ أقسامه..... ٣٧

ثانياً- النظم..... ٤٠

١_ مفهومه..... ٤٠

٢- آراء البلاغيين وعلماء القرآن فى نظرية النظم ٤٥

٣- النظم والإعجاز القرآنى عند الألوسى..... ٤٩

ثالثاً- العدول..... ٥٤

١- العدول والأسلوبية..... ٥٥

٢_ العدول فى التراث العربى..... ٦٠

٣- طرق وأنواع العدول..... ٦٧

٤- وظيفة العدول ٦٩

٥- معيار العدول ٧٤

٦- العدول والنص القرآنى ٧٩

رابعاً- صور العدول عند الألوسى..... ٨٧

٨٨	١ _ العدول الدلالي.....
٨٩	٢ _ العدول التركيبي.....
٩٧	٣ _ العدول الصرفي.....

الفصل الثاني: المفردة القرآنية

- توطئة

١٠٣	أولا-سمة الاختيار في الألفاظ.....
١٠٤	١. التصوير القرآني.....
١٠٩	٢. الظلال والايحاء.....
١٠٩	٣. أصل الكلمة وتطور دلالتها.....
١١١	٤. مراعاة الجانب المعنوي واللفظي.....
١١٣	٥. الفروق اللغوية.....
١١٨	٦. الانسجام الصوتي.....
١٢١	ثانيا- العدول العددي.....
١٢١	أ- العدول عن صيغة المثني إلى صيغة المفرد.....
١٢٣	ب- العدول عن صيغة المفرد إلى صيغة المثني.....
١٢٥	ت- العدول عن صيغة المفرد إلى صيغة الجمع.....
١٢٥	ث- العدول عن صيغة الجمع إلى صيغة المفرد.....
١٣٢	ثالثا - الأفعال والأبنية.....
١٣٢	(١) معاني الأبنية الصرفية ودلالاتها.....
١٣٦	(٢) صيغ الأفعال وأزمنتها.....
١٤٤	رابعا- التعريف والتكبير.....
١٤٤	أ_ التعريف ودلالته.....
١٤٤	(١)التعريف باللام.....
١٤٨	(٢)التعريف بالإضافة.....
١٥٢	ب- التكبير ودلالته.....

الفصل الثالث: بناء الجملة القرآنية

_ توطئة

- أولاً- أسلوب الاستفهام..... ١٦٣
- ثانياً - أسلوب الأمر..... ١٧٤
- ثالثاً - النهي..... ١٨٢
- رابعاً- التقديم والتأخير..... ١٨٨
- ١- تقديم المسند إليه..... ١٨٩
- ٢- تقديم المسند..... ١٩٤
- ٣- تقديم متعلقات العامل..... ١٩٧
- ٤- تقديم بعض المعمولات على بعض..... ٢٠٢
- خامساً- أسلوب الحذف..... ٢١٢
١. حذف المفردات والجمل..... ٢١٣
- أ-الاكتفاء..... ٢١٥
- ب-الاحتباك..... ٢١٧
- ٢- حذف المفعول..... ٢١٢
- سادساً- أسلوب التوكيد..... ٢٢٦
- ألفاظ القرآن بين التوكيد وتركه ٢٣٢

الفصل الرابع: بناء الجملة القرآنية

_ توطئة:

- أولاً- أسلوب الفصل والوصل..... ٢٣٨
- ١_ الوصل ومواضعه..... ٢٣٩
- ٢_ الفصل ومواضعه..... ٢٤٤
- ٣_ الفصل والوصل والسياق القرآني..... ٢٤٩
- ثانياً- أسلوب الالتفات:..... ٢٥٦

٢٥٨	• الالتفات من الخطاب إلى الغيبة
٢٦٠	• الالتفات من الغيبة إلى الخطاب
٢٦٣	• الالتفات من التكلم إلى الخطاب
٢٦٥	• الالتفات من الخطاب إلى التكلم
٢٦٥	• الالتفات من الغيبة إلى التكلم
٢٦٧	• الالتفات من التكلم إلى الغيبة
٢٧١	ثالثاً - أسلوب التكرار:
٢٧٨	١- التكرار في الفاصلة القرآنية
٢٧٩	* التكرار في سورة القمر
٢٨٠	* التكرار في سورة الرحمن
٢٨١	٢- تكرار القصص القرآني
٢٨٣	* دراسة تحليلية لقصة نوح
٢٨٦	رابعاً- ترتيب الجمل وتربطها
٢٨٧	١- التناسب بين جزئيات الآية الواحدة
٢٩١	٢- التناسب بين الآية وما قبلها
٢٩٧	٣- التناسب بين السور القرآنية
٣٠١	الخاتمة

فهرس الآيات القرآنية

قائمة المصادر والمراجع

فهرس المحتوى

ملخص:

تتناول هذه الدراسة مباحث علم المعاني من خلال التفسير البياني للألوسي في كتابه "روح المعاني" من الوجهة البلاغية والأسلوبية، وتحاول تقديم دراسة تطبيقية للبلاغة العربية عن طريق التحليل الأدبي للأمثلة القرآنية التي تخص علم المعاني، والكشف عن بعض مبادئ الأسلوبية التي وردت في تفسيره وخاصة العدول والاختيار.

الكلمات المفتاحية: علم المعاني. الألوسي. العدول. الاختيار.

résumer:

Cette étude traite des sections de la science de la phrase à travers l'interprétation littéraire d'Al-Alusi dans son livre "L'esprit des significations" du point de vue rhétorique et stylistique, et elle tente de présenter une étude appliquée de la rhétorique arabe à travers l'analyse littéraire de Exemples coraniques liés à la structure du phrase, et pour révéler certains des principes stylistiques qui ont été inclus dans son interprétation, en particulier le deviation et la sélection

Mots-clés: la structure du phrase. Alusi. déviation. le choix

Abstract:

This study deals with the sections of Sentence Science Through the literary interpretation of Al-Alusi in his book "The Spirit of Meanings" from the rhetorical and stylistic point of view, and it tries to present an applied study of Arabic rhetoric through literary analysis of Quranic examples related to structure of the sentence, and to reveal some of the stylistic principles that were included in his interpretation, especially the justification and selection

.Keywords: structure of the sentence . Alusi. deviation. the choice